علم الاجتماع عند تالكوت بارسونز

بين نظريتي

الفعل والنسق الاجتماعي

دراسة تحليلية نقدية

تأليف

د/ محمد عبد المعبود مرسى

الأستاذ المساعد بقسم الاجتماع

كلية العلوم العربية والاجتماعية بالقصيم

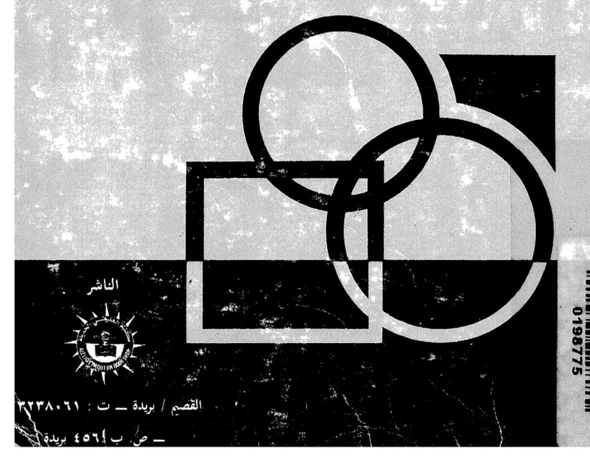
مراجعة وتقديم

الدكتور / أحمد رأفت عبد الجواد

رئيس قسم الاجتماع

كلية العلوم العربية والاجتماعية بالقصيم

جامعة الامام محمد بن سعود الاسلامية



اهداءات ٢٠٠١

أ.د. أحمد أبو زيد

أنثروبولوجي

علم الاجتماع عند تالكوت بارسونز
بين نظريتي
الفعل والنسق الاجتماعي

دراسة تحليلية نقدية

تأليف

الدكتور/محمد عبد المعبود مرسى

الأستاذ المساعد بقسم الاجتماع

كلية العلوم العربية والاجتماعية بالقصيم

تقديم

الدكتور / أحمد رأفت عبد الجواد

رئيس قسم الاجتماع

بكلية العلوم العربية والاجتماعية بالقصيم

جامعة الامام محمد بن سعود الاسلامية

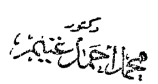
الطبعة الأولى

إهـــداء

إلى المعلم الأول أستاذى

الدكتور : أحمد مصطفى أبو زيد

أهدى إليه ثمرة من بعض غرسه الطيب



تقـديـــم

بقلـم

الدكتور / أحمد رأفت عبد الجواد

رئيس قسـم الاجتماع بكلية العلوم العربية والاجتماعيـة

بفرع جامعة الامام محمد بن سعود الاسلامية بالقصيم

يعتبر تالكوت بارسونز Talcott Parsons من أشهر علماء الاجتماع الأمريكيين المعاصرين ، فقد ولد عام ١٩٠٢ م ، وقد بدأ حياته كعالم للبيولوجيا ثم تحول إلى علم الاقتصاد ، وهو من المناصرين لاستخدام المنهج العلمى المستخدم فى العلوم الطبيعية فى الدراسات الاجتماعية للوصول إلى قوانين ونظريات اجتماعية دقيقة ومحددة . وعندما اتصل بمالينوفسكى Malinowski فى انجلترا تحول إلى الاتجاه الوظيفى وأصبح من المعارضين للمذهب التطورى ، وسافر أيضا إلى ألمانيا ودرس — فى جامعة هيدلبرج Heidelberg — أفكار ماكس فيبر Max Weber وترجم كتابه « الأخلاق البروتستانية وروح الرأسمالية » عام ١٩٣٠ إلى الانجليزية ، كما ترجم بعد ذلك « نظرية التنظيم الاجتماعى والاقتصادى » وتأثر بنظرية فيبر فى الفعل الاجتماعى كما درس وتأثر بكل من مارشال Marshall صاحب نظرية المنفعة الحدية ودوركايم Durkhiem الذى كان له الفضل فى تأكيد اعتقاد بارسونز بأن علم الاجتماع ينبغى أن يتطور إلى نسق من الفكر واقعه موجود فى عمليات الحياة الاجتماعية . هذا وتأثر بارسونز بكل من فرويد صاحب مدرسة التحليل النفسى ، وباريتو Pareto ، كما اشترك مع عالم النفس هندرسون Henderson فى مناقشة محاولة باريتو وضع نظرية علم الاجتماع على نمط ميكانيكى .

وهكذا أثرت اتصالاته العديدة ، ودراساته المختلفة تفكيره العلمى الاجتماعى وجعلته بحق أعظم الكتاب تحليلا للنسق الاجتماعى بعد سوروكين ، ومن أكبر المهتمين بالنظرية فى علم الاجتماع ، وأصبح تأثيره ضخم فى الولايات المتحدة الأمريكية وفى المعاهد والجامعات المهتمة بدراسة علم الاجتماع فى جميع بلدان العالم .

ويؤمن بارسونز بأهمية التعاون والترابط بين الاجتماع والعلوم الأخرى ، ولهذا أنشأ قسماً للعلاقات الاجتماعية فى جامعة هارفارد يضم علماء الاجتماع وعلماء النفس والفسيولوجيين والأنثولوجيين ، وعلماء البيولوجيا .

وقد كتب بارسونز العديد من الكتب والمؤلفات العلمية الهامة التى تعتبر بحق إضافات طيبة فى ميدان التنظير الاجتماعى . ويعتبر مؤلفه الرئيسى الأول « بناء الفعل الاجتماعى The Structure of Social Action » (١٩٣٧ م) بمثابة نقد لنظريات مارشال وباريتو ودوركايم وفيبر ، وهو يرى أنه برغم الاختلافات بين هؤلاء العلماء إلا أنهم جميعا بدءوا من نقطة واحدة هى فى رأيه — « الفعل الاجتماعى التطوعى أو الاختيارى » — ورغم أن هذا المؤلف يكشف عن عمق فكر بارسونز ويعتبر إسهاما تحليليا رائعا فى هذا المجال إلا أن أسلوبه معقد ، وعباراته طويلة وقد تكون فى بعض الأحيان غامضة . وقد جاءت كتاباته عن بناء الفعل الاجتماعى بصورة رمزية ثم توسع فى عرضها كنظرية فى عدد من كتبه المتعاقبة مثل :

— مقالات فى النظرية الاجتماعية الخالصة والتطبيقية ١٩٤٩ م .
Essays in Sociological Theory, Pure & Applied

— نحو نظرية عامة للفعل والنسق الاجتماعى ١٩٥١ م .
Toward a General Theory Action & Social System.

— أوراق فى نظرية الفعل بالاشتراك مع بيلز Bales ١٩٥٣ م .
Working Papers in the Theory of Action.

وعالج بارسونز فى هذه المؤلفات قضيتين أساسيتين هما النظرية العامة للفعل General Theory of Action ، ونظرية النسق الاجتماعى Theory of Social System وترتبط هاتان النظريتان ببعضهما ارتباطا وثيقا ، ويصعب فهمهما إلا فى إطار تكاملى ينم عن شخصية بارسونز ، وتكامل آرائه الاجتماعية .

ويحسن بنا أن نشير بسرعة وإيجاز إلى مضمون هاتين النظريتين عنده .

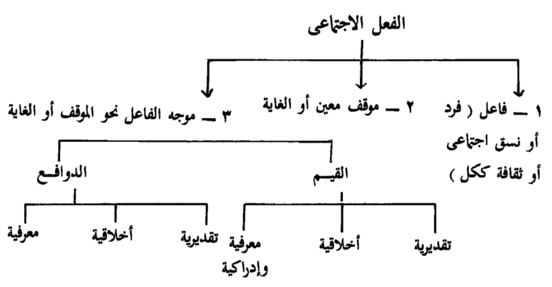
أولا : نظرية الفعل الاجتماعى :

يرى بارسونز أن الفعل الاجتماعى ما هو إلا نسق معقد من السلوك ، يمكن تقسيمه إلى أجزاء مختلفة يمكن تحليلها ودراستها فى علاقاتها المتبادلة . ويحتوى كل نسق من السلوك على « الفاعل » والرموز والقيم التى توجهه . ودراسة أى نسق من السلوك توضح لنا كيف يعمل أو يفعل أو يؤدى وظيفته .

وهو يرى أن كل « فعل اجتماعى » يشتمل على ثلاثة عوامل هى :

١ ــ الفاعل . ٢ ــ الموقف . ٣ ــ موجهات الفاعل نحو الموقف .

وتنقسم موجهات الفاعل إلى الدافع أو القيمة ويمكن توضيح ذلك بالرسم الآتى :



وعلى ذلك فإن بارسونز كون ثلاثة أنساق تحليلية هى : نسق الشخصية ، والنسق الاجتماعى والنسق الثقافى .

فأما نسق الشخصية فيشير إلى المراكز الاجتماعية للفاعلين وأدوارهم فى الموقف ، ويشير المركز الاجتماعى إلى مكان الفاعل فى نسق العلاقات الاجتماعية التى تعتبر كبناء ، ويشير الدور إلى سلوك الفاعل فى علاقاته مع الآخرين ، ويعتبر هذا

السلوك هاما من الناحية الوظيفية للنسق الاجتماعى ويمكن تحديد الأدوار الاجتماعية لشخص ما فى ضوء أنماط التوقعات المحددة ثقافيا . ومن جملة الأدوار المترابطة يتكون النظام الاجتماعى Social System .

وتعتبر النظم الاجتماعية عنده هى بؤرة اهتمام علم الاجتماع ، لأن أهم وظيفة للنظم الاجتماعية هى ضمان الاستقرار ، وتماسك المجتمع ، والحفاظ على قيمه ومعاييره .

وأما النسق الاجتماعى فيتضمن عنده عدة معانى ، فنجده يعرفه على أنه عدد من الأفراد الفاعلين المتفاعلين مع بعضهم ، وقد يكون النسق نسيج من العلاقات بين الأفراد ، وقد يكون الدوافع التى توجه عدد من الأفراد الفاعلين . وبصورة عامة فإن فهم النسق الاجتماعى يتطلب فهم الموجه الدافعى للأفراد .

وأخيرا فإن النسق الثقافى عند بارسونز واضح ، فهو يرى أن الثقافة هى نتاج أو ثمرة من ناحية ، كما أنها تحدد أنساق التفاعل الاجتماعى الإنسانى من ناحية أخرى ، ويتكون النسق الثقافى من ثلاثة أنساق فرعية هى : الأفكار ــ الرموز ــ الموجهات القيمية .

وتبرز نظرية الفعل الاجتماعى اتجاهات بارسونز وتأثره بأفكار من درس لهم ــ ولكن وفق صياغة جديدة ــ فكانت تعبيرا عن ثلاثة اتجاهات دراسية تبلورت لديه وهى :

(أ) **التفكير النفعى** : الذى ينمو بالفعل الإنسانى إلى الانقسام والتجزئة ، والاختيار الحر القائم على المنفعة ، وتفضيلات الأفراد ، ولم يهتم بهذا اللون من التفكير بالترابط والتكامل بين المشاركين فى الفعل قدر اهتمامه باستمرار الحركة بغير توقف لتستمر الحياة ، وأوجب نظام قانونى ينظم الملكيات ويحافظ عليها .

(ب) **التفكير الوضعى** : وهو يعالج السلوك فى ضوء القوانين العلمية ، ويرفض فكرة التوزيع العشوائى للغايات لأنه يرفض النفعية ، ومما هو معلوم أن التفسير الوضعى للفعل تفسير سببى يمزج بين ضرورات الوسط الطبيعى ، وحقائق

الوراثة من أجل مواءمة مقبولة بين ظروف الحياة وواقعها ، وبين النشاط الاجتماعى ، ودور المعايير فى توجيه الفاعل الفرد ، وهكذا يظهر التفكير الوضعى فهما متكاملا لأبعاد الفعل الاجتماعى ، وإن كان قد بالغ فى تقدير الطابع الاجتماعى مما حال دون الكشف عن الدور الذى تلعبه الارادة الحرة فى اختيار نماذج السلوك .

(جـ) **التفكير المثالى** : فيفسر ظواهر الفعل انطلاقا من قيم المجتمع التى هى رموز ثقافية مشتركة وفى رأى المثاليين أنه من الصعب أن نفسر السلوك تفسيراً جزئيا ، لأن فهم السلوك يستلزم الإحاطة بكل جوانب الموضوع ، وذلك الفهم لا يكون إلا بمنهج ذا طابع كيفى تاريخى فلسفى يؤدى إلى عالم المعانى أو المُثُل .

وقد جاء تصور بارسونز للفعل الاجتماعى متأثراً بهذه الاتجاهات الفكرية الثلاث ، ولكن وفق صياغة جديدة وفقت بين آراء هذه الاتجاهات ، وأكدت على أهمية التنظيم الاجتماعى فى ضوء معايير وقيم ، وعن طريق التنشئة الاجتماعية السليمة .

ثانيا : النسق الاجتماعى :

وهنا سنبرز النسق الاجتماعية من حيث وظائفها التى جمعها بارسونز فى أربعة وظائف أساسية هى : الوصول إلى الهدف ــ التكيف ــ التكامل ــ دعم النمط وحسم التوتر .

وسأشير إلى كل وظيفة منها بإيجاز شديد :

(أ) **الوصول إلى الهدف :**

أى فاعلين بداخل أى نسق اجتماعى يسعون إلى تحقيق أهداف ، وإلا ما كان هناك نسق أصلا ، ومع أن الفاعلين يشغلون مراكز اجتماعية مختلفة ، ويؤدون أدوارا مختلفة ، إلا أن هناك أهدافا جمعية يجب السعى إليها ، والعمل على تحقيقها ، وعن طريق تنظيم المراكز وتحديد الأدوار داخل كل جماعة ، ومن خلال توضحي الوسائل والغايات يتجه النسق الاجتماعى نحو تحقيق أهدافه التى رسمها لنفسه ، أو رسمها له نسق اجتماعى أعم (وحدة بنائية أكبر) كالمجتمع .

(ب) التكيــف :

وهو يقصد به أن كل نسق فرعى داخل نسق أكبر (بناء جزئى داخل بناء اجتماعى كلى) عليه أن يخضع ظروف البيئة الاجتماعية والمادة لمشيئته ، ويسيطر عليها ، حتى يمكنه أن يستمر فيها ويحقق أهدافه ، وكذلك يجب أن تتكامل وظيفة النسق الاجتماعى الفرعى (البناءات الاجتماعية الأقل) مع وظيفة النسق الاجتماعى الأكبر ، كما ينبغى ألا تتعارض وظيفة أى نسق فرعى مع أهداف أى أنساق فرعية أخرى .

(جـ) التكامــل :

ويعنى بالتكامل العلاقات التى تتم داخل النسق الاجتماعى بالذات ، وهو يرى أن دراسة العلاقات الداخلية بين أفراد النسق ذات منظور سسيولوجى أصيل ، وذلك لأن العلاقات الإنسانية تختلف عن العلاقات بين الكائنات الحيوانية والحشرية الأخرى . فمجتمع الحشرات مثلا يشترك مع المجتمع الانسانى فى وظيفة تحقيق الهدف وفى وظيفة التكيف ـــ السابق الإشارة إليهما ـــ فالحشرات لها تنظيم اقتصادى (إنتاج وتوزيع واستهلاك) كما تعمل على استمرار النوع ، وأيضا تتكيف الحشرات مع البيئة الخارجية بما فيها من حرارة ورطوبة وظلمة ونور وتضاريس ... ، ولكن استمرار الحشرات فى الحياة قائم على أساس بيولوجى وعضوى وهى ترتبط ببعضها ارتباطا تمليه ضرورات استجاباتها للتفاعل الذى تفرضه غرائزها وجهازها العصبى والاستشعارى ، أى أن ترابط الحشرات وتماسك مجتمعاتها يتم بطريقة تلقائية أوتوماتيكية . أما فى المجتمعات الإنسانية فإن الأمر يختلف ، فالترابط والتماسك الاجتماعى لا يتم بطريقة أوتوماتيكية ولكن عن طريق المرونة والتكيف والثقافة التى ينفرد بها عن باقى الكائنات الحية والمعانى الرمزية المشتركة . فالأنساق الاجتماعية عند الإنسان لا تساند بيولوجيا لذلك ينبغى على الفاعلين مساندتها وتجديدها وتكاملها . ولا يمكن للنسق أن يصبح متكاملا إلا إذا كان هناك تبادل وظيفى بين ثلاثة عناصر أساسية هى :

الوسائل الثابتة المستقرة (المراكز / الأدوار) ، وأهداف الفاعل الشخصية (كالرضا ، والأمن ، والسعادة ، والثروة ، والمركز الاجتماعى ، والسلطة .. الخ)

وأخيرا أهداف النسق (كانتاج السلع والتنشئة الاجتماعية) وبذلك يصبح هدف التكامل هو تحقيق التماسك والتضامن واستقرار النظام ، واستمرار نسق العلاقات ولما كانت عملية التكامل لا تتوقف عند حد ، ولا تنتهى فإنها تصبح بحاجة إلى تجديد ميكانزماتها باستمرار .

(د) دعم النمط وإدارة التوتر :

وهو يركز على الأسرة كنسق اجتماعى ودورها فى التنشئة الاجتماعية حيث تقوم بتعليم الأطفال وتقبلهم للصيغ الفكرية والقيمية المميزة لنسق الثقافة مما يحقق التكامل المعرفى للفاعل مع القيم والمعايير والأبنية الاجتماعية للنسق ، كما أن الأسرة تساعد أفرادها على التعبير عن توتراتهم ، وتستجيب لمطالبهم ، وبذلك تخفف من التوترات ، ويترتب على ذلك أنها تساعد أعضاءها على آداء وظائفهم بقدر أكبر من الفاعلية . وتساند الأسرة تنظيمات أخرى متخصصة ينشئها المجتمع لنفس الغرض ، وتحقيق وظيفة دعم الحالة الداخلية للنسق الاجتماعى بحيث يكون الفاعل متكيفاً ومتكاملاً تماماً مع بناء النسق .

والحقيقة إن فكر بارسونز فيما يتصل بهاتين النظريتين يرتبط ارتباطاً وثيقاً بباقى أفكاره ، ويتخذ منهما محوراً تدور حولهما بقية هذه الأفكار والنظريات خصوصا : نظرية التفاعل الاجتماعى ، وأنماط المتغيرات ، ونظرية التنظيم الاجتماعى ، وأنماط التنظيمات وغيرها مما جاءت فى مؤلفاته التى أشرنا إلى أهمها .

والكتاب الذى بين أيدينا « **علم الاجتماع عند تالكوت بارسونز** » بين نظريتى الفعل والنسق الاجتماعى ، دراسة تحليلية نقدية . يعتبر محاولة جادة من جانب الدكتور / **محمد عبد المعبود مرسى** لإلقاء الضوء على أهم الجوانب الفكرية لدى بارسونز ذلك العملاق المفكر ، طوع فيها نظريتى الفعل والنسق بأبعادهما المختلفة للقارىء العربى ، والمتخصصين فى دراسة علم الاجتماع ونظرياته ومدارسه ولم يَفُتْ الدكتور مرسى أن يبدأ بتتبع مناهل بارسونز العلمية ، ومن تأثر بهم ممن درس لهم ، ومن عارضهم ونقد أفكارهم من علماء سابقين ، فكان مؤلفه هذا مترابط الأفكار ، متسق المنطق ، تمهد الفكرة فيه لما بعدها مما يسر كثيرا فهم أفكار بارسونز التى سبق وأن أشرت إلى صعوبة فهمها بأسلوبه نفسه كما جاءت فى كتاباته .

ويقع الكتاب فى سبعة فصول بخلاف المقدمة والمراجع : ففى الفصل الأول يتناول الخلفية العلمية التى تأثر بها تالكوت ، والثانى يعرض فيه لإطار نظرية الفعل الاجتماعى والثالث يناقش فيه أنساق الفعل ، والرابع خصصه للحديث عن النسق الاجتماعى ، وفى الخامس يثير القضايا الأساسية فى نظرية النسق البارسونزى ، أما الفصل السادس فنقرأ فيه الاتجاه البنائى الوظيفى وقضية النسق ، وفى الفصل السابع والأخير نقد علمى موضوعى لآراء بارسونز ونظريته فى الفعل . وفى نهاية كل فصل نجد الكاتب قد أفاض فيه من منهجه العلمى النقدى ، فتقرأ تعقيباً على ما تضمنه كل فصل من فصول هذا الكتاب .

أما مؤلف هذا الكتاب فهو أستاذ مساعد بقسم الاجتماع بكلية العلوم العربية والاجتماعية بالقصيم ، يتميز بالصبر والمثابرة خاصة فى بحوثه العلمية ، ذو نفس طويل فلا يضيق صدره بما يقابل من صعوبات ، وربما كان هذا النفس الطويل واضحا فى صياغة عباراته وجمله ، وقد يكون مرجع ذلك تأثره بكتابات بارسونز نفسه . وعلاوة على ذلك فقد تمرس البحث والتدريس فى عدة جامعات عربية (بمصر والجزائر والسعودية) ولهذا فإنه ذو خبرة واسعة فى البحث العلمى ، وهو فوق ذلك ذو خلق قويم ، ولا عجب فهذه سمة العلماء .

لهذا أقدم كتابه « المذكور » للمكتبات العربية التى تحرص على إثراء فكر روادها من العرب واتصاله بفكر أحد جهابذة العلم فى أمريكا . وأقدمه أيضا للزملاء فى هذا اللون من المعرفة الاجتماعية ، وسيجد فيه طلابنا — بمشيئة الله — كل ما يصبون إلى تعلمه من جوانب تنظيرية فى فكر بارسونز خاصة ، وفى نظرية علم الاجتماع عامة . وإن شاء الله يكون هذا المرجع بمثابة الباكورة العلمية للمؤلف ، وعملا تتلوه أعمال أخرى على نفس المستوى من الدقة والموضوعية ، والله ولى التوفيق .

بريدة فى ١٤٠٤/١٠/٢٥ هـ   د . أحمد رأفت عبد الجواد

المقــدمـة

يزخر ثرات علم الاجتماع بالكثير من النظريات ، وربما كان مجال التنظير فى هذا العلم أكثر منه فى أى علم آخر ، بالمقارنة لحداثته بين العلوم الاجتماعية . ومع تباين معايير التصنيف وتنوعها ، فان الاتجاهات النظرية من حيث الاتساع والضيق يمكن أن تنقسم إلى فروع ثلاث هى ؛

١ ـــ النظريات التى تتناول الوحدات الكبرى ، مثل المجتمعات أو الثقافات الكلية . ويطلق عليها اصطلاح « الماكروسوسيولوجيا » .

٢ ـــ النظريات التى تدرس الوحدات (أو الجماعات) الصغرى . ويعرف هذا المدخل « بالميكروسوسيولوجيا » أو علم اجتماع الجماعات الصغيرة .

٣ ـــ النظريات متوسطة المدى أو البعد . وتحتل مكانا وسطا بين النوعين السابقين .

وتنتمى نظرية النسق والفعل الاجتماعى إلى النظريات الكبرى . وبالرغم من انتشار الدراسات الامبيريقية فى الولايات المتحدة الامريكية ، وبروز شأن بعض المدارس (مثل مدرسة شيكاغو) ، الا أن القضايا الكبرى ، كانت موضع اهتمام جمهرة من العلماء .

وتشهد فترة الستينات من هذا القرن بمكانة نظريات تالكوت بارسونز ، ولا سيما نظرية النسق الاجتماعى . ويعود ذلك فى المقام الأول إلى الصراع الايدلوجى بين علماء الاجتماع فى الشرق والغرب . وتنطوى جهود بارسونز على محاولات مستمرة

لصياغة اطار تصورى يخدم فلسفة التكامل والتماسك الاجتماعى ، فى مواجهة النقض والنفى والصراع . وعلى الرغم من وجود بعض الأفكار المتفرقة عن أراء بارسونز ، فى عدد من الكتب العربية ، فليست هناك دراسة خاصة (منشورة) عن أعماله . وقد اتيحت لى الفرصة فى بداية عام ١٩٧٤ للقيام بدراسة فى هذا الصدد ، تم تطويرها بعد اضافة ما استحدث فيها من جانب بارسونز ومؤيديه ومعارضيه على حد سواء ، وذلك حتى نهاية عام ١٩٧٨ . وأنوه إلى أن هذا البحث ، لا يعدو أن يكون اسهاما جزئيا فى شرح أهم الافكار ، دون أن يتعدى ذلك إلى مجال الشمول والاستيعاب . ولكنه — من غير شك — ايجاز وجيز للمقاولات والمفاهيم الاساسية ، التى يمكن الاستفادة منها لمن يرغب فهم التيارات النظرية فى علم الاجتماع .

ولقد صادفت مهمتى العلمية الكثير من الصعوبات . فأفكار بارسونز على جانب كبير من التعقيد ، الامر الذى جعل نقلها إلى العربية وتقديمها بشكل ملائم ، من الصعوبة بمكان . أضف إلى ذلك أن الاسلوب الذى اختاره للتعبير عن آرائه ، جاء على غير ما هو مألوف ومعتاد لدى علماء الاجتماع الاخرين . لاسيما الصيغ المركبة والمصطلحات الجديدة . وقد شجعنى على اجتياز هذه العقبات وغيرها ، أستاذنا الكبير الدكتور أحمد مصطفى أبو زيد ، الذى منحنى ثقة غير محدودة ، وغرس فى نفسى حب العلم ، ودوام البحث عن الحقيقة ، فكان خير عالم وأعظم معلم . وانطلاقا من ذلك كله ، كان على أن أعود للمصادر الاساسية ، ومحطها مؤلفات بارسونز نفسه ، منذ صدور كتابه « بناء الفعل الاجتماعى » سنة ١٩٣٧ حتى آخر المقالات العلمية له عام ١٩٦٨ ، ثم متابعة التطورات اللاحقة إلى نهاية عام ١٩٧٨ . هذا بالاضافة إلى ما كتب عنه ، خاصة مؤلفات ألفن جولدنر Alvin Gouldner ومـاركس بلاك Max Blackودافيـد لكـــوود David lokwoodوتوماس بورجر Thomas Burger واستيفن وارنر Stephen Warner وغيرهم .

وتعتمد أفكار بارسونز على خلفية أيديولوجية تتآزر بشدة مع واقع الحياة فى المجتمعات الرأسمالية ، وتناهض الاتجاهات الماركسية الكلاسيكية والجديدة معا . وقد بلغ هذا الموقف حد الذروة فى فترة معينة من تطور علم الاجتماع . وهى نفس الفترة التى ذاعت فيها آراء بارسونز فى الولايات المتحدة الامريكية وأوربا واليابان إلى مستوى

يقترب من تبنى المجتمعات الاشتراكية للفكر الماركسى . الا أن الامور قد تبدلت اليوم ، وفيما بعد مرحلة الوفاق ، بحيث أضحت نظريات باسونز ، أكثر انتماء إلى تراث علم الاجتماع المعاصر ، منها إلى تجسيد الواقع النظرى الراهن . ومع ذلك فان بعض أفكاره جديرة بالاهتمام والمتابعة ، فضلا عن ضرورة الوقوف على قضايا التراث النظرى للباحث الاكاديمى ، والدارس المقيم بالمثل .

ويمكن القول بأن اسهامات بارسونز تناولت بالتحليل قضيتين أساسيتين ، أولهما ما يطلق عليه « النظرية العامة للفعل » ، والتى اكتملت مقوماتها فى عام ١٩٣٧ ، ثم شاهدت تطورات تاليه فى الصياغة حتى عام ١٩٥٦ ، وثانيهما نظرية النسق الاجتماعى عام ١٩٥١ . وقد تغيرت بعض ملامحها هى الاخرى ، عن طريق الاضافة والتعديل ، كلما دعت الشروط العلمية ، على نحو ما تؤكده المقالات المتعددة التى كتبت فيما بعد . بيد ان أعمال بارسونز كلها تشير منذ عام ١٩٤٩ إلى تصوره للمجتمع كنسق مستقر الحدود والابعاد . وهذا هو السبب الذى من أجله تحظى مشكلات النسق بمزيد من الشرح فى هذا البحث بالمقارنة لقضايا الفعل . وهذا التحول الذى ارتبط بظروف كثيرة ، سياسية واقتصادية واجتماعية لا يخل بالوحدة الفكرية فى نظريات بارسونز أو ينطوى على التناقض بين الاراء فى الماضى والحاضر ، بقدر ما يعبر عن ضرورة التطوير فى المقولات والقضايا كشرط لنمو النظرية السوسيولوجيه .

ومن ثم فان موقفه من نظرية الفعل الاجتماعى وثيق الصلة بإتجاهه حيال نظرية النسق الاجتماعى . ويتجلى ذلك فى الارتباط التحليلى بين الاطار التصورى لنظرية الفعل ، وبين انساق الفعل ومنها النسق الاجتماعى الذى اصبح مجال الاهتمام الرئيسى ووحدة الدراسة الاساسية فى النظرية الاجتماعية ، ودائرة لتجسيد فكرة تضاؤل الانساق . على أن أفكار بارسونز ليست جديدة بقدرما هى تركيبية . وتفسير ذلك انه استلهم الكثير ممن سبقوه وعاصرورة ثم اكتسبت القضايا والمقولات المستلهمة شكلا نظريا جديدا ، وجد من يروج له بين الطلاب فى جامعة هارفارد . وتعود شهرة بارسونز إلى نشأته العلمية وأثرها فى تفكيره وتعبيره فقد قدم مجموعة من المصطلحات الجديدة والمميزة ، وطائفة من الافكار المتعمقة والتى كانت الوجه

الشائع لمعظم ما كتب على وجه التقريب . وبالرغم من زمالته لعالم الاجتماع الشهير بيترم سروكن P. Sorokin الا انها كانا خصمين كبيرين ويرجع ذلك إلى التباين الفكرى بينهما على نحو ما هو معروف فى تاريخ النظرية السوسيولوجية(١) .

هذا وتجدر الاشارة إلى ان الاتجاه النظرى عند بارسونز ، يناهض المذهب الحتمى فى تفسير السلوك . ومن اجل ذلك وجد فى ثنايا التفكير الطوعى ما يحقق التوزيع الامثل لكفايات الافراد وقدراتهم فى ظل الاستقرار وتكامل الوحدات ، وعن طريق التغيرات التوافقية . وهذا ما يمثل احدى مقومات مسلكة المبكر فى بناء الفعل الاجتماعى . واعتبر الطوعية والاخلاقية لازمتين متكاملتين فى التعبير عن الارادة الطبيعية التى تحكمها القيم النهائية ويدعمها الجهد الخلاق والمبدع للانسان . ومع تصور بارسونز لوجود الجوانب « اللامعيارية » جنبا إلى جنب مع الظواهر المعيارية فقد ايقن بسيطرة الثانية واصالتها ، وانحسار الاولى وهامشيتها ، وبسهولة استيعابها ، ثم لم يلبث ان تحول نسبيا عن الاتجاه الطوعى إلى اثبات اهمية الشروط المفروضة . ولهذا التحول ظروفه وعوامله ، واجدرها بالذكر الحروب والازمات الاقتصادية وما صاحبها من تغيرات وتلاها من نتائج وآثار .

---

(١) ولد بارسونز فى الولايات المتحدة الأمريكية ، وتخرج فى كلية امهرست وزامل عالم البيولوجيا هندرسون Henderson وتأثر بدراساته ، كما وجد فى آراء دوركايم وماكس فيبر ، وفلفريد وباريتو ، قضايا جديرة بالاهتمام والمتابعة ، وأثار مالينوفسكى فى نفسه الاهتمام بالاتجاه الوظيفى . وعندما شغل عدة مناصب بجامعة هارفارد ، تمكن من الالتقاء بكبار العلماء أمثال ألفرد مارشال Marshall ، فأضاف بذلك أبعاد جديدة لأفكاره ، كما كان لسعة اطلاعه وتعمقه ، دور كبير فى صياغة آراء كلها طموح وتفاؤل ، تطلعا إلى آفاق أبعد ، تصور من خلالها المجتمع كيانا متسق الأركان ، ومستقر التكوين ، ومحفوظ الحدود .

ولقد أتاح الوسط العلمى لبارسونز مقدرات التفوق والنبوغ واستطاع وسط الخضم الكبير من التوجيهات النظرية أن يأتى بأفكار تتفق مع الايديولوجيا الرأسمالية فى الولايات المتحدة وأوربا . وتبنى فريق من العلماء الشبان نظرية بارسونز وأكدوها . كما وقف رجال الاقتصاد والسياسة وأرباب الأعمال منها موقفا مشجعا لما لمسوه فيها من دعاوى تفق وقضاياهم وتدعم من جانب آخر مصالحهم فقد جاء بارسونز — على حد تعبير جولدنر — بفهم جديد للعلاقة بين الفرد والمجتمع ، وتصور ملائم لما يمكن أن تكون عليه طبيعة التنظيم الاجتماعى . وينطوى ذلك على تطوير فكرة الاعتماد المتبادل بين المكونات والأقسام أو أجزاء الكل الاجتماعى فيما اعتبر انه الرد المناسب على ما تنادى به الماركسية من أفكار .

ومن هنا ظهرت فكرة الملزمات الوظيفية « ذات التقسيم الرباعى . وهذه الملزمات تؤكد الشروط المفروضة ، وتمنح الابعاد التحكمية والجوانب النفعية دورا اكبر فى تقرير حقائق الفعل ومن ثم فان هذه العناصر الوظيفية تحمل طابعا جديدا يعبر فى جانب منه عن الافكار الليبرالية المحافظة من جهة اخرى .

ولهذا فقد حاول رد قضايا المجتمع إلى الافكار ، مؤكدا الجوانب المعيارية كما فعل دوركايم ، ومترسما الخط الفكرى الذى بدأه ماكس فيبر . ومن ثم كان التوازن الاجتماعى القاعدة العريضة لبناء المجتمع ولتحديد . وظائفه عن طريق النظم الاجتماعية ، التى هى من جانب اخر ، أنساق فرعية ، أو وحدات نوعية ، يتحقق بينها التكامل الاجتماعى بفعل ميكانيزمات خاصة ، من بين وظائفها ايضا ، تصريف التوترات ، واقصاء الصراع والانحراف ، لتبقى هذه الظواهر هامشية أو مغتربة ومع إنتقاد بارسونز للوضعية الاجتماعية فى باكورة اعماله سنة ١٩٣٧ ، الا انه اخذ عنها بعض المبادئ وضمنها مخططه النظرى لا سيما الاعتماد المتبادل والتكامل الاجتماعى وتدعيم النظام القائم . غير أن إمعانه فى تقديم الصياغات المركبة والافكار الملتوية اضاف مزيدا من الصعوبات وتعسر الفهم امام الدارسين ، وتبع ذلك التفاف الطلاب حوله ، طلبا للشروح وتوضيح المفاهيم . واشير هنا إلى ان العلم لا يحقق تقدمه المنشود الا عن طريق البساطة فى التعبير ، وسهولة استخدام المصطلحات وامكان تداولها ، بين المتخصصين فى ذات المجال . واذا كان علم الاجتماع يهدف إلى إثبات الحقائق ودوام اضطرادها عن طريق الالتقاء بين النظرية والبحث ، فان بلوغ تلك الغاية يعتمد فى جانب منه على تبسيط المفاهيم والافكار واكتسابها طابعا ملموسا .

ومن جانب آخر تأثر بارسونز بعلم النفس وبالتحليل النفسى على وجه الخصوص ، تشهد بذلك مؤلفاته المتعددة ، ولا سيما « الاسرة والتنشئة الاجتماعية وعملية التفاعل » سنة ١٩٥٦ ، ثم « البناء الاجتماعى والشخصية » سنة ١٩٦٤ . ويعترف بالانطباع السيكولوجى حين يقرر بأن العلاقة بين علم النفس والاجتماع شبيهة بالعلاقة التى تربط علم الكيمياء الحيوية بالفسيولوجيا العامة . ومع استخدامه لكثير من المصطلحات المستعارة من علم النفس التحليلى وغيره من الفروع ، الا انه

يصرح فى اكثر من موضع ، بأن منطق التفسير السوسيولوجى لا يتناقض مع الافكار السيكولوجية . وهو فى ذلك يبتعد عن موقف دوركايم ويميل نحو علم الاجتماع الالمانى ، خاصة عند ماكس فيبر . ولهذا يصعب فى كثير من الاحيان تعيين مكانة بارسونز بالنسبة للنظرية الاجتماعية المعاصرة . فاتجاهة الشمولى والكلى حيال قضية الفعل والنسق الاجتماعى ، يضعه فى اطار ما يعرف بعلم الاجتماع النظرى . غير ان مواقفة المزدوجة من المشكلات المطروحة ، كانت موضع خلاف بين المؤرخين للنظرية السوسيولوجية . فتارة يقف موقفا سلوكيا أقرب إلى اتجاهات علماء المدرسة السلوكية فى علم النفس ، وتارة اخرى ينحو نحوا وظيفيا محدثا ، وتارة ثالثة تتأكد مواقفة التجريدية الخالصة ، بما يشبة من بعض الوجوه مسلك اليوتوبين الاجتماعيين ، على حين نراه فى بعض الاحوال يقترب بشدة من الدراسات الامبيريقية .

ومن جانب ثالث جمع بارسونز بين اطراف متباينة لكثير من العلوم الاجتماعية وربما العلوم الانسانية ككل . حيث استعار العديدمن الافكار والمقولات ، الامر الذى يمكن معة القول بأن موقفة النظرى جاء مشوبا بكثير من المعارف يصحُ معها وصفة بالنزعة الانسكلو بيدية . واذا كان نيقولا تيماشيف قد وضع نظريات بارسونز فى السياق النظرى ضمن المرحلة الرابعة من مؤلفة نظرية علم الاجتماع ، فان اتجاهاته الفكرية مركب متعدد الابعاد من التيارات الوظيفية والسيكولوجية والعضوية . كما تأثر بالتقليد الثقافى وفلسفة التاريخ منذ توماس هو بز حتى التحليل النفسى عند فرويد وغيره من الكلاسكين ، كما اخذ عن الوظيفية المحدثة اهم افكارها . ولهذا يقدم اراء تتسم بطابع عقلانى تفاؤلى ، يختلف عن وضعية دوركايم ولا يشارك فيبر نزعته التشاؤمية وان أعجب بمثاليته .

ويتجلى ذلك عند طرحه للمعضلة الهوبزية المرتبطة بكيفية مواجهة الصراع الاجتماعى وطريقة تنظيم المجتمع وبينما افاض هوبز الفيلسوف السياسى فى الحديث عن طبيعة مرحلة الفطرة ، وقدم تبريرات قوية لضرورة التعاقد الاجتماعى ، فان الحلول التى دعى اليها لم تكن حاسمة بل أدت إلى تفاقم المشكلات . وقد ايقن بارسونز بأن الطريق نحو الحل الجذرى لمشكلات التنظيم الاجتماعى ، يكمن فى تقرير نظرية كبرى ، تقوم على اساس من التكامل بين وحدات المجتمع واستقرار النظم وتبادل

المنافع بين الشرائح والطبقات . ولما كانت التوترات الاجتماعية مصدر الازمات وسبب الشقاق ، فان التوازن الاجتماعى ينبغى ان يكون القاعدة الاساسية فى بناء العلاقات واداء الوظائف . وعندما اخذ على عاتقه مهمة صياغة نظرية تحقق هذا الهدف ، وجد ان الموقف الفكرى يحتاج للمراجعة . فالنظرية النفعية التى اثارها هوبز ، وجدت صدى لها فى ثنايا التفكير الاقتصادى ، ورواجا كبير بين أنصار مذهب الحرية الاقتصادية ، وظهرت فلسفات تنادى بالتحرر من كل القيود وافساح المجال امام المنافسة الشديدة ، وتدعيم مبدأ المنفعة . وقد ترتبت على ذلك نتائج خطيرة ، ولم تفلح النظريات الاقتصادية فى تفسير وحل قضية الفعل ، أو اعادة تنظيم المجتمع من الناحيتين التصورية والامبيريقية .

ولم يقتصر الامر على نظريات الحرية الاقتصادية ، بل صادفت النظرية الماركسية اخفاقا فى التمييز بين المصالح الاقتصادية والسياسية ، لان التاريخ الذى قدمته عن الصراع بين مصالح الطبقات قام على اساس من البراعة النظرية ، وبينما لم يتمكن دعاة الاقتصاد الطبيعى من الكشف عن المصالح الجوهرية للطبقات والشرائح الاجتماعية ، بالغ ماركس فى تضخيم مشكلة الصراع . وبالمقابل رأى بارسونز فى افكار دوركايم وفرويد ماكس فيبر ، قضايا جديرة بالاهتمام ، لا سيما ما يتناول منها دور المعايير والقيم فى تجسيد السلوك . كما وجد فى اتصاله بما لينوفسكى فى بريطانيا فرصة لتنقيح المفاهيم الوظيفية خاصة مصنفه عن الملزمات الوظيفية ومتغيرات النمط بمستوياتها ونماذجها .

وتمشيا مع التطور فى العلم وتقدم التكنولوجيا ، وظهور دور اجهزة التحكم والسيطرة الاليكترونية ، بدأ بارسونز بتطبيق فكرة الضبط السيبرنا طيبقى على الانساق الاجتماعية . وبات ذلك واضحا فى تحليله لطبيعة التكامل الاجتماعى والتدعيم الذاتى ، وأثناء مناقشة للنقود كميكانيزم يصل النسق الاقتصادى بالمشكلات الاجتماعية والثقافية ، كما تتبلور تلك الفكرة فيما يطلق عليه التوازن الديناميكى Dynamic equilibrium وأوساط التبادل العامة والمصالح الراسخة Vested intersts . وهذه المفاهيم انعكست على تفسير بارسونز لكل من التغير الاجتماعى والضبط والصراع . فيلاحظ أولاً ان موقفة من التغير كظاهرة ، ثم كنظرية يختلف عن غيره

من العلماء اختلافا بينا ، ولكنه يجسد إلى حد كبير الفهم الوظيفى ، كما يدل تحليله للصراع على تحفظ شديد .

ومع تعرض النسق القيمى للتحولات الباردة والساخنة ، فإن دينامية التوازن تدعم التيارات المستقرة باستمرار ، وتحقق الاتفاق والمطابقة . ولهذا بذل بارسونز جهدا ملحوظا لابراز الدور الذى تلعبه القيم فى الانساق الاجتماعية . غير ان الاسهام الذى حظى بقسط وافر من انجازه — على ما يرى جون ريكس — كان بناء الفعل الاجتماعى ، حيث عكف على القيام بعرض تحليلى لتاريخ الفكر السوسيولوجى ، تناول فيه بالشرح والتفسير والنقد اعمال كبار العلماء ، خاصة باريتو ودوركايم وماكس فيبر ، وبين ان هؤلاء حاولوا خلق مناخ نظرى ملائم لابراز دور القيم فى توجيه السلوك وشاركوا فى حل المعضلة الهوبزية عن طريق المناهج الوضعية والنماذج المثالية بعدما واجهت التفسير النفعى صعوبات أكبر ، الا أن النتائج التى انتهى اليها الوضعيون والمثاليون لم تكن كافية لمواجهة مشكلات العصر . ولكنها كانت من غير شك — مرحلة على الطريق نحو بناء النظرية الطوعية فى تفسير الفعل الاجتماعى . وهذا هو السبب فى استعراضه للقضايا التى طرحها هؤلاء .

وقد انتهى بارسونز إلى تقرير قضاياه الهامة فى النظرية الطوعية ، وهى ان الفعل الاجتماعى يقوم على الاختيار ، وان الارادة الحرة التى تقترن بالتوجيه المعيارى تكتسى صفة اخلاقية ومشروعة عن طريق ما يسمية القيم النهائية ultimate values . ويقبل الفعل الانقسام إلى وحدات اساسية فى مقدمتها الموقف والغاية والتوجيهات ، كما ان هناك من الميكانيزمات الاجتماعية الكبرى على رأسها الضبط والتنشئة الاجتماعية ما يعمل على تحقيق المصالحة والاتفاق على الوسائل والغايات واساليب الاداء والانجاز وتحقيق المطامع بين مختلف الفئات ويعتبر كتابه النسق الاجتماعى من اهم الاعمال التى تتناول الجوانب المنظمة للمجتمع ، وتعين الحدود والابعاد البنائية والوظيفية بطريقة مفصلة . وهذا المؤلف يمثل نقطة التحول النسبى فى المواقف والاتجاهات السابقة ، ويشهد بأهمية العوامل الدافعية فى توجيه السلوك . كما يشتمل على كثير من القضايا المحورية التى كانت ولا زالت محل المناقشة والتفسير .

وتوحى هذه الافكار بأن النسق الاجتماعى إطار شامل وعام ، وقادرا على امتصاص الضغوط أو استيعاب التوترات وكل مظاهر السلب والانحراف التى تحل

عليه من الخارج ، أو تنبثق عن المكونات والاجزاء من (الداخل) . وبذلك يكون للنسق الاجتماعى بعدين . احدهما خارجى والاخر داخلى . اما عن البعد الأول فانه يتصل بعلاقة النسق الاجتماعى بالبيئة ، بما فى ذلك الانساق الاجتماعية الاخرى أو انساق الفعل ، اما البعد الثانى فيختص بالمؤثرات وتبادل الوظائف ، أو الاعتماد المتبادل بين الادوار . وهذا ما يقودنا إلى طرح قضية اخرى ترتبط بهذه الحدود ، مفادها ان لكل نسق مجموعة من المدخلات imputs ومجموعة اخرى من المخرجات outputs . وهى على علاقة قوية بفكرة تبادل الحدود ، وبمخطط الوسائل والغايات ، ومختلف الانعكاسات والاثار التى يكون من شأنها تدعيم النسق وحفظ حدوده وتحقيق استقراره خلال الزمن . واذا كانت المدخلات ضرورية لبقاء النسق الكلى واداء وظائف الوحدات أو الانساق الصغرى ، فان المخرجات اكثر اتصالا ببلوغ الغايات ، وبالتحكم فى علاقات الانساق بعضها ببعض .

وتجدر الاشارة إلى ان العلاقة بين الابعاد الخارجية للنسق والمكونات الداخلية تفسر جزئيا موقف بارسونز من مشكلة التغير الاجتماعى ، لا سيما التحولات البنائية والكبرى التى تكون غالبا مصحوبة بالتوترات الحادة . وهذا ما يتضح فى الاجزاء الاخيرة من مؤلفة النسق الاجتماعى . حيث لا يرى فى التراث النظرى الذى يتناول التغير الاجتماعى ما يكفى لصياغة نظرية تستطيع ان تقدم بناء تصوريا يفسر التحولات الشاملة ، أو معرفة القوانين التى تتحكم فى النسق فى الوقت الراهن على الاقل . وكل ما يمكن تقريره فى هذا الصدد بعض الآراء المحددة التى تعالج التغيرات التوافقية الجزئية .

ومن بين القضايا التى اهتم بها بارسونز اشباع الحاجات البيولوجية والسيكولوجية والاجتماعية عن طريق الانجاز المادى والثقافى فى المجتمعات . وكثيرا ما اقترنت كلمة الاشباع بلفظ الحاجة . ولذا الاشباع حدود دنيا واخرى مثلى ، غير ان الانساق الاجتماعية ينبغى ان تحقق تبادلية الارضاء على حد تعبيره ، وهنا تتجسد مفاهيم الدور الاجتماعى وعلاقتها بسلوك الافراد والجماعات ، واحتمالات التنبؤ بالتوقعات المنتظرة فى سياق ما يسمية بارسونز (تبادل التوقعات فى أداء الدور) أو ميكانيزم الانجاز ، الذى يعنى التكامل بين الوظائف المتباينة ، وتنوع الاداء والقدرة المستمرة على الابداع . وفى هذا المجال لا ينفك الارتباط بين الادوار وعمليات التفاعل الاجتماعى من جانب ، وتكوين استعدادات (ميول) الحاجات والتنشئة الاجتماعية

من جهة ثانية . ويستثمر بارسونز افكار ميرتون ، وجورج هبرت ميد وغيرهم فى تحليل قضية المكانة ومركبات الادوار الاجتماعية ، وبيان اهمية العوامل الدافعية فى توجيه السلوك ، ومدى اتصالها بعنصر الملائمة حتى يستمر تدفق (الطاقة) التى تجعل الفعل مؤثرا .

واذا كانت ميول الحاجة وثيقة الصلة بتفسير علماء النفس للدوافع ، فقد اراد بارسونز بهذه الميول التى تدخل فى تكوين نسق الشخصية ، معانى ومدلولات جديدة تحتوى على جوانب عقلية ومعرفية ووجدانية ابعد مدى واكثر شمولا من الفهم المحدود لفكرة الدوافع فى علم النفس . فاستعداد الحاجات مستودع لكل الامكانيات والقدرات الكامنة والمكتسبة والتى تمكن الفاعلين من مواجهة متطلبات الموقف والتكيف مع كل منها بما يتلائم ومتغيراتها والشروط التى تحيط بها . ومن ثم فان ميكانيزمات الدفاع والتوافق المعروفة فى علم النفس جزء من بناء هذه الاستعدادات . وعلى ذلك فان هذه الميول تشتمل على كثير من جوانب الحياة العقلية والاجتماعية والثقافية .

وختاما لهذه المقدمة انوه إلى المنهج المتبع فى هذه الدراسة . وحيث ان طبيعة الموضوع تتصل بالبناء النظرى فى علم الاجتماع الامريكى عند واحد من اهم علماء الاجتماع المعاصرين ، فقد كانت المصادر الاساسية للبحث كل الاعمال الهامة لبارسونز ، خاصة ما يعالج قضايا الفعل والنسق الاجتماعى . وتتفق المقولات المطروحة فى فصول هذا الكتاب مع الهدف من الدراسة ، وهو تحديد موقف بارسونز من مشكلة التنظير السوسيولوجى وقد اقتضى التحليل النقدى الاستعانة فى مرحلة تالية بما كتب عن بارسونز خاصة اسهامات جولدنر ، وماكس بلاك ، وس. رايت مليز . وجون ركس وغيرهم من المؤيدين والمعارضين ، واصحاب النظريات المعاصرة فى تفسير الصراع الاجتماعى ، من اجل توضيح معالم الرأى والرأى الاخر ، ثم الوصول إلى تقدير معين للاتجاهات الرئيسية فى الفعل والنسق الاجتماعى ، ولا سيما علماء الاجتماع والانثروبولوجيا وعلم النفس ، الذين ينتمون إلى مرحلة الرواد . واذا كنت قد توخيت تبسيط المفاهيم وتجنب الغموض الكائن فى تحليل بارسونز بقدر المستطاع ، فان ذلك لم يمنع من التداخل والازدواج بين بعض المقولات والقضايا ، خاصة عند معالجة مخطط الملزمات الوظيفية والذى كان اكثر المصنفات غموضا ولبسا . ومن ثم فان هذا الاسهام المحدود ، ينبغى ان تتلوه مراحل من البحث بهدف الوصول إلى فهم اعمق وأوثق .

والله ولى التوفيق ،،،

الفصـــل الأول

إسهامات مهدت لنظريات بارسونز

- مــدخل
- **أولاً** : بارسونز والاتجاه المعياري عند دوركايم
- **ثانياً** : إسهامات ماكس فيبر
- **ثالثاً** : باريتو وتوازن النسق
- **رابعاً** : الانطباع بالتيار السيكولوجي
- **خامساً**: الالتقاءات بالاتجاهات الأنثروبولوجية
- تعقيـب

الفصل الأول
إسهامات مهدت لنظريات بارسونز

مـــدخل

لم يكن بارسونز هو أول من عبر عن فكرة النسق الاجتماعى ، بل سبقه اليها اوجست كونت ، وهربرت سبنسر ودوركايم . فقد اتضحت فى أذهان هؤلاء وحدة المجتمع والتساند والتماسك والاستمرار فى الوجود ، وقد استطاع هؤلاء أن يقدموا تصورات متكاملة لمفهوم المجتمع من حيث كونه يشكل نسقا ، وباتت المناظرة بين البناء العضوى والبناء الاجتماعى مصدر تفكيرهم ، وهذا ما تابعه بارسونز فى تحليله الذى يختلف نوعا ما عن غيره . وقد تبين ان الافكار والقضايا التى يطرحها بارسونز جاءت شاملة لنماذج وانماط منتقاه من علوم الاجتماع والنفس والانثروبولوجيا ، بحيث يصعب على القارئ أو الدارس المتمعن لنظرياته ان يردها لاطار فكرى واحد . وفى هذا الفصل أشير إلى اسهامات دوركايم وماكس فيبر وفرويد ومالينوفسكى ، حيث تمكن بارسونز من المزج بين ما جادت به افكارهم من نتائج ، واستطاع أن يخرج بتصورات جديدة عن الفعل والنسق . وإذا كانت اعمال هؤلاء مناط التركيز فان ذلك لا يمنع من تأثره بغيرهم ، ولانه حاول إعادة صياغة افكاره كلما دعت الضرورة إلى ذلك ، ومن خلال ما يوجه اليها من انتقادات عن طريق المناقشات والمساجلات على صفحات المجلات العلمية . ومن هنا فقد تأثر بارسونز بادوارد شليز Edward Shils وربرت بيلز Robert Bales ، وايضا بمن كتبوا عن الوظيفية المحدثة مثل ميرتون . واكثر من ذلك اضطر لتعديل ارائه بسبب مواقف تلاميذه من بعض القضايا. وفى هذا الجزء اعرض لما يمكن اعتباره من الجذور الأولى لنظريات تالكوت بارسونز ، وخاصة موقفه من الفعل والنسق الاجتماعى .

أولا : بارسونز والاتجاه المعيارى عند دوركايم :

يتميز موقف دوركايم وهو بصدد تفسيره للظواهر الاجتماعية بالتفرقة بين مقولتين « الاجتماعى » « والفردى » . فالشعور الاجتماعى أو الضمير الجمعى كما يسميه له وجود من جنس خاص ، والحالات التى تدخل فى تكوينه تتباين تباينا نوعيا ، ولابد من اختلاف العناصر عن نتائج التركيب[1] . وتكشف اعمال دوركايم المبكرة والمتأخرة عن دلالة واسبقية الوجود الاجتماعى على الذات الفردية . وعلى الرغم من وصف دوركايم « بمذهب الحتم السوسيولوجى » فان تصوره للمجتمع ينطلق من فكرة المزاوجة بين الفرد والجماعة ، وباتت تلك (الثنائية) مقررة فى كل أعماله الهامة على وجه التقريب[2] . وقد قرأ بارسونز لدوركايم وتأثر — من غير شك — بتفسير دوركايم للعلاقة بين الفرد والمجتمع ، واستطاع ان يعبر عن تلك العلاقة فى سياق ما يسميه عملية « التفاعل الاجتماعى » ، والتى صاغها بارسونز فى شكل جديد ولكنه يعبر عن نفس المضمون كما يتجسد فى تصوره للتبادل أو التناوب بين (الذات والاخر) ، هذا المصطلح الذى يتضح بشكل مستمر فى تحليله لنسقى الثقافة والشخصية . ولقد دافع دوركايم بشدة عن فكرة « التضامن الاجتماعى » بتقسيماتها المعروفة ، ولم يخف نزعته المحافظة حيال كل ما يخل بالوحدة والتكامل الاجتماعى . وعلى الرغم من أن بارسونز ليبرالى الاتجاه فإنه هو الآخر عبر عن بعض النزعات المحافظة ، خاصة عند تفسيره لقضايا التوازن الاجتماعى ، والتغير والصراع .

وفى بحثه لدور القوة فى المجتمع . وليس أدل على مدى ذلك الانطباع من رفض كل من درودركايم وبارسونز للثورة[3] . فقد ناهضها الأول بسبب النتائج التى خلفتها الثورة الفرنسية والتى اعتبرها دوركايم من أهم عوامل الاخلال بحالة التضامن

---

(١) دوركايم اميل ، قواعد المنهج فى علم الاجتماع ، ترجمة محمود قاسم ، مراجعة السيد بدوى ، مكتبة النهضة المصرية ، ١٩٧٤ ، ص ٢١٤ .

(٢) ظهرت تلك الثنائية فى مؤلفه عن « الانتحار » (١٨٩٧) والمترجم إلى الانجليزية (١٩٥١) فى الصفحات ٣٧ — ٣٨ ، ٢٠٩ — ٢١٠ ، ٣١٨ — ٣٣٥ . ومن قبل فى كتابه عن « تقسيم العمل الاجتماعى » ١٨٩٣ ، والمترجم للانجليزية (١٩٦١) فى الصفحات ٨٠ — ٩٢ ، ١٠٠ — ١٠١ ، ١٠٥ — ١٠٦ ، ١٢٩ — ١٥٢ ، ١٩٧ — ٢٩٧ ، ٣٠٥ — ٣٥٠ . وأيضا فى « الصور الأولى للحياة الدينية » (١٩١٢) ، وأخيرا فى مقالته عن « ثنائية الطبيعة البشرية » ١٩١٤ .

(٣) Alpert, Harry, Emile Durkheim and his sociology, New york, 1939. pp. 225 - 300.

العضوى المقررة فى المجتمعات الحديثة . وهو نفس الموقف الذى يعبر عنه بارسونز ، حين يرى بأن الآثار السلبية للثورات تتجاوز نتائجها الايجابية ، ومن ثم فإنها شأن ظواهر الصراع والانحراف ذات قيمة هامشية بالنظر إلى قاعدة التكامل الاجتماعى(١) . غير ان بارسونز ، وهو بصدد الدفاع عن نظريته الطوعية فى تفسير الفعل ، لا يقبل بفكرة الجبر والالزام التى يعتبرها دوركايم احدى الصفات النوعية المميزة للظواهر الاجتماعية(٢) .

يتفق دوركايم وبارسونز حول دور القيم والمعايير الاجتماعية والاخلاقية فى تحقيق التكامل الاجتماعى . وقد بالغ دوركايم فى التعبير عن هذا الجانب أثناء مناقشته المستفيضة لطبيعة الوجدان الجماعى ، والتى يضم مبادىء وعناصر مشتركة ومقبوله لدى الجانب الاكبر من أفراد المجتمع . بينما يهتم بارسونز بما يسميه « القيم المطلقة » وهى بالمثل أطر مرجعية للسلوك ينعقد عليها الاتفاق (بين الذات والآخر) . وأن صور ومظاهر الانحراف عن هذه القيم تبقى هامشية أو محدودة الاثر ، على ما يرى بارسونز ، أو لا تستطيع أن تخل بالكل الاجتماعى على ما يذهب دوركايم . والجدير بالاهتمام أن بارسونز عالج المعايير الاخلاقية بطريقة تختلف عن تناول الوضعيين لها ، حين إهتم بالابعاد الداخلية إلى جانب الحدود الخارجية . فاذا كان الوضعيون — ومنهم دوركايم — قد درسوا الاخلاق دراسة قائمة على الملاحظة الخارجية والاستقصاء ، دون الاهتمام بالجوانب الذاتية ، أى بالتكوين الفردى وبالعوامل السيكولوجية ، فإن بارسونز ، قابل بين الجانبين ، واعتبر التكوين الاخلاقى للأفراد « الفاعلين » نتاج مشترك لكل من الميكانيزمات الاجتماعية والسيكولوجية على حد سواء . وأن نمو الذات منذ الطفولة يتم تدريجيا مع ظهور تلك الميكانيزمات ، وبروز دورها فى سلوك الطفل . ومن ثم فقد جاء تصور بارسونز لفكرة التبادل والثنائية ، مشتملة على الابعاد السيكولوجية بجانب الابعاد السوسيولوجية ، فى الوقت الذى

---

(١) Gouldner, Alvin, The Coming Crisis of Western Sociology, Heinemann E.B., London. — New Delhi, 1970, PP. 185 - 189.

(٢) Durkheim, Emile, The rules of sociological method, translated by S.A. solovary and J.H.Mueller, The Free press, Glen. 111, 1950, pp. 110 - 150.

الحق دوركايم كل ما هو سيكولوجى « بالحالات العقلية » وهى لا تتجاوز فى وجودها نطاق الفكر الذاتى[1] .

تناول بارسونز فى « بناء الفعل الاجتماعى » ١٩٣٧ أراء دوركايم بالتحليل ، وفى سياق التفسير الوضعى لمشكلة الفعل ، وحسم المعضلة التى أثارها « هوبز » حول كيفية تحقيق النظام order ، فذكر أن الحلول التى قدمها النفعيون والوضعيون والمثاليون ، جاءت غير مواتية لطبيعة المجتمع ، ولكنهم — من غير شك — أسهموا جزئيا فى بناء « النظرية الطوعية » . ويثور الجدل بين العلماء حول جهود دوركايم فى نظرية الفعل ، وهل كان من رواد تلك النظرية التى طورها بارسونز ؟ لقد اعترف بارسونز بفضل دوركايم عليه فى هذا الشأن . غير أن العلماء انقسوا إلى فريقين احدهما يؤيد اسهام دوركايم والآخر ينفى عن افكاره صلتها بالفعل الاجتماعى كما يراه بارسونز . فقد ذهب بوب W. Pope وكوهن Cohen إلا أن دوركايم يعتبر من رواد نظرية الفعل الاجتماعى . وعلى الرغم من أنه لم يتحدث صراحة عن هذا المفهوم ، إلا أن تحليله لظاهرة الانتحار وتقسيم العمل ، يدل دلالة قاطعة على أنه مهد بشكل ضمنى لنظرية بارسونز . فتقسيمه لأشكال الانتحار والشروط المصاحبة والمرتبطة بكل صورة ، تكشف عن أهمية العلاقة بين الفرد والمجتمع ، وكيف أن الانسجام من قبل الفرد ، يعود إلى قدرة المجتمع على الضبط والتحكم فى سلوك الأفراد . ومن ذلك أن سلطة القهر تتجه دائما إلى الجوانب غير المتناغمة مع المجتمع ، والتى يتميز بها بعض الافراد . ولهذا فإن درجة إنسجام سلوك الفرد مع الجماعة تتباين تباينا مباشرا مع قوة تأثير العامل الاجتماعى (التكامل — التنظيم — التضامن — القواعد الاخلاقية — الضمير الجمعى الخ ...) .

هذا بالاضافة إلى أن الحالة العقلية للفرد individual psyche تتألف من عنصرين أحدهما اجتماعى والآخر غير اجتماعى ، ويمكن تفسير الانتحار نتيجة لسيادة « مذهب الانا » Egoism فى اطار تلك الثنائية العقلية ، بينما يصبح « الانومى » أو « الامعيارية » حالة أكثر اتصالا بالوجود الاجتماعى الذى يحظى

---

(١) Gouldner, op.cit., pp. 199 - 203.

بأهمية أكبر[1] . وبالتالى تتباين أطر الدلالة فى التفسير بين النماذج الثلاثة التى حددها دوركايم . هذا إلى جانب تباين الأنتحار فى ضوء علاقة الفعل بالنظم الاجتماعية وفى مقدمتها النظم الاسرية والدينية والسياسية[2] . ومن جانب آخر تظهر فكرة « التوازن الاجتماعى » كأساس لهذا السلوك بما يدل على أن دوركايم عقد الصلة بين مخطط « الوسائل والغايات » ، ممثلا ذلك فى وجود السبب الاجتماعى وهى حالة « اللامعيارية » ، وبين نتيجة اجتماعية أيضا ، وهى الانتحار . وهنا يكون فقدان المضمون الاجتماعى لدى الجماعة التى ينتمى أليها الفرد ، مميزا عن فقدان الهوية أو الصورة الذاتية التى يعيها الشخص عن نفسه . وبينما تكون الأسباب الاجتماعية مسؤلة عن بعض أوجة التباين فى حالات الانتحار ، فإن الفوارق الفردية أو الحالات الذاتية ، مسؤلة عن البعض الآخر . وهذا مايدعونا للقول باختلاف الاطر المرجعية للفعل والفاعل فى ضوُ الموقف الذى يواجهه الاخير والشروط التى تحيط بالأول .

وعلى الجانب الآخر ينتقد وارنر S. Warner اسهامات كل من دوركايم وماكس فيبر فى التمهيد لنظريات بارسونز ، ولا سيما بناء الفعل الاجتماعى ، ويرى أن افكار هؤلاء كانت متباينة تماما مع تحليل بارسونز ، فضلا عن التعارض بين تفسير دوركايم وفيبر ، والذى يعتبره جوهريا . ومهما يكن من حجج وارنر فانها تنصرف فى المقام الأول لنقد نظرية بارسونز ، ولم يوجه فى تحليله الا قدرا محدودا للافكار الاساسية التى هى محل التقاء بين الطرفين .

يعتبر ماكتبه دوركايم عن تقسيم العمل من أهم الاسهامات التى كان لها انطباع شديد ، وتأثر بها الآخرون ومنهم بارسونز ، وعلى وجه التحديد فى مؤلفه بالاشتراك مع سملزر بعنوان « الاقتصاد والمجتمع » ١٩٥٦ . فابالاضافة إلى تفاصيل ماجاء حول مفهوم التضامن الاجتماعى Social Solidarity بشقيه ، وعلاقته بنماذج الجماعات والمجتمعات والتى تأثر به — من غير شك — بارسونز فى تحليله لعلاقة المقولات الاجتماعية بالمتغيرات الاقتصادية ، تعرض دوركايم للمشكلات الاجتماعية

---

(١) Pope whitney and Cohen Jere, "ON R. Stephen Warner's Toward a redefinition of action theory", A.J.S., (1978), Vol. 83, No. 6, pp. 1359 - 66.

(٢) Durkheim Emile, Suicide (1897). Translated by John A. spaulding and George simpson, Routledge and kegan paul, London, 1963, pp. 277 - 294.

أكثر من أهتمامه بالعمل وتنظيمه ، وأثار عناصر غير اجتماعية وأخرى (مادية) لشرح التحولات التى تحدث فى المجتمع . من ذلك رد تقسيم العمل للتغيرات التى تتم فى البناء الاجتماعى ، نتيجة لزيادة الكثافة السكانية والحجم ، والمنافسة الشديدة حول المنافع الاقتصادية كما أيقن بدلالة البعد المعيارى ، وخاصة الانحلاق فى تقرير السلوك ، فجمع بين زيادة الكثافة المادية والكثافة الخلقية ، واعتبر المقولات الديمجرافية وحدات هامة فى تشكيل مقولة « الاجتماعى » . فضلا عن تأثيرها فى الظواهر الاقتصادية . فإذا أضفنا إلى ذلك ، ما كُتب عن « التعاقد » فى مجتمعات التضامن العضوى ، ورجعنا إلى كتاب بارسونز المشار اليه ، يتبين لنا إلى أى مدى كان تأثير دوركايم واسهامه الحقيقى . فقد تعرض بارسونز إلى مشكلة التعاقد وركز على ما يسميه « العوامل غير التعاقدية » Non Contractual ودور القسر وطبيعته وحدوده . كما كان مفهوم التضامن مصدر تفسير بارسونز لعلاقة النسق الاقتصادى بأنساق الفعل من ناحية ، وبتقرير فكرة تضاؤل الانساق ، والتى تتجلى فى تقسيم بارسونز للانساق الفرعية التى يشتمل عليها النسق الاقتصادى ، وتعدد وحدات من ذات النوع ، كالانتاج والتبادل والاستهلاك .

فالتغيرات الاقتصادية بكل محتوياتها ، ليست بمعزل عن الحقائق الاجتماعية ، ويصعب تفسير السلوك الاقتصادية — فى رأى دوركايم وبارسونز — مستقلا عن الفعل الاجتماعى . وأن هذا الاخير هو الذى يكسب الأول طبيعته ومداه . وتصبح مقولة الاجتماعى بالمعنى التى يفهمها كل منهما مِنْ الاتساع ، بما يجعلها تستوعب الكثير من قضايا الفعل « فالتخصص » تصور معقد التفاصيل يرتبط بالانجاز العلمى والثقافى والتجزءة بين الوحدات والبنود الفنية « المتغير التكنولوجى » وكلها من مقومات السلوك فى مجتمعات التضامن العضوى ، وبالنظر إلى التطور الاجتماعى فى مواقف الطبقات والطوائف والافراد . فحقائق الوجود الاقتصادى فى مجتمعات التضامن الالى والعضوى لا تنسلخ عن الكل الاجتماعى الذى هو المجتمع ونظمه[1] . ولقد نوه بارسونز فى أكثر من موضع من مؤلفه بناء الفعل الاجتماعى ، والاقتصاد والمجتمع ، إلى انطباعه بأراء دوركايم ، وحاول ربطها بمشروع مارشال حول الاقتصاد

---

(١) Durkheim Emile (1893) The Division of labour in society, Translated by George Simpson; Glencoe, 111 : Free press, London, 1964, pp. 60 - 68.

الحر ، كما يؤكد بأن فكرة « اللامعيارية » Anomie مكنته من تفسير الجوانب « اللا اخلاقية » immoral فى التعاقدات (مثل مظاهر الغش والخداع والاحتيال .. الخ) والتى تعتبر من الوظائف المعوقة Dysfunctions . وهو اصطلاح استعاره من ميرتون للتعبير عن مضمون أقره دوركايم . فقد ذهب إلى أن أى فعل غير أخلاقى يمثل وحدة للسلوك ، تتعارض مع العواطف المشتركة . فإذا مامر دون عقاب ، أو أضحى محل عدم أكتراث ، تعرضت حالة التضامن للضعف . وهذا ما يفسح المجال لزمر اجتماعية ، تجعل من الفعل المناهض للشعور الجمعى صحيحا فى ظل سياق اجتماعى خاص .

غير أن بارسونز تطرق إلى مشكلات كثيرة فى تحليلة للظواهر الاقتصادية تتجاوز بكثير ما أثاره دوركايم[1] . وما تجدر الاشارة إليه أن بارسونز عقد مقارنة بين موقف النفعيين وأراء دوركايم . ففى الوقت الذى دعى فيه النفعيون إلى فلسفة الحرية ، وقامت أفكارهم على اعتبارات جزئية ذات بعد واحد ، وتكريس الجهد للاهتمام بالاثار والنتائج ، نجد دوركايم بناهض هذا الفكر بشدة ، ويقول بالتناوب بين فئات المجتمع فى تبادل المنافع ، وهذا التناوب هو الذى يحقق التماسك الاجتماعى ، ويجعل الضبط مؤثر وفعال ، وتتفوق بذلك الجوانب المعيارية على فكرة المصلحة . ويعتقد بارسونز أن دوركايم أحرز تقدما كبيرا فى تحقيق مفهوم التكامل القيمى الذى يهتم به . وأن تلك الفكرة وثيقة الصلة بالتوازن الاجتماعى ، كما أنها حددت موقفه حيال مشكلات الصراع والانحراف والضبط الاجتماعى[2] . غير أن بارسونز أضاف لافكار دوركايم عناصر أخرى من نظريات جورج هربرت ميد وميرتون ، واستطاع أن يجعل من مفهوم الدور الاجتماعى ، محورا أساسيا لعملية التفاعل الاجتماعى ، وما يسميه « بتبادل التوقعات » كما استلهم الكثير من تصور دوركايم لأهمية الشعائر والطقوس فى تحديد نتائج الفعل ، وتمكن من تحليل كيفية تقييم الاداء فى النسق الاجتماعى ، استنادا للموجهات القيمة ، وانعكاسات ذلك على استقرار المجتمع أو

(١) Parsons T. and smelser Neil, Economy and society, Routedge and kegan paul, London, 1956, P. 105
Parsons T., Social system, Routledge and kegan paul, ltd, London, 1957, P. 458.

(٢) Parsons T., Sosical system, Routledge and kegan paul; ltd, London, 1951, p. 458.

ما يطلق عليه التوازن الدينامى . وتكاد تتفق دعوة دوركايم إلى الاخلاق الوضعية مع الاتجاه العقلانى الذى يؤيده بارسونز ، فى ضوء المصالح الراسخة[٢] .

فقد قال بارسونز بامكان تنظيم المجتمع الصناعى على أساس أخلاقى ولكنه غير وضعى ، وإنما مستمد من القيم المشتركة ، بما فى ذلك القيم الدينية . واذا كانت التكنولوجيا من العوامل الهامة فى خلق التباين الاجتماعى ، والتمايز الثقافى وبالتالى تزايد فرص الصراع ، فإن إعادة التنظيم ارتكازا للاساس الاخلاقى ، من مقومات ازاحة التوترات[٣] .

تنعقد الصلة بين دوركايم وبارسونز ، عند تفسير الاخير لنسق الشخصية . ففى اطار التوجيه المعيارى ، ومن خلال فكرة الضمير الجمعى ، يرى دوركايم أن الفرد ككيان عضوى لا معنى له ، وأن الوجود الاجتماعى هو الذى يؤهله وفى مراحل متعدده للقيام بدوره ، ويتجلى ذلك فى تكوين الشخصية . ويفرق بين لفظى « الفرد » individual و « الشخص » person وهذا المصطلح الاخير ، هو الذى يستأثر باهتمام دوركايم على الرغم من وضوح فكرة المناظر الوظيفية بين البنائين الاجتماعى والعضوى . وقد تمثل بارسونز تلك الفكرة واستطاع أن يقدم تصورا جديدا « سيكوسوسيولوجى » لنسق الشخصية ، الذى يرتبط أرتباطا لا ينفك بكل من النسق الثقافى والاجتماعى . ومن جانب آخر يشير بارسونز فى معرض تعريفه للنسق الاجتماعى ، إلى العناصر الايكولوجيه والسيكولوجية والبيولوجية ، وإلى أن التماسك الاجتماعى يقوم على ارتباط هذه الجوانب معا . وإذا كان دوركايم يتفق مع بارسونز حول دور العوامل الايكولوجية فى تفسير مقولة الاجتماعى ، فقد أخرج ما هو سيكولوجى وبيولوجى من الساحة .

وهنا يكون موقف الافتراق الهام بين الاثنين . وبالرغم من وضوح فكرة الثنائية عند دوركايم ، خاصة فى أعماله المتأخرة ، فقد ظل على موقفه من التفرقة

---

(٢) Zeitlin, Irving, Ideology and development of Sociological theory, prentice - Hall of India private limited, New Delhi, 1959, pp. 238 - 42.

(٣) Parsons T., The structure of social action, Mgraw - Hill Book, second Edition, London, 1949, pp. 462 - 67.

الجوهرية بين ماهو اجتماعى وماهو سيكولوجى ، واعتبر هذا الاخير لا يتمتع بصفة الدوام ، والاستمرار ، أو يعبر عن (حالات عقلية) ليس محلها المجتمع ، وإنما العقل والتفكير . ونلمس فى ثنايا تفكير دوركايم بعض التناقض الذى لا محل للافاضة فيه الآن . وما يهمنا أنهما اختلفا فى بعض الوجود ، ولكن مواطن الالتقاء كانت أكثر من نقاط الافتراق . ويبقى المضمون الفكرى محملا بمقدرات التشابه والانطباع ، وتبدو اضافات بارسونز ، واضحة . فقد تمكن من المزج بين آراء دوركايم وماكس فيبر وباريتو وقدم تصورا جديدا لمشكلات التوازن والضبط والتغير والانحراف وغيرها .

ثانياً : اسهامات ماكس فيبر :

يعرف ماكس فيبر فى تاريخ الفكر السوسيولوجى « بماركس البرجوازية » . ويعود ذلك إلى اعتبارات منهجية ، وليس إلى الاتفاق فى الآراء ، أو الالتقاء فى الايديولوجيات ، لما بين الاثنين من تعارض واضح : فقد تأثر فيبر فى تحليله للظواهر الاجتماعية بماركس ، غير أنه أراد أن يقلب القضية الماركسية ، وكأنه يستوحى مبادئ الفلسفة الهيجلية من جديد ، فقال بأن القوة الدافعة فى الحياة الاجتماعية هى « روح المجتمع » . وهذا التصور لم يأت مثاليا وجدليا على نحو ما فعل هيجل ، لأن الروح تشبه هنا ما نسميه بالقيم المشتركة ، والتى تخضع للتمييز ويمكن دراستها وفهمها فهما حقيقيا . وتلك القيم مصدر تحليل السلوك . ثم كانت دراسة فيبر لعلم الاجتماع القانونى وتفسيره لمبادئ الشرعية فى المجتمعات الحديثة ، وتناوله لمقولات ثلاث هامة هى ، « الافكار والمعايير والمصالح » ، من المقومات الاساسية للبناء النظرى الذى أعجب به بارسونز كثيرا ، وقام بترجمة كتاب فيبر « نظرية التنظيم الاجتماعى والاقتصادى » . ويمكن رد القضية كلها إلى المثالية الالمانية التى أخذ منها بارسونز الكثير . بيد أن قضية « الفهم » Verstehen ، والتى تعنى أن تفسير الظواهر لابد وأن يستند إلى ادراك المدلولات والمعانى الذاتية فى ضوء المواقف ومتغيراتها ، وعلى أساس من التتابع الزمنى للاحداث ، كانت من أبرز المقولات التى تأثر بها بارسونز فى صياغة نظرية الفعل بالشكل الذى أتعرض له فى الفصل الثانى[1] . والجدير

(١) يذهب ماكس فيبر إلى دراسة العلاقات الاجتماعية فى صورتها المجردة هى المهمة الأساسية لعلم الاجتماع . وأن المنهج الملائم لذلك هو الفهم العميق لدوافع السلوك البشرى ، لأن العلاقات لا تنتج الأبناء على تصرف متبادل من قبل الأفراد حيال بعضهم البعض ، وبشكل متعمد وواع ، وبحيث يترتب على ذلك ردود أفعال =

بالذكر أن فهم فيبر لمحتوى « الذاتية » Supjectivism ، يكشف عن التحليل الوظيفى وليس عن انطباع سيكولوجى كما هو شائع . لان تلك النزعة على ما يُفهم من تفسيره للقضايا الفكرية والمعرفية ، تفيد ربط الوظيفة بموقف الانسان الفاعل actor situation الذى توجهه دوافع معينة تتلائم مع الاطار المرجعى والاجتماعى والثقافى . ويعنى ذلك استناد السلوك للقصد والارادة (مذهب الطوع عند بارسونز) والاسباب والنتائج ، وإمكانية التنبوء به بناء على معطيات من نوع ما (مخطط الوسائل والغايات والمدخلات والمخرجات فى تصور بارسونز لفكرة النسق الاجتماعى) . وفى شرح فيبر لمقولة المعنى . ما يؤكد عنصر التبادل ، وفقا لما يطلق عليه نمط الاداء العام . وهو نمط له تكوينه المسبق كما ان لمضمون الفعل أبعاد واقعية نراها فى حياتنا اليومية ، واخر تفسيرية Explanatory ترتبط بالمكنون الجوهرى ، وتلك مهمة العلماء[1] . ولقد اخرج فيبر الافعال المنعكسة من دائرة الفعل الاجتماعى ، وقرر فى هذا الصدد ان الفعل لا يصبح اجتماعيا الا اذا قام اطار معين للفهم المشترك بين الذوات الفاعلة ، وتلك قضية ضمنها بارسونز تصوره للنظرية العامة للفعل فى صيغتها الأولى سنة ١٩٣٧ ، وفى صورها اللاحقة ، وخاصة فى مؤلفة بالاشتراك مع شيلز « نحو نظرية عامة للفعل » سنة ١٩٦٢ . كما ايقن فيبر ايضا بأن علم الاجتماع يستعين بالاستنباط وهو جزء من بناء النظرية السوسيولوجية . والاستنباط عملية عقلية (معرفية) تقوم على انتقاء العناصر الفريدة وذات التأثير ، وتتصل كذلك باختيار انسب الوسائل لتحقيق انجح الغايات « المقاصد » . ويفهم من ذلك كله ان القضية المحورية فى النظرية الاجتماعية عند ماكس فيبر هى الفعل الاجتماعى ، وان الابعاد الاساسية فى دراسة الفعل الموقف والغاية والتوجيهات .

ونتائج مقابلة من جانب من يبادلونهم الاستجابة . ومن جانب آخر تعتبر العلاقة الاجتماعية استجابة لما درجت عليه أعراف البشر وعوائد التصرف فى مختلف المواقف . ولكل نوع من أنواع العلاقات الاجتماعية واحد من العلوم الجزئية التى تنهض بدراسته ، كما الحال فى علوم (السياسة والاقتصاد ــ الأسرة ، إلخ ...) .

وقد قسم فيبر الأفعال البشرية إلى أربعة أقسام ، الفعل التقليدى ، والهادف الرشيد ، والمقصود لذاته ، والفعل الوجدانى . كما باتت عناصر مثل الوسيلة ، الغاية والموقف مقررة ، وقد أخذها بارسونز فى تصوره وأضاف إليها مقومات أخرى .

(١) Pope whitney and Cohen jere "On Divergence of weber and Durkheim : Acritique of parsons convergence Thesis" A. J.S, (1975), Vol. 40, pp. 417 - 427.

ويضيف فيبر عنصرا آخر له انعكاسات هامة على نظرية بارسونز ، وهو « الملائمة عند مستوى المعنى » Adequacy on the level of meaning ، وتشير للتطابق فى اداء الفعل مع المعايير والقيم السائدة أو تحقيق قدر من الاتفاق مع أهم مقضياتها على الاقل . وقد استثمر بارسونز هذا المفهوم إلى حد كبير ، وأصبح من العناصر الهامة فى صياغة « متغيرات النمط » فى الوقت الذى تتصل مقولة الفهم كما عبر عنها بارسونز بأنساق التعبير واوساط الدلالة الرمزية ، وبالمزاوجة بين الافكار والمصالح(١) . وبيان ذلك أن تفسير فيبر للفهم يعنى بالاضافة إلى ما تقدم تلك الحالات العقلية والعمليات الادراكية ، والتى يصبح فيها المشاركون فى أى موقف على دراية بما يقصدونه من أفعالهم ، والنتائج المترتبة عليها . ولا يتيسر ذلك إلا بوجود مجموعة من الرموز الثقافية المشتركة ، وأنساق التعبير والدلالة الاتصالية ، والتى يمكن من جانب آخر ان تتوفر فيها القدرة على الاحلال أو الابدال ، بحيث تؤدى العناصر المتشابهة وظيفيا نفس الدور . وهذا ما يكسبها صفتى المرونه وسعة الانتشار . وفى ذلك اشارة أخرى من قبل فيبر لما أسماه بارسونز بالبدائل Alternatives . وفى هذا الصدد يقول بارسونز « إن توفر مجموعة من الرموز والانماط الثقافية التى تتمتع بالانتشار والشمول ، جوهر قيام الثقافة المشتركة »(٢) .

وقد طور بارسونز من مقولة الفهم فى نظريته عن الفعل والنسق ، ويبدو ذلك واضحا فى العناصر الآتية :

١ ــ عملية التفاعل الاجتماعى ، ومحورها تبادل التأثير والتأثر بين الذات والآخر .

٢ ــ أنساق الرموز التعبيرية وصلتها بتصور الثقافة كنسق .

٣ ــ تناوله لأوساط التبادل العامة كاللغة والنقود ، ودورها فى ربط أنساق الفعل .

٤ ــ فكرة تمايز الدور Differentiation فى النسق الاجتماعى .

---

(١) Weber Max, An introduction to the theory of social and economic organization, translated by parsons and Henderson, the Free press, Glencoe, 111, 1947, pp. 238 - 240.

(٢) Parsons T., and Shils, Edward, Toward a general theory of action, Harper Torch Books, New york, 1962. PP. 103 - 107.

فاذا ما أضفنا إلى ذلك اهتمام ماكس فيبر اهتماما ملحوظا بالثقافة ، وتبلور محتواها على خلاف دوركايم فى ذهنه ، نرى إلى اى مدى كان اسهام فيبر فى تحقيق المعنى الرمزى . للثقافة ، الذى يؤكد عليه بارسونز(١) .

يطالعنا فيبر بفهم جديد — فى عصره — للظواهر السوسيو ثقافية باعتبارها ذات مظهر كيفى ، مقابل للمظهر الكمى للعلوم الطبيعية ، وان الأولى تخضع للتقويم ، بينما تعتمد الثانية على خاصية « الضبط » ، حيث لا يتيسر لنا فهم حركة الذرات فهما ذاتيا ، وانما نستطيع ان نلاحظ نوعا من الانتظام والتتابع الذى يؤول بنا إلى نتائج محددة . أما فى علم الاجتماع والعلوم الاجتماعية الاخرى ، فإن ربط الدوافع والحاجات بالمواقف والقيم ضروريا للتفسير(٢) . بيد أن فيبر يجمع بين المظهرين فى دراسة الظاهرة الاقتصادية . وتلك وجهة نظر تستحق الاهتمام لتأثر بارسونز الواضح بها . لا سيما فى تحليله للاقتصاد كنسق . فقد نقل بارسونز مؤلف فيبر « العقيدة البروتستانتينية وروح الرأسمالية » عام ١٩٢٠ ووجد فى تحليله لدور الافكار فى السلوك الاقتصادية ما يستحق المتابعة . فقد جاء تحليل فيبر على أساس الاستقراء السببى واتبع منهجية متعارف عليها ، من أجل اثبات العلاقة بين نمو العقيدة « الكالفنية » ذات الشكل العقلانى ، وتطور المذهب الرأسمالى الحديث .. ذلك ان هذا المذهب يعتمد على الجهد الخلاق وعلى الانجاز من حيث كونه وسيلة لتحقيق هدف أو غاية النجاه Salvation أو الخلاص من فكرة العقاب ، على اعتبار أن العمل فضيلة دينية بالاضافة إلى منفعته الاقتصادية ، وتحث على الالتقاء بين الجانبين الدينى والعلمانى أمر مقرر فى تلك العقيدة . ومن ثم لا تفترق الافكار الدينية عن عقلانية وواقعية السلوك الاقتصادية بكل صوره ومظاهره(٣) .

قبل بارسونز قضية اسبقية الفكر على وجود المادة أو ضرورة التبادل بينهما على الاقل ، واعتبر جهود فيبر فى هذا المضار ، جهودا ناجحة ، لا سيما وأنها

(١) Gouldner, Op. Cit., PP. 177 - 48.

(٢) Weber, Max, The Methodology of social sciences, Translated by, A. M. Henderson and parsons, Glencoe, the Free press, 1949, PP. 68 - 67.

(٣) Zeitlin, Op. Cit., pp. 119 - 121.

تناهض الماركسية فى مفهومها الكلاسيكى [1] . وفى هذا الصدد يرى بارسونز ان التطورات التى جاءت بها المذاهب الدينية المتحررة ، ساعدت على تشكيل مجموعة من الدوافع التى تتلائم مع « المشروع الحر » وان نمو الاتجاه العقلانى فى اطار هذه المذاهب ، تزامن باستمرار مع تطور مجتمعات غرب اوربا . غير أنه لم يشاطر ماكس فيبر نزعته التشاؤمية حيال سيادة البيروقراطية على مظاهر الحياة ، وما يمكن ان تؤديه من وظائف سلبية تعوق التقدم الاقتصادى . ولهذا أشار بارسونز لانحسار الوظائف السلبية للبيروقراطية كلما حقق التنظيم مستويات أكثر تقدما ، كما لم يتفق مع فيبر حول دور القوى الكاريزمية Charismatic فى تفسيره للقيادة . ووجد فى ذلك نوع من التناقض الذى لا يساير النهج العقلانى الذى أيقن فيبر بقوته فى تفسير ظواهر السلوك وتتابع أحداث التاريخ . هذا بالاضافة إلى عدم اتساقها مع الاستقراء السببى الذى استخدمه فيبر فى تحليله لدور الافكار فى الحياة الاجتماعية . ويفسر بارسونز نزعة فيبر التشاؤمية من خلال قراءته لاراء كارل ماركس .

وفى ضوء ما تقدم نرى ان انفعال بارسونز بتفسير فيبر لقضية الفعل كان شديدا ، ولعل ذلك هو الذى جعل دون مارتنديل Don Martindale يضع كل من بارسونز وفيبر ضمن المدرسة السلوكية الاجتماعية ، ويُعتبر ذلك فى رأى مارتنديل من مؤشرات تأثرهما معا بعلم النفس[2] . والواقع أن وجود المقولات السيكولوجية فى ثنايا نظريات بارسونز، يتجاوز بكثير حدود قضية الفهم والمعانى الذاتية « التى تأثر فى تحليلها ماكس فيبر بعلم النفس ، ولا سيما التحليل النفسى وأراء فرويد التى باتت مميزة عند بارسونز على ما نراه فى أكثر من موضع ، وخاصة عند معالجته لنسق الشخصية[3] .

ومن جانب آخر أدمج بارسونز أنماط الفعل الأربعة عند فيبر فى نموذجين اثنين هما السلوك الوسيلى Instrumental والسلوك التعبيرىExpressive ويعترف بارسونز بأن معالجة ماكس فيبر لانواع العلاقات الاجتماعية والترابطات المحلية والقومية ، ساعدته على تطوير مفهومة « للجماعة المحلية المنظمة » Societal Community ،

(١) Rex John,key problems of sociolgical theory,

(٢) Coser,lewis, and Rosenberg. Bernard, Sociological theory,the Freepess of Glencoe , 1968, PP. 63-66.

(٣) Parsons,socaial system,op-cit, PP. 543-46.

من حيث كونها مصدر تصوره للمجتمع كنسق له مقوماته وابعاده التى شاهدت تطورا من نوع ما خلال الزمن . ذلك أن فيبر الذى تأثر من غير شك بتصنيف تونيز ، فرق بين العلاقات المحلية Communical ، وبين العلاقات التى تقوم على اساس ترابطى associative . وتعتمد الأولى على فكرة التضامن بالمعنى الذى يريده دوركايم ، بينما تستند الثانية للتعاقد . وقد تمكن بارسونز من أن يجمع بين تصنيف فرد ناندتونيز Ferdinand Tonnies وفيبر ، وان يطور من هذه التقسيمات ويضمنها تحليلة لكل من البدائل النمطية والملزمات والوظيفية .

ثالثا : باريتو وتوازن النسق :

تعتبر قضية النسق الاجتماعى من القضايا الأولى التى جذبت اهتمام باريتو . وعلى الرغم من انه كان عالم اقتصاد ، فان تصوره للعلاقة بين الاقتصاد والاجتماع كان واضحا . فعلم الاجتماع عنده يهدف إلى التحليل العلمى للانساق الاجتماعية فى اطار فكرة التوازن المرتبطة بالظروف الداخلية للنسق ، ومن أجل ذلك فقد أفرد بارسونز فى مؤلفة بناء الفعل الاجتماعى جانبا هاما لمناقشة أفكار باريتو . وقد أخذ باريتو بمفهوم التساند الوظيفى بين مكونات النسق الذى يعتبره اطار واسعا يشتمل على مختلف العلاقات المتشابكة ، والتى تضم عناصر من حالات التوازن واللاتوازن ، وان هذا الاخير « اللاتوازن » هو الذى يفسر حالة تغير الانساق كلما دعت الضرورة إلى ذلك من اجل اعادة التوازن . ومع اهتمام باريتو بالبيئةبمفهومها الشامل ، فإن المكونات الداخلية للنسق هى التى استأثرت بجل إهتمامه . وهذا ما يذكرنا بقضية « التدعيم الذاتى » للنسق والقصور الذاتى ، وهى افكار إهتم بها بارسونز كثيرا . وبالرغم من تناول باريتو لما يمكن ان يطلق عليه « فسيولوجية النسق » فانه رفض المماثلة العضوية التى سادت فى فترة معينة من تطور التفكير الاجتماعى ، لا سيما عند هربرت سبنسر . والتوازن الذى يقول به باريتو على قدر كبير من المرونه . وقد استقى بارسونز مصطلح « التوازن الدينامى » من باريتو وطور فيه كثيرا[١] . فكأن النسق تصور لفكرة المجتمع ــ بالمعنى الفنى ــ من حيث كونه يشكل مجموعة من العلاقات المتداخلة والمتناسقة والتى تدعم الوحدة الداخلية وتحقق التضامن . غير ان

(١) Zetlin, op-cit, PP. 169.

تلك الوحدة تضم عناصر عقلانية وأخرى غير عقلانية ، وتلك قضية يفسرها تقسيم باريتو للافعال المنطقية وغير المنطقية . وينطوى ذلك التفسير اجمالا على النظر للسلوك غير المنطقى كسمة مميزة وشائعة بين البشر ، وبالتالى فان هذا القول يحمل على قلب قضية الرشد والعقلانية التى قال بها ماكس فيبر .

فاذا كانت « الرواسب » Residues عبارة عن قوى كامنه وجوهرية ومستمرة ، ويصعب — على حد تعبير باريتو — الكشف عنها حتى من قبل اذكى الناس ، وان « المشتقات » هى البناء الاعلى الذى يمكن ان نراه فى افعالنا ، فكيف اذا يمكن اعتبار الأول جوهر الثانية ، طالما ان من الصعب تبين حدودها ؟ لم يقبل بارسونز هذا التفسير من جانب باريتو ، ولكنه ادخل هذه العناصر فى اطار الافكار والقيم ، وأعاد صياغتها فى كشكل آخر يخدم فكرة التوازن . ففى سياق التفاعل المستمر والتبادل بين الافكار والقيم والرموز ، تمتزج الافعال المنطقية بالسلوك غير المنطقى ، كما تتصل الرواسب بالمشتقات وتصبح جميعا عناصر اساسية فى تحقيق التوازن ، لا على طريقة باريتو من حيث انحساره فى دائرة واحدة وهى الصفوات التى تتوافر لها من مقومات التوجيه المنطقى الشئ الكثير ، وإنما يصير التوازن عاما ، لا بسبب وجود قوة معينة تعمل على إستمرارة ، بل نتيجة للتفاعل بين القيم والمعايير التى تحظى بالوجود الكلى والمشترك[1] .

وعلى الرغم من اتفاق باريتو مع بارسونز على أن التغير لا يخل بالاستقرار الاجتماعى ، طالما أن هناك مرونة فى التباد أو الاعتماد المتناوب بين العناصر ، فان قوى النسق الداخلية كما يراها باريتو تستند إلى الرواسب فى المقام الأول ، فهى التى تعمل على اعادة الوضع إلى ما كان عليه قبل حدوث التغير ، وذلك فى ضوء نظام الدورات أو الحلقات التى تقترب إلى حد معين من فكرة اعادة التاريخ لنفسه ، وهذا مالم يقبله بارسونز ، الذى يرى فى التغير حركة مستمرة قدما نحوما هو افضل ، وربما كان بارسونز من مؤيدى فكرة التقدم المضطرد . ومن ثم فان منطق التوازن الدورى عند باريتو يبدأ من نقطة معينة فى محيط الدائرة ، ثم تتابع التحولات وصولا إلى حالة الاستقرار مرة أخرى . غير ان التوازن كما فسره باريتو يكاد ان يكون قصرا على شرائح

(١) Chazel, Francois,la theorie analtique de la societe dans,l, Oeuvre Tall cot parsons, paris, 1974, PP. 169-170.

أو فئات تتميز بالقدرة على الاداء والعطاء فى مجالاتهم المتخصصة ، وهى جماعات الصفوة . فدورة الصفوة Circulation of elite تشكل المادة الحقيقية للتاريخ وهى محور فكرة التوازن . وعلى الرغم من استعارة فكرة التوازن من ميدان العلوم الطبيعية ، وتطبيقها على المجتمع ، فإن اهتمام باريتو بالصفوة السياسية خاصة ، له بعد أيديولوجى . فقد كان رجل سياسة يناصر مبادئ معينة لم يستطع متابعتها فى حياته[١] .

وقد قرأ هندرسون A. M. Henderson لباريتو ونبه بارسونز إلى دلالة افكاره فيما يزمع القيام به من اعمال تتصل بالفعل والنسق ، ولما كانت فلسفة التوازن مثار إعجاب وموضع تأمل من قبل بارسونز كذلك ، فقد وسع من قاعدة التوازن المرن ، وجعل منها إطارا لاستيعاب التوترات الاجتماعية ، وكافة مظاهر النفى أو النقص ، وتجلى ذلك فى تحليله الوظيفى للاعتماد المتبادل ، ولوجود عناصر الاستقلال الوظيفى النسبى بجانب الملزمات الوظيفية ، وساق من الشواهد التاريخية والنتائج التى انتهت اليها بعض الدراسات الامبيريقية ، ما ينهض دليلا على صحة قضاياه[٢] . وبالغ بارسونز فى تطبيق فكرة التوازن حين اقام مناظرة بين النسق الاجتماعى ، ونسق المجموعة الشمسية solar system ، واستغل مفهوم « المدارات » المقررة فى علم الفلك بل واعتبر النسق الاجتماعى استنادا لمفهوم التوازن ، قادرا على حفظ وجوده طبقا لعملية القصور الذاتى السابق التنوية اليها ، وأكد كما فعل باريتو على استمرار النسق خلال الزمن مع اختلاف بين الاثنين على ما أشير اليه تباعا .

ذلك ان هناك اتفاق بين باريتو وبارسونز على أن التوازن دينامى وان التغير لا يخل بالاستقرار الاجتماعى ، وهو مستمر باستمرار المجتمعات . غير انهما اختلافا حول نطاق ـــ التوازن ومجال تطبيقة وكيفية التغير . فالتوازن عند باريتو أكثر إلتصاقا بجماعات الصفوة ـــ ، وعلى الجماهير العريضة ان تتبع بالضرورة محكات التوازن عند الصفوات مصدر الريادة والتوجية ، وهذا مالا يقره بارسونز الذى لا يؤمن بالحركات الدورية وإنما بالتغير التدريجى . والتغير الذى يقول به باريتو تغير بنائى ، لانه ينطوى على تحول اساسى وجوهرى وشامل فى بناء المجتمعات ، وبسبب تباين حركات الصفوة

(١) Zetlin, op-cit, PP. 159-160.
(٢) Gouldner, op-cit, PP. 286-290.

بين جيل واخر بينما يدل تقسيم بارسونز لأنواع التغير على موقف الحذر والشك حيال مشكلة التغير البنائى ، ولم يمنح بارسونز عنصر القوة كما فهمها باريتو الا أهمية محدودة ، فى الوقت الذى يذهب فيه باريتو إلى حد النظر لذلك العنصر كأحد المقومات الجوهرية لتحقيق التوازن . ويكاد ينحصر دور القوة عند بارسونز فى مواجهة صور الانحراف أو العنف الذى يخل باستقرار النسق وتكون دائما مرهونه بالشروط والظروف التى دعت اليها اى موقوته بمواقف معينة .

ومن جانب اخر يربط باريتو القوة بالمذهب المثالى ، على اساس ان الفرد أو الجماعة صاحبة العقيدة القوية على استعداد لاستخدام القهر أو اللجوء للمقاومة لتحقيق الاهداف ، بما فى ذلك استعمال وسائل الخداع واساليب الغش والمغالطة من حيث انها ادوات مساعدة للقوة ، وهذا ما يناهض أو يتعارض مع مبدأ المشروعية فى تحقيق الاهداف الذى يوثرة بارسونز بالجانب الاكبر من اهتمامه . فاذا كان الارتباط بين الوسائل والغايات لازمة وظيفية مقررة فى النسق الاجتماعى ، فان ذلك ينبغى ان يتم فى اطار مبدأى المشروعية والملائمة . ولا يقبل بارسونز الاتجاه الميكيافللى النفعى عند باريتو ، واختلف معه حول دور « المصلحة » كمحرك دافعى للسلوك ، كما لم يأخذ بفكرة انهيار النسق على النحو الذى يركز عليه باريتو فى دورة الصفوات ، فالنسق باق ومستمر وخالد Immortal . ولعل موقف بارسونز هذا ينطلق أساسا من مقدرته على التأليف بين الاراء والتنسيق بين الافكار . فقد جمع بين عقلانية ماكس فيبر ، ومضمون التوازن فى تحليل باريتو ، ومنطق التكامل كما يصوره دوركايم . ولهذا نجد التراكم بين مفهوم « الضمير الجمعى » عند دوركايم ، والقيم الثقافية لدى ماكس فيبر ، مصدر اشتقاق بارسونز لما يطلق عليه « القيم النهائية » ultimate values .

واذا كانت الرواسب مسؤلة عن تحقيق الوحدة والانسجام فى المجتمع ، فان المشتقات فى رأى بارسونز احد عوامل التباين Differentiation ، وتعتبر صفتا (التكامل والتباين) ضروريتان لتحقيق وظائف النسق ، الذى ينطوى على عناصر من الاعتماد المتبادل بجانب الاستقلال فى اداء بعض الوظائف ، وطالما ان الانساق الفرعية تجسد فكرة التنوع فضلا عن تكاملها الداخلى الخاص ، وإرتباطها العام

بالانساق الكبرى ومن جانب اخر يستثمر بارسونز راسبى « الالفة الاجتماعية والتكامل الشخصى » فى تحليله للعلاقة بين الذات والاخر .

وفى التميز بين مكونات الشخصية وبناء المجتمع أو النسق الاجتماعى ونسق الشخصية تمييزا تحليليلا . ومن ناحية ثالثة استخدم بارسونز مفهوم المشتقات فى معالجته للعلاقة بين المريض والطبيب فى مؤلفة النسق الاجتماعى كنموذج امبيريقى لشرح عملية التفاعل الاجتماعى ، فأشار إلى ان المريض يفصح عن عواطفه فى الافعال الخارجية Manifest sentiments by external acts ، وأحد صور هذا التعبير قرار المريض حيال اجراء بعض العمليات الجراحية ، ومواقف الحيرة والتردد والشك المحيطة بهذا القرار والتى تسبق وجوده مباشرة ، ثم الاقدام فى نهاية الامر وأثر التوجيهات الدافعة والوجدانية المصاحبة للموقف الكلى عند الطرفين .

وأخير حاول بارسونز الجمع بين الاتجاه التفاؤلي المحافظ عند دوركايم ، والمثالية ذات الطموح المتزايد عند ماكس فيبر ، كما اكتسبت فكرة المصلحة صياغة جديدة تغاير تماما موقف باريتو ، فقد استبدلها بمصطلح الحاجات التى يمكن ان تحقق الاشباع المتبادل من خلال االتوجيه المعيارى لا التبرير الغائى لإستخدام الوسائل مجردة عن انساق القيم والمعايير .

رابعاً : الانطباع بالتيار السيكولوجى :

تشهد اعمال بارسونز على تأثره بالتيار السيكولوجى ، وخاصة نظريات فرويد ، وقد اعترف بذلك فى أكثر من موقف ، ويتجلى ذلك التأثر فى اثنين من مؤلفاته هما ، الاسرة والتنشئة الاجتماعية وعملية التفاعل ويشترك معه فى هذا الكتاب الذى صدر عام ١٩٥٦ روبرت بيلز ، ثم البناء الاجتماعى والشخصية عام ١٩٦١ . وهذا بالاضافة إلى المقالات والابحاث الاخرى فى معظم كتبه ومنها النسق الاجتماعى ، والتى تدل بوضوح على دخول المنظومة السيكولوجية كاحدى جوانب التفسير لا سيما ما يتعلق بتكوين الشخصية . ولعل هذا الانطباع بالقضايا السيكولوجية كان من بين النقاط التى عرضته للانتقادات الشديدة من قبل كل من ماكس بلاك ، ودافد لكوود[١] .

(١) Wallace, walter, Sociolgcal theory, Heinemann, First published 1969; P. 260.

ومن بين الافكار التى كانت موضع التقاء نسبى بين فرويد وبارسونز العلاقة بين الشخصية والمجتمع ذلك ان اهتمام فرويد بدراسة اللاشعور ودوره فى حياة الشخص ، ينطوى على تقسيمات ثلاث تلعب دورا رئيسيا فى الحياة النفسية ، وتكمن خلف الشعور ، وتفسر جانبا جوهريا من دناميات العقل البشرى ، ولها دلاله هامة فى التعبير الرمزى عن الاحلام وهى (الهو) المرتبطة بوظيفة حفظ الذات فى اطار مبدأ Pleasure principle ،« والانا الاوسط » (الايجو) أو الذات الواقعية كما يسميها وتعمل من خلال مبدأ الواقع reality principle ، ثم اخيرا « الانا الاعلى » وهى جماع الاوامر والنواهى ، ومصدر الثواب والعقاب ويشتمل كل قسم من هذه المكونات الثلاث على تفاصيل كثيرة ومناقشات مستفيضة من قبل فرويد ومؤيديه ومعارضيه أيضا[١] .

وقد كان لهذا التقسيم مكان عند بارسونز وهو بصدد تحليله لانساق الفعل ، وخاصة العلاقة بين نسقى الشخصية والنسق الاجتماعى . وعن طريق التصور المميز لانساق الدلالة المعرفية Cognitive reference systems والتوجيهات الدافعة ، ثم الرموز التعبيرية والمعايير المشتركة ، تمكن بارسونز من إستيعاب افكار فرويد فى مخططه التصورى ، ثم اعادة صياغتها فى صورة اخرى . فجمع بين الموضوعات الفيزيقية والسيكولوجية فى تصوره للذات Ego ، والتى لا تخلو من حيث التكوين من عناصر معرفية ورمزية واستعدادات للتكيف واشباع مطالبها عن طريق الاخر Alter ، وهو محور النظم ومصدر التوجية الاجتماعى والاخلاقى . واذا كان تحليل بارسونز لهذين العنصرين يدخل ضمن السياق العام لتفسير العلاقة بين الفرد والمجتمع ، فان صلة هذا التقسيم بموقفه شئ آخر ذلك ان استعمال بارسونز لكلمة الذات والذى لا يرتبط باية تقسيمات فرعية اخرى كتلك التى قال بها فرويد له مضمون سوسيولوجى يتعلق بتكوين الشخصية كمفهوم يختلف عن اصطلاح « الفرد » وهو التمييز الذى اشار اليه دوركايم من قبل وترجمة بارسونز فى شكل محدد من بعد . وتجدر الاشارة إلى أن تصور فرويد لفكرة الذات الدنيا أو « الهو » جاء محملا

---

(١) Hall calvin ,A primer of Freudion psycholgy, Amenter Book, 1954, PP. 22-27.

بأوصاف ونعوت غير علمية ومجردة . اما عن الاخر والذى يشتمل على مكونات من تحليل فرويد ـــ للذات العليا ، فهو تصور يختلف عما يقصدة فرويد بالنظر إلى تركيزه على ادخال الوجود الاجتماعى فى دائرة الشخصية ، فى مقابل نمو وتطور فكرة المجتمع بالمعنى السوسيولوجى عند بارسونز ، ومع ذلك يبقى فهم فرويد للذات العليا كمستقر للقيم ومستودع للمعايير ، أحد أبعاد الاتفاق بين فرويد وباسونز ، ولا سيما فيما يتصل بعملية إستشعار الفرد لقيم المجتمع فى نظر فرويد ، وتحليل بارسونز لعملية الاستدماج الثقافى .

تبرز فى أعمال بارسونز كثير من المصطلحات التى شاعت عند فرويد ومن بينها « الطاقة النفسية » Cathexis علاوة على الميكانيزمات السيكولوجية ومن بينها ميكانيزمات التكيف والدفاع والتى نراها بوضوح فى كثير من أجزاء هذه الدراسة . وفى الوقت الذى ينصرف فيه تحليل بارسونز إلى ذلك التكوين المركب للعناصر الذاتية والخارجية ، التى توجد فى اطار المجتمع (نسق الشخصية) ، ويؤثر ويتأثر بالانساق الاخرى ، نجد فرويد يركز على فكرة الانا الاوسط أو الانا الواقعية كمحور لبناء الشخصية ، وهنا يدخل متغير الطاقة النفسية المشار اليه فى التفسير . فالانا الاوسط تحتفظ بالطاقة النفسية ، وتحقق التوازن المطلوب بين حاجات الهو ومطالب الانا الأعلى ، أى « المجتمع » . وكل من الهو والانا الاعلى يفقدان الطاقة . وبالتالى فان الشخص قوى الانا الواقعية (الوسطى) ، يكون ضعيف الهو والانا الاعلى . ومهما يكن من التفاصيل التى ذكرها فرويد فى هذا الصدد ، فإن تصوره ينطوى بالضرورة على التقليل من دور لمجتمع فى بناء الشخصية ، فى الوقت الذى يشير الهو « مستقر الشهوات » إلى عناصر اخرى يستخدمها فى تحليله للسلوك المنحرف .

ولم يقبل بارسونز هذا التفسير ، وذهب إلى ان الطاقة النفسية تشتمل على ابعاد وجدانية وعاطفية مزدوجة ، وانها تحقق تبادلا بالسلب « كما الحال فى التناقض الوجدانى والعداوة ، أو الايجاب « كالحب والاعجاب » ، ولكل من هذين الاتجاهين ميكانيزماته السيكولوجية المتباينة . ويكاد يتفق كل من فرويد وبارسونز حول مفاهيم الكف « والتوتر » والاسترخاء والنرجسية Narcissism أو حب الذات ، وايضا فكرة اللبيدو « Libido ، وإن تباين تطبيق كل منهما لهذه المفاهيم[1] . وقد كثر استعمال

(١) Freud sigmound,An Outline of psychoanalysis, 1938, PP. 12-22.

بارسونز لهذه الاصطلاحات عند مناقشته للنمو النفسى والاجتماعى للشخصية فى اتجاه بلوغ مرحلة النضج ، وفى تفسيره لعملية التفاعل الاجتماعى ، وايضا عند شرحه لابعاد عملية التنشئة الاجتماعية ، بل ان تحليل فررويد « للعقد النفسية » وخاصة عقدة الذنب ، كان مثار تأمل من قبل بارسونز وموضوع مناقشة فى جانب من تفسيره لقضايا الامتثال والانحراف .

تكشف اعمال فرويد المتأخرة عن تراجع نسبى من التركيز على دور اللاشعور فى تفسير كثير من جوانب الحياة النفسية إلى الاهتمام بالابعاد الشعورية والمدركة ، وتلك نقطة تحول على ما يشهد بذلك التراث ، غير ان اهتمامه ظل ملحوظا بفكرة الانا الوسطى ، التى ينبغى ان تتجه كل القوى نحو تدعيمها باعتبارها بوتقة انصهار الوعى ومحور تجمع الادراك ، وبالتالى مصدر عقلانية السلوك . وهنا نلمس تحولا فى اعطاء المتغيرات العقلية « كالذكاء والتصور والتخيل والابداع » دفعة أكبر ، وهى من المقومات الهامة فى تكوين الشخصية وعلى وجه الخصوص « البعد المعرفى » . ذلك البعد الذى بات واضحا فى كل اعمال بارسونز منذ بناء الفعل الاجتماعى حتى الان ، وما هو أكثر من ذلك ما اشار اليه فرويد فى اعماله المتأخرة من ان تفسيره للاحلام وان كان يعتمد على اللاشعور فى المقام الأول ، فان هذا التفسير لا يخلو من الاهتمام بالرموز الثقافية ودلالاتها فى المجتمع ، بالاضافة إلى اكتساب الحياة الوجدانية طابعا مميزا فى الجماعة ، الا ان فهم فرويد — فى رأى بارسونز — للرمزية الثقافية لم يكن كاملا ، ويعود ذلك إلى عدم اداركه لنسق الثقافة المشتركة ومصدر وجوده قيم المجتمع ومعاييره ،وأساليب الاتصال والتفاهم والتعبير وفى مقدمتها اللغة . وهذا الفشل يرجع بدوره إلى تحليل فرويد للرمزية من خلال بعض الاعتبارات والصور الذاتية ، والتى اتضحت على وجه التحديد فى شرح الثنائية الجنسية والافكار المرتبطة بها .

ومع ذلك يرى بارسونز ان تصور فرويد لموضوع « الدور » كان واضحا . ويتجسد فى تناوله للارتباطات التى تصل الذكر بالانثى ، وطبيعة نوع العلاقة بين الكبار والصغار ، وبين الاباء والابناء ، وتباين اتجاهات ومشاعر كل طرف من أطراف هذه الثنائيات عن الطرف الاخر ، (فكرة تمايز الدور) ، بل ان موضوع تبادل التوقعات فى ممارسة الدور وعلاقتها بالاشباع والحرمان باتت مقررة عنده ، الا ان

الاختلاف بينهما جاء فى طريقة التحليل والمنهج المتبع ، بالاضافة إلى ماطرأ على النظرية السوسيولوجية من تطور كبير خلال النصف الأول من القرن العشرين . وإذا كان فرويد قد اهتم بالابعاد الوجدانية والداخلية لتكوين الشخصية ، فقد اضاف بارسونز اليها متطلبات الموقف الخارجى وانماط الثقافة بالمدلول الانثربولوجى[١] . والجدير بالذكر ان تحليل بارسونز لدور التفاعل الاجتماعى فى صياغة مفهوم الجماعات والموضوعات الثقافية ، يشتمل على ثلاثة انساق فرعية هى ، المعايير الاخلاقية ، والرموز التعبيرية ، ونسق المعرفة . ويضم نسق الرموز التعبيرية بجانب عناصر اخرى ، جوانب من تفسير فرويد للرمزية من حيث علاقتها بالعواطف والانفعالات ومختلف الاحساسات والمشاعر النفسية الاخرى .

ومن ناحية ثانية جاء تحليل فرويد « للقلق » محورا اخر لانطباع بارسونز على نحو مايتأتى فى مناقشة نماذج السلوك التعبيرى . فقد تأثر برمزيته ، ومزج بينهما بينها وبين أفكار مستعاه من أراء تشارلز كولى Charles Cooley ، وجورج هربرت ميد ، وتمكن من التعبير عن الميكانيزمات الاساسية التى تحكم العلاقة بين الفرد والمجتمع ، والمشكلات المتعلقة بعملية التنشئة الاجتماعية . ومن جانب ثالث اذا كان علم الاجتماع فى رأى بارسونز ، يهتم بتنميط السلوك بالمنسبة لمجموعة كبيرة من الافراد الذين يشكلون النسق الاجتماعى ، فان تحليل فرويد لأهم الميكانيزمات السيكولوجية (مثل الكبت والاسقاط ورد الفعل والتثبيت والاندماج أو التقمص والاعلاء والاحلال وغيرها) من بين الموضوعات التي اهتم بها بارسونز فقد تمكن بارسونز من الكشف عن الجوانب الدافعية في السلوك بعامة ، وفي تعيين نسق الشخصية[١] . ويفهم من التكوين المركب لعملية الاستدماج احتواءها على بنود من ميكانيزم التقمص وعناصر من الهو والانا الأوسط عند فرويد بالاضافة إلى القهر الخارجي الذي تناوله دوركايم ، ودلالات ورموز ثقافية أخرى أضافها بارسونز وتظهر جميعها في تفسيره للعلاقة بين النسق الثقافي ونسق الشخصية[٢] .

---

(١) Parsons T.,Social structure and personality, the free press of Glencoe, Collior-Macmillian lonsin, 1964-PP. 23-32.

(٢) Tbid, PP. 16-18.

(٣) Parsons T., And Bales R., Family,Socialization and interaction process, Routledge and kegan paul, london, 1956, P. 36.

ويلاحظ ان اهتمام علماء النفس بالطفولة المبكرة ودورها فى بناء الشخصية وفى تحديد علاقة الفرد بالمجتمع اثارت انتباه بارسونز ، وحاول بحث تلك القضية على مستوى النسق الاجتماعى وبعد تحليل مستفيض لمراحل نمو الطفل ، وطرح المشكلات والقضايا الخاصة بصلاته بأبويه وبالمجتمع ، توصل إلى أن العلاقة بين الام ورضيعها تمثل ابسط صور التعبير عن مفهوم النسق الاجتماعى ، وهى بذلك تجسد « النمط الاصلى » Proto-type لعملية التفاعل الاجتماعى بكل مقوماتها ، والتى تبلغ درجة كبيرة من التشابك والتعقيد فى المجتمع . وقد اعتبر الاسرة ككل احد الانساق الاجتماعية « الصغرى » وتتناظر الادوار الاجتماعية فيها مع ما يقابلها فى المجتمع .

واخير فان انطباع بارسونز بقضايا علم النفس والتحليل النفسى خاصة ، كان واضحا . غير انه كثيرا ما اعاد صياغة المبادئ والعناصر المستعارة أو طبقها بما يتلائم وتفسيره لكل من الفعل والنسق الاجتماعى[1] . ومع ذلك يبقى التباين فى المناهج والمضامين كبيرا ، وان اهتمام فرويد ونزعته التشاؤمية حيال تكوين الشخصية ، وتركيزه على الجوانب غير السوية والمرضية من ذلك التكوين ، يختلف عن موقف بارسونز التفاؤلى ، وميله المستمر نحو ابراز الطابع المستقر والمتكامل للشخصية وهذا ما يتجلى فى بحث قضية الصراع ومشكلة الانحراف .

خامساً : الالتقاء بالاتجاهات الانثروبولوجية : (بارسونز ومالينوفسكى) .

يعتبر بارسونز من ابرز رواد الوظيفية المحدثة ، ولعل هذا المسلك الوظيفى احد وشائج الصلة بينه وبين واحد من اهم علماء الانثربولوجيا وهو برنسيلو مالينوفسكي . ويعترف بارسونز بان منهجه فى دراسة النسق الاجتماعى ، هو المنهج البنائى الوظيفى ، وان المفهوم الانثروبولوجى للثقافة كما يفهما مالينوفسكى من بين الاعتبارات الاساسية فى تفسيره للثقافة كنسق رمزى ، ولقد حدث تطور فى أراء بارسونز منذ بداية الستينيات ، وظهرت افكار جديدة فى ثنايا مؤلفاته ، وكان من بين الموضوعات المستحدثة « الحاجات الوظيفية » والتى انبثقت عنها « الملزمات الوظيفية » ، وأيضا التوازن الوظيفى ، وكثيرا ما استعمل بارسونز إصطلاح الحاجة بمعنى واسع

---

(١) Johnson, Harry, Socioicgy,Asystematic introduction, Routledge and kegan paul,london, 1968, P. 131.

جدا . وأوجز ما يقال فى بيان تلك الحاجات ، انها مركب من المتطلبات البيولوجية والسيكولوجية والاجتماعية ، وتعود فكرة الحاجات اصلا إلى مالينوفسكى ، الذى تناول بشكل مفصل الحاجات الوظيفية وقسمها إلى نموذجين هما الحاجات الاساسية Basic needs ، والحاجات المشتقة Drived needs ، وتنقسم الاخيرة إلى أربعة اقسام : الحاجات الاقتصادية والتربوية والضبط الاجتماعى ثم الحاجات السياسية . وهذه الحاجات المشتقة هى التى اهتم بها بارسونز اكثر ، وتطورت عنده إلى ما يسمية بالتقسيم الرباعى للملزمات الوظيفية (التكيف ، والتكامل ، وتدعيم النمط ، وتحقيق الهدف) . وقد بالغ بارسونز فى بيان دور هذه الوظائف ولزومها لكل الانساق الاجتماعية(١) .

وفى تناول بارسونز للحدود التى تميز النسق الثقافى عن النسق الاجتماعى من المنظور التحليلى استعان بأفكار مالينوفسكى الرائدة فى هذا المضمار ، وبدأ الاتجاه الوظيفى يأخذ طريقه فى التحليل منذ أواخر الثلاثنيات من هذا القرن متأثرا بتعاليم استاذه حول التدعيم الذاتى ، والقصور الذاتى ، التى تتحقق فى الانساق العضوية التى استلهم منها ما لينوفسكى تصوره .للثقافة ، ففسر الحاجات الاجتماعية كما لو كانت بناء علويا للحاجات البيولوجية ، وتتصل فكرة القصور الذاتى بقدرة النسق الاجتماعى على استيعاب الضغوط والتوترات عن طريق وجود الميكانيزمات الوظيفية المشار اليها . ويمكن القول بان معالجة بارسونز لهذه الميكانيزمات تستند من غير شك إلى ابعاد متراكمة من اراء الوظيفين الكلاسكيين والمحدثين ، ويهمنا من هذا التراكم رأى مالينوفسكى ، الذى جمع من الحقائق الاثنوجرافية عن المجتمعات البسيطة ، بمالم يباريه فيها احد من معاصريه على الاقل ، واستعمل طرقا منهجية غاية فى الدقة والتنسيق .

وقد استفاد بارسونز من دراسات مالينوفسكى المباشرة ، ومن مواقفه المنهجية فى تحليل للانساق المركبة والكبرى ، والتى تختلف بالضرورة عن الانساق الصغرى وبات ذلك مقررا فى المقارنة بين الانساق النظرية والانساق الامبيريقية ، والتى حظيت بقسط وافر من التحليل فى معظم كتابات بارسونز . وتفسير ذلك ان الجانب الاكبر

(١) Diesing,paul,patterns of discovery in social sciences, Routledge and Kegan paul, paul, london, 1971 PP. 241-45.

من اسهامات مالينوفسكى — كعالم انثروبولوجى — تمركزت حول الجماعات والمجتمعات البسيطة فى وجودها المشخص والعيانى ، وبالاعتماد على الملاحظة بالمشاركة ، وهو الامر الذى لم يتوفر لبارسونز ، وترتب عليه بالتالى تباين فى الاتجاهات والمواقف . غير ان بارسونز عبر حد الافتراق هذا ، وتمكن من تطبيق تحليل مالينوفسكى للانساق الامبيريقية على بعض الشرائح والجماعات الصغيرة داخل اطار المجتمعات الصناعية المركبة ، وبين إلى اى مدى يمكن لهذه الانساق الصغيره أن تؤدى وظيفة واحدة ، أو وظيفة أهم ، بالنظر إلى طبيعة النسق ونوع التفاعل بين المشاركين فى تكوينه . ومن جانب أخر تناول بارسونز بالتحليل ابعاد الصلة بين الظواهر الاجتماعية والثقافية من جانب ، والظواهى الاقتصادية من ناحية ثانية ومن المنظور الحديث ، وبين إلى اى حد يكون التفسير السوسيولوجى مصدر ثراء لتكامل التحليل الاقتصادى ، وليس الامر مقصورا على المجتمعات البسيطة فحسب[1] .

ويذهب بارسونز إلى أن دراسات مالينوفسكى لكثير من ظواهر الثقافة والمجتمع فى السياق الملموس والواقعى ، بالاضافة إلى مقومات الابتكار والتى ساهمت دون شك فى تكوين جيل بأكمله من الباحثين لا سيما من الناحية المنهجية ، كان يمكن ان تكون منطلقا للقيام بجهود مماثلة فى الانساق الاجتماعية الصناعية الكبرى من اجل بناء نظرى واسع النطاق ، ويعتقد بارسونز أن العمل الميدانى لا يتأكد الا بقيام اطار نظرى عام ، وهذا مالم يهتم به مالينوفسكى . والواقع أن السعى الجاد من قبل بارسونز لوضع نظرية كبرى يعتمد على ابعاد منهجية موضوعية هى بالضرورة موضع تباين بين الاثنين ، فضلا عن الاعتبارات الايديولوجية ذات الطابع الخاص .

إن المحك البيولوجى للنجاح فى الأداء الوظيفى كما يتصوره مالينوفسكى هو البقاء والاستمرار فى الوجود ، مع التطور وتحقيق التكيف « القصور الذاتى » . بيد ان هذا المحك لا يعنى الا القليل بالنسبة للنسق الاجتماعى ولأنساق الفعل ككل . وقد اراد بارسونز ان يطور الفكرة فقال بأن المجتمعات لا تموت أو تندثر على نحو

(١) Parsons and smelser, op-cit, 25-40.

ما يحدث للكائنات العضوية الحية ، وتصنيفة الوظيفى يميز الانساق الاجتماعية عن العضوية ويضمن استمرارها خلال الزمن ، بغض النظر عن دورات حياة الافراد ، كما اضاف مجموعة من البدائل الوظيفية التى تحفظ هذا الوجود . ومن ثم فان تطوير بارسونز لمشكلة الاستمرار فى الوجود ، جاء على نحو يتسق ومقومات الوظيفة الاجتماعية ، فى مقابل التحليل المفصل لعناصر الوظيفة البيولوجية كما وضعها مالينوفسكى .

ولم يقبل مالينوفسكى موقف التطوريين والانتشاريين من قضية الثقافة ، واهتم بالطابع المنظم فى حياة المجتمعات ، والابعاد الراهنة فى تشكيل المعايير والقيم . إن وحدات الانتقال والانتشار الثقافى عنده هى الانساق أو النظم ، وليست السمات أو مركبات السمات على نحو ما يرى الانتشاريون ، كما لم يكترث بالتاريخ الا بقدر ما يفيد فى تفسير الحقائق الراهنة ، وذلك عند تناوله لظاهرة التغير الثقافى . وقد تمثل بارسونز هذا الاتجاه ، فقال بان دراسة النظم والانساق الاجتماعية فى حالتها المعاصرة يساعد على تفسير مختلف جوانبها[1] .

ومهما يكن من مثالب هذا المسلك ، فإن موقف بارسونز من التاريخ وقضية التغير الاجتماعى ينطوى على خلفية أيديولوجية مناهضة للتفسير المادى التاريخى والماركسية بوجه خاص .

ومن جانب آخر ناقش مالينوفسكى مفهوم التوازن ، وقرر بان آية ثقافة مرت بمراحل من التطور الطويل ، ثم بلغت مرحلة التوازن المستقر Stable Equilibrium ، وهذا ما يؤكده البحث الجاد على المستوى الامبيريقى ، وفى سياق المجتمعات الصغيرة والجماعات محدودة النطاق . وتلك فكرة وجدت تطبيقا نسبيا لها فى مجتمعات سابقة على مرحلة التصنيع . غير أن بارسونز عبر عن التوازن الاجتماعى بصورة موسعة فى تحليله للانساق ، وبشكل ممعن فى الغائية ، بينما حصره مالينوفسكى فى إطار ضيق . ومن ناحية ثالثة يقرر بارسونز فى احدى مقالاته ان كل من النسق العضوى من حيث كونه يمثل وحدة متكاملة لاداء الوظائف

---

(١) Lucy, Maire, Malinowski and study of socil change'' in Man and Culture, by Raymand Firth, 1968, Thirteen article,.

الفسيولوجية ، ونسق الشخصية كنموذج لتجسيد الارتباط الضرورى بين البناء الفيزيقى للكائن البشرى وبين انماط السلوك والفعل ، بالاضافة إلى الثقافة كحقيقة ملموسة ، كانت واضحة فى تفكير مالينوفسكى[1] . ويظهر ذلك بجلاء عند مناقشته لعملية التفاعل بين الكائنات العضوية البشرية من حيث انها وحدات سالكة ، وتتسم افعالها بالادراك الكامل لوجودها وما يحيط بها . كما ربط مالينوفسكى بين النسق العضوى والنسق الثقافى بما لم يباريه فيه غيره من خلال تفسيره لمشكلة الدافع .

فقد اعتبر الثقافة بيئة للسلوك ، وأن التغيرات المتعددة لهذه البيئة قد توفر من العوامل الدافعة ما يعين على خلق الفوارق بين الشعوب فى طرق ونماذج حياتها على المستويين الكمى والكيفى بالنظر لنسق الحاجات الاساسية ، ووفقا للاعتبارات الثقافية والسيكولوجية ، وحاول اثبات العلاقة التى لا تنفك بين الحاجات العضوية والثقافية ، حين قرر بان اية نظرية لتفسير الثقافة ينبغى ان تبدأ بتلك الحاجات . فاذا ما نجحت تلك النظرية فى الكشف عن جوهر الصلة بين العضوى والثقافى ، فان ذلك سوف يجعلها صالحة لتعليل وجود الحاجات المباشرة (المشتقة) الاقتصادية والاجتماعية ، وتحديد وظائفها الفرعية ، ووضع قواعد عامة فى هذا الشأن ، ويعلق بارسونز على هذا التفسير فيقول بانه ينطوى على رد الانساق الاجتماعية والنسق الثقافى بخاصة ، إلى الانساق العضوية بالضرورة وباشباع الحاجات الفسيولوجية ، وهذا مالم يقبله . بيد أنه تأثر بتحليل مالينوفسكى للنسق العضوى فى تناوله لانساق الفعل ، وباتت المناظرة بين الحقائق البيولوجية والاجتماعية ، احد ابعاد تفسير بارسونز للثقافة والمجتمع ، غير انه رفض التحليل الثانوى لدور الثقافة استنادا لأداء الوظائف الحياتية للكائن العضوى « الفرد » والذى ينفعل به مالينوفسكى كثيرا ، كما ان اهمية البيئة لوجود الكائنات البشرية ، باعتبارها مصدر للطعام ، لا يعنى الا القليل بالنسبة للنسق الاجتماعى . وتجدر الاشارة إلى أن تفسير مالينوفسكى للثقافة من حيث علاقتها بالحاجات العضوية ، اشتمل على كثير من المعانى والرموز والاشارات ذات الدلالة الاتصالية . وقد اضاف بارسونز إلى تصور مالينوفسكى لهذه الوحدات

---

(1) Parsons T.'' Malinowski and the theory of social system From man and culture, I bid, PP. 53-70.

الثقافية ، بنودا وعناصر اخرى من اراء ماكس ڤيبر حيال قضايا « الفهم » « والمعنى » « والسببية » ، وضمنها جميعا صياغته للنسق الثقافى .[١]

ولعل تفسير مالينوفسكى للثقافة تفسيرا واقعيا وملموسا ، كان احد المنطلقات الهامة فى الالتقاء مع بارسونز ، والامر يتعلق هذه المرة بالنظم الاجتماعية ، وعلاقة النسق الاجتماعى بمفهوم النظام . فقد تناول بارسونز هذه القضية ، وبين أن النظم وحدات اساسية فى تكوين النسق الاجتماعى ، وتتصل بالجوانب ذات الطابع المحدد ، الذى يعين اطار الفعل وقواعد السلوك ، وهى بذلك اشد ارتباطا بالواقع المباشر والمعاش واضيق نطاقا من الانساق . وقد اشار بارسونز إلى تقسيم مالينوفسكى السباعى للنظم ، وبين ان ذلك التقسيم يشتمل على خاصيتين اساسيتين هما ، التكامل والتباين ، وكلاهما من مقررات الاداء الوظيفى الكفء . ومن جانب اخر اتضح البعد الاختيارى والتلقائى فى تفسير مالينوفسكى لصور الترابطات الاجتماعية .

ويعتقد بارسونز ان هذا النوع من التفسير يرتبط بمذهبه الطوعى فى دراسة الفعل الاجتماعى ، وان وضوح افكار مثل « المكانة » و « الدور » و « التكامل » عند مالينوفسكى يعنى انه قدم اسهامات فى شرح ابعاد الصلة بين الثقافة والنظم الاجتماعية ، وبين النظم والبناء الاجتماعى ، وتلك قضايا حظيت بالمزيد من الايضاح والتفصيل من جانب بارسونز ، الا انه يأخذ على مالينوفسكى غموض تصوره لظواهر التفاعل الاجتماعى مما جعلها تختفى فى الاطار العام للمفهوم البيولوجى للبيئة . وبالرغم من اهتمامه بالشخصية الاساسية **Basic Personality** وعلاقتها بالنظم والانساق ، فان مجموعة الوظائف والانماط السلوكية الملحقة بنسق الشخصية ، بقيت اسيرة الحاجات البيولوجية .

ومن بين الاتفاق فى المواقف الفكرية بين مالينوفسكى وبارسونز تفسير التغير الاجتماعى . وتقول « لوسى مير » الكاتبة الانثروبولوجية المعروفة ، ان هذا الالتقاء يعبر عنه مالينوفسكى فى النظر للتغير الاجتماعى على انه يعنى التكيف الملائم للمواقف الجديد . ومن اجل ذلك وفى اطار التحليل الوظيفى لأهمية الاتصال الثقافى بين المجتمعات بين أن الآثار والنتائج التى يتركها هذا الاتصال على سلوك ومواقف

(١) Ibid PP. 60-70.

واتجاهات اى من هذا المجتمعات ، هى موضوع التحليل الأول . كما اشار إلى ان التفاعل الاجتماعى والتكيف يكون بين النظم وليس الافراد ، وفى حدود هذا السياق ناقش مالينوفسكى تأثير التغير الاجتماعى على المجتمعات البسيطة وصلته الوثيقة باختلال التوازن الاجتماعى ، ولا سيما اذا كان التغير فى القيم الاساسية ذات الارتباط ببناء النظم .

وأخيرا فان هذا العرض الموجز يتناول أبرز نقاط الالتقاء والتباين بين مالينوفسكى وبارسونز ، ولا سيما فيما يتعلق بالمشكلات والقضايا الوظيفية ، وماتجسد فى اخر المطاف من رمزية الوجود الثقافى التى يعول عليها بارسونز كثيرا على ما نراه .

تعقيب :ـــ

توخيت فى هذا الفصل ايجاز القضايا والمشكلات ذات الاتصال الوثيق بنظريات بارسونز ، والتى يمكن اعتبارها أصولا عامة واسهامات تنتمى إلى أهم علماء الاجتماع والانثربولوجيا وعلم النفس ، ممن يمثلون التراث الكلاسيكى ، واكتفى بهذه النماذج تمشيا مع الهدف الاساسى من هذا الجزء ، وهو الوقوف على جذور ومنابع القضايا والمقولات التى تابعها بارسونز عند الرواد ، ثم طور فيها بما يتلاءم والموقف النظرى فى علم الاجتماع المعاصر لا سيما النظريات الكبرى ، التى لا تخلو من التوجية الايدلوجى بحال .

غير ان هذا الموقف يبدأ فى رأى بارسونز بفلسفة العقد الاجتماعى عند توماس هو بزوجون لوك حيث طرحت مشكلة النظام الاجتماعى ، وينتهى بالتفسير الوظيفى فى ضوء مسلمة التوازن الاجتماعى .

* * *

الفصـــل الثانــى

الاطــار العــام لنظريــة الفعــل الاجتماعــى

- **مدخــل**
- **أولاً** : التطور التاريخى للمقولات والقضايــا .
- **ثانياً** : أصــول النظرية الطوعية فى تفسير الفعل .
- **ثالثاً** : البعــد المعرفــى فى النظريــة .
- **رابعاً** : دور الأفكـــار فى نظريــة الفعــل .
- **تعقيب**

الفصـــــل الثانـــــى

الاطار العام لنظرية الفعل الاجتماعى

مدخــــل :

تعتبر مشكلة النظام الاجتماعى من المنظور الكلى والشامل ، من بين المشكلات الأساسية التى دفعت العلماء لصياغة نظرية تتفق مع الواقع الاجتماعى فى الربع الأول من القرن العشرين ، وهى فترة ازدهار وإعادة تشكيل للنظريات السوسيولوجية ، لا على أساس مجرد فلسفى ، بل استناداً لظروف الحياة ، ومعاصره للتطورات المتلاحقة فى شتى الميادين . وعندما تبلورت الأفكار الأساسية لبناء نظرية جديدة تفسر السلوك الاجتماعى ، وتتلائم مع البيئة الفكرية فى تلك الآونة ، ويمكن أن تقدم حلاً للصراع الاجتماعى ، وجد بارسونز فى بداية عام ١٩٣٠ م أن لديه من الأفكار والمقومات ما يستطيع أن يسهم به هذا المضمار وتعود المشكلة برمتها إلى الفلاسفة وفى مقدمتهم الفيلسوف السياسي توماس هوبز ، أحد أنصار فكرة العقد الاجتماعى . فقد وصف هوبز حالة البشر وصفاً تشاؤمياً فيما يطلق عليه مرحلة الفطرة ، وصور الأفراد كمخلوقات تسخر العقل فى خدمة الهوى . وتحت ضغط النوازع الذاتية ومنطق الصراع الذى لا ينتهى ، ظهرت مشكلة البحث عن سلطة تضمن استقرار المجتمع واخضاع النزاعات الفردية لضوابط من نوع ما ، وتلك السلطة ينبغى أن تمتلك من القوة والقهر ما يمكنهامن كبح جماح البشر وتحقيق النظام(١) . وقد وجد بارسونز أن هناك انقساماً فى الآراء والاتجاهات فى تلك الفترة

---

(١) اطلق هوبز على تلك السلطة كلمة « الوحش » Leviathan وهى القوى أو الدكتاتور . ولعل نزعة هوبز الساسية وتحيزه الفلسفى حيال النظام الملكى والسلطة القهرية ، هى التى حدت به إلى تقرير هذا الحل لمواجهة حالة الفطرة المفترضة والتى تمثل ذروة الفوضى الاخلاقية على ما يتصور .

بالذات يناظر إلى حد ما ـــ ما كان قائماً بين هوبز ولوك ، وأن مشكلة النظام بلغت أوج حدتها بظهور النظريات الاقتصادية التى تدعو للحرية فى المجال الاقتصادى ، وتنادى بالفصل بين العمل والانتاج والسلطة السياسية . ولم تعد آراء دوركايم ، وماكس فيبر ، وباريتو ، ومارشال كافية لملأ الهوة الواسعة بين النظرية الاقتصادية وما يمكن أن يطلق عليه النظرية الاجتماعية فى تلك المرحلة . ومن هنا كانت الحاجة ملحة لوجود مؤلف يجمع بين قضايا المجتمع فى نسق متكامل ، ويهدف إلى بناء اطار جديد للعلاقة بين مقولتى الاجتماعى والاقتصادى بعد فشل نظام المنافسة الحرة فى تحقيق التنظيم الذاتى .

وفى معرض طرح بارسونز لجذور المعضلة ، رأى أن هناك حقيقتان حول قضية الصراع كما يفسرها هوبز ، أولهما :

أن الرغبات موزعة توزيعاً عشوائياً ، ويعنى ذلك انتفاء وجود قاعدة عامة أو مشتركة تحدد الخير والشر ، وتفصل بين صور الأفعال على تباينها ويمكن استخلاصها من طبيعة الأشياء أو الموضوعات نفسها . ومن ثم فإن اختلاف الأهداف وتعارضها سوف يدعم قضية الصراع . ويصف بارسونز فى حدود هذا السياق المذهب الفردى بالتركيز على الغايات دون الاهتمام بالحدود الأخلاقية للفعل ، كما تقررها المعايير العامة والمصلحة المشتركة والمتبادلة . والحقيقة الثانية :

اتجاه الأفراد إلى تحقيق الرغبات والاستئثار بمزيد منها كمصدر للأمن الطبيعى ، وهو مفتقد بسبب الاندفاع اللا أخلاقى للبحث عن القوة والغلبة .

غير أن القوة على ما يرى بارسونز ، وإن كانت وسيلة للفعل فإنها محدودة الأثر لأن القضية لا تتعلق بالتوزيع العشوائى للغايات قدر ارتباطها بندرة الوسائل ، وهى مصدر مشكلة النظام . وعندما جاء الحل الهوبزى داعياً لتغيير طبيعة النظام على أساس من الزام الأفراد ـــ بمراعاة مصالح بعضهم تجاه البعض والتقيد بالوسائل ، افترض الاتفاق بينهم عن معرفة ووعى على احتكار الوحش لعنصر القوة فى مقابل استمتاع الجميع بالأمن والحماية ، وهم بصدد البحث عن أهدافهم . فمشكلة النظام عند هوبز تستند لفلسفة اللاأمن ، ورغبة الشر المتأصلة فى البشر . وهو يفترض توفر رغبة مشتركة فى الحماية من قبل الأقوياء والضعفاء ، وايمان بأهداف

السلطة والقوة . وهنا يتساءل بارسونز ، إذا أصبح مصدر القوة ومحتكر السلطة على صورة تدفع للمشكلات من جديد ، فما هو الحل إذاً ؟ وتكاد اجابة بارسونز على هذا السؤال أن تكون مركباً من عناصر من فلسفة هوبز حول طبيعة النظام ، ومنطق لوك فى أصول الحياة السياسية المدنية ، فيقرر بوجوب الاتفاق المعيارى الذى يتسق مع طبيعة المجتمع البشرى . وما دامت مبادىء مثل الواقعية ، والتفسير المنطقى ، والصراع من أجل البقا وغيرها ، لا تصلح كإطار ملائم لتحقيق النظام ، فإن الاستقرار الاجتماعى لن يكون إلا بالجمع بين ما هو معيارى متفق عليه ، وما هو اجتماعى تلقائى النشأة ونمطى التنظيم . وهذا هو السبب الذى دفع بارسونز لمناقشة تفصيلية لقضايا الفعل الاجتماعى عند دوركايم وماكس فيبر وباريتو ومارشال وغيرهم(١) .

ولقد كان انطلاق بارسونز فى تفسير الفعل الاجتماعى من فلسفة العقد الاجتماعى وهوبز بخاصة ، موضعاً لانتقاد شديد من قبل معاصريه . ولكنه واجه ذلك ، وقرر بأن الحلول التى قدمها هوبز وغيره ليست كافية ، وان الأصول المعيارية وخاصة الأخلاقية ، ضرورة لبناء السلوك على أساس عقلانى وايجابى . وقد حققت نظرية الفعل تطورات لاحقه ، وفى مرحلة متوسطة بصدور كتاب « الاقتصاد والمجتمع » ١٩٥٦ ، وفى الفترة الأخيرة حتى عام ١٩٧٨ . حيث بات مميزا اتجاه بارسونز لتفسير الظواهر الاقتصادية فى سياق النظرية الاجتماعية ، ودخول النسق الاقتصادى ضمن الاطار العام للفعل الاجتماعى .

ولما كانت أفكار بارسونز الأصلية فى بناء الفعل الاجتماعى قد حققت تطوراً ونمواً على مراحل عدة ، فإن الموقف المنهجى يقضى بوجوب متابعة هذه التطورات من الناحيتين التاريخية والموضوعية على المستوى التصورى لبناء المقولات العامة للفعل الاجتماعى فى هذا الفصل ، ثم انساق الفعل فى الفصل التالى ، تحقيقاً لمزيد من الايضاح وتبسيط المفاهيم والأفكار .

(١) Parson T.The structure of social action, op-cit, PP. 109-120 313-28.

أولاً : التطور التاريخي للمقولات والقضايا :

تكمن أصول النظرية العامة للفعل بعمق فى تاريخ التفكير الاجتماعى وخاصة الغربى ، ويتبلور ذلك عند بارسونز فى ثلاثة من الاتجاهات الهامة ، وهى التفكير النفعى والتقليد الوضعى ، ثم النموذج المثالى ، أما عن التقليد النفعى الذى بدأ ينمو مع فلسفة الحرية الاقتصادية وسيطر على الفكر الاجتماعى خلال القرن التاسع عشر ، فقدّ تميز بخصائص أساسية من أهمها النزوع إلى الانقسام والتجزءة ، والمبالغة فى العقلانية ، والتركيز على الأمبيريقية المفرطة ، وتباين الغايات والوسائل تبايناً عشوائياً فى ضوء معرفة الفاعل بالموقف معرفة مباشرة وذاتية (١) . ومن ثم كان عليه الاختيار بالاعتماد على ما هو «مفضل» ، « نافع » وخاص ، ما دام نسق الاختيار الحر قائماً . ولم يهتم المذهب النفعى بالترابط والتكامل بين المشاركين قدر تعلقه بضرورة استمرار الحركة بغير توقف ، مع وجوب قيام نظام قانونى يحمى التعاقد وينظم الملكية(٢) .

والجدير بالاهتمام أن رواد نظرية المنفعة الذين اتبعوا نموذج روبنز حول مذهب الاقتصاد الفردى ، عبروا عن الأبعاد المعرفية للاقتصاد كمشكلة تفسر الوجود الكلى للمجتمع . وكأن المطالب والحاجات التى تدفع للتصرف الاقتصادى من قبيل المعطيات ، متجاهلين أبعاد التحليل الأخرى ، وإلى جانب التحيز الواضح حيال الاقتصاد كعنصر موجه لنماذج الفعل فى المجالات الأخرى ، لم تحظ المصفوفة الاجتماعية والثقافية بأهمية تذكر داخل النظم الكلاسيكية . وعلى الرغم من وجود مؤشرات لبحث العلاقة بين ما هو اقتصادى واجتماعى فى مؤلف آدم سميث « ثروة الامم » ، فإن الميل المتعاظم نحو الجوانب العقلانية ضاعف من المشكلات ، حتى داخل النسق الاقتصادى نفسه ، وعقد من المعضلات أمام النظام الاجتماعى ككل .

فقد أيقن النفعيون بأن نظام المنافسة الحرة فى كل المجالات يحقق الاستقرار ويدعم النظام ، وأن صور الحياة الاجتماعية الأخرى موازية لشكل التعامل

---

(١) Ibid, PP. 381-435.

(٢) Parsons T.'' Comment on R.stephen warner's, ''Toward a redefintion of action theory : paying the co-gnitive element its due'',A.J.S, vol.83,N.6, 1978,PP. 1353-54.

الاقتصادى . وبات خطر هذا التفكير واضحاً فى نزعته الجزئية حيث اعتبر الأفراد وحدات متناهية Monadic فى الصغر ، وتناسى الوجود الكلى للمجتمع والقيم الكبرى . فعجز عن حل قضية التنظيم فى المجالين الاقتصادى والاجتماعى على أساس واقعى ، واستعاض عن المقولات الاجتماعية بافتراضات فلسفية ، أو سعى إلى إقامة موضوعية من نوع خاص ، يكون مصدرها الانسجام الطبيعى بين المصالح ، على افتراض وضوحها وعدم تعارضها ، وتكريس حرية التوزيع المطلق للمطالب والحاجات ، والأساليب والغايات ، كضمان لاقصاء التوتر وتجنب المشكلات . وأصبح الانسان ـــ وهو الموضوع الرئيسى للفعل ـــ مجرد واحد من بين عدد من المتغيرات . وفى ضوء هذا التصور أخرجت النفعية من سياق الفعل قضايا الترابط وتباين الأدوار ، لا التزاماً بفكره المصلحه بل بسبب مقضيات التنظيم الاجتماعى . ولهذا فشلت لأنها لم تحقق فى جملتها ما يسميه بارسونز تدعيم النمط [١] .

والنموذج الثانى فى تطور نظرية الفعل هى النظرية الوضعية ، وتعالج السلوك فى ضوء القوانين العلمية الحتمية ، وترفض الفروض النفعية حول التوزيع العشوائى للغايات لأنها تحول دون الاختيار الناجح من جانب الفاعل . كما تختلف الوضعية عن النفعية فى تقدير البعد العقلانى (وهو جانب من المقولة المعرفية الكبرى) الذى لا يتمتع بالوجود المطلق كما تذهب النفعية ، بل يستند أيضاً لمستوى الملاءمة . ويتحدد مستوى الملاءمة من الناحية الايجابية بمنطق التفكير العلمى ، ومن الناحية السلبية بالتفرقة بين عنصرى « الجهل » و« الخطأ » فى سياق الظروف غير الذاتية Non-subjective ، واللجوء للموضوعية والواقع الاجتماعى ككل ، وليس واقع النظام الاقتصادى فحسب . والتفسير الوضعى للفعل تفسير سلبي يمزج بين متطلبات البيئة وحقائق الوراثة من أجل صياغة مقبولة لواقع الحياة والنشاط الاجتماعى . وقد تمثل هذا فى موقف دوركايم من الجوانب النظامية فى الفعل ودور المعايير فى توجيه الفاعل الفرد ، بالنظر إلى اختلاف المقولة الاجتماعية عن الاعتبارات الذاتية اختلافاً جوهرياً ، ووجوب العودة للاطار المرجعى الاجتماعى فى كل أنماط السلوك الاقتصادى والسياسى وغيرها .[٢] .

---

(١) Loomis charles and loomis zona, Modern social theories, princeton, New jesey 1961,'p. 430.

(٢) Pope and cohen, op-cit, PP. 1395-61.

ففى دراسة دوركايم للانتحار ، يظهر الثقل الاجتماعى ممثلاً فى المعايير الملزمة ، ويؤثر بشكل فعال على الجوانب الكمية والكيفية من تلك الظاهرة . ويعتقد بارسونز أن الاتجاه الوضعى قطع شوطاً كبيراً نحو الفهم المتكامل لابعاد الفعل الاجتماعى ، ولكنه بالغ فى تقدير الطابع السوسيولوجى ، مما حال دون الكشف عن الدور الذى تلعبه الارادة الحرة فى اختيار النماذج وتقرير السلوك معرفياً وواقعياً ، لا سيما ما عرف بالحتميات السوسيولوجية ، وتغلب ظواهر مثل القهر والقسر على النزعات الارداية . أما النموذج الثالث وهو التقليد المثالى ، فيفسر ظواهر الفعل انطلاقا من المنظور الثقافى وخاصة القيم . فالانسان ليس بموضوع يخضع للقوانين الطبيعية والعلوم الكونية ، وإنما يحتاج للفهم ، والفهم مركب من حالات عقلية وعمليات فكرية ، وحقائق اجتماعية يصبح فيها المشاركون أفراداً وجماعات ، وفى أى موقف اجتماعى ، على علم وادارك بما يقصدونه من أفعالهم ، أو ما يترتب عليها من نتائج .

ولا يتيسر ذلك إلا بقيام مجموعة من الرموز الثقافية المشتركة ، وانساق التعبير والدلالة الاتصالية . ويصعب — فى رأى المثاليين — تفسير السلوك جزئياً ، طالما أن الفهم يقتضى الاحاطة بجوانب الموضوع .(١) وذلك الفهم لا يكون إلا بالتراجع عن المناهج الوضعية إلى أخرى ذات طابع كيفى وتاريخى وفلسفى . وإذا كانت الحقيقة الوضعية مركب من العناصر الوظيفية والارتباط السببى والمنطقى ، فإن المثالية تهتم بعالم المعانى ، وينتج عن هذا الاهتمام ، تميز منهجى بين علوم الطبيعة والعلوم الثقافية ، وتختلف هذه الأخيرة عن سابقتها فى اعتمادها على الفهم الداخلى « وتحليل العلاقات الرمزية المتبادلة » وليس الحقائق الخارجية المنطقية . ويذهب بارسونز إلى أن الاتجاه المثالى تجاوز فى تفسيره حدود المضمون الاقتصادى للفعل كما يتصوره النفعيون إلى مجال الرؤيا الاجتماعية والثقافية المتكاملة .

وقد اتضحت الجوانب العقلية والوجدانية والدافعية ، فضلاً عن المحتوى الثقافى فى عملية التفاعل بين المشاركين ، كما يعتقد بأن المذهب المثالى كشف عن ميكانيزمات تبادل التوقعات فى أداء الدور ، وجمع بين المعيارية والمشروعية فى مقابل

(١) Parsons T., The structure of social a ction ,op-cit PP. 82.

التحفيف من الشروط الوضعية ، وبالتالى الحد من القيود التى تفرض على الفاعل وابراز بعض المعانى الارادية(١) .

وانتهى بارسونز من استعراضه لآراء الآخرين ، إلى موقفه الخاص من قضية الفعل وهو مايعرف بالنموذج الطوعى ، ويستند هذا النموذج إلى جهود الفاعلين الأفراد والجماعات فى تشكيل الحياة الاجتماعية ، وفى تحقيق مبدأى التكامل والتفاضل أو التمايز فى الأداء . فالانتقاء من بين البدائل المتاحة عن طريق التوجيه المعيارى والطوعى معا ، يمكن من وضوح الغايات فى عقول الممارسين وفى أفعالهم بالمثل ، ومن جانب الفاعل والملاحظ . وإذا كان الوضعيون قد قدموا انساق القيم بشكل تحكمى لا يتسق والواقع الاجتماعى ، فإن إرادة الفاعل فى النظرية الطوعية ، هى مصدر التوجيه الذى لا يكون بتطبيق العلم تطبيقاً ميكانيكياً ، بل عن طريق ممارسة الفاعل لارادته The exercise of will ، ونتيجة للجهد الخلاق . ويذهب بارسونز إلى أن البعد الارادى يمكن تحديده علمياً ومنطقياً وامبيريقياً ، إلا أن الغايات والقيم المتصلة بالسلوك الارادى لا يمكن تفسيرها فى ضوء العلم الامبيريقى ، ومع ذلك فمن الميسور أن تكتسب القيمة الاجتماعية مدلولاً عملياً ، إذا ما كنا بصدد دراسة فعل معين يتبع قيمة خاصة ، ويكون ارتباط الحقائق المادية بالقيم ممكناً فى اطار النظر لتلك الحقائق كشروط وظروف تعين على إدراك القيم ، ويظل عنصر تقدير القيم من حيث علاقتها بالسلوك ، من الأبعاد الانشائية والخلاقة . وتفسير ذلك أن « القيم المطلقة » بالمعنى الذى يحدده ، من الظواهر التى تخضع للفهم من الداخل ــ إذا استعارنا منطق فيبر ــ وأن تطبيق مناهج العلوم الطبيعية عليها كما يذهب إلى ذلك الوضعيون يحول دون التفسير الصحيح لمدى ارتباطها بالفعل ، ودلالتها فى الكشف على الارادة الحرة وحق الاختيار .

ان علوم الفعل ــ كما يراها بارسونز ــ أصبحت فى اطار النظرية الطوعية مستقلة عن علوم الطبيعة موضوعياً ومنهجياً ، وليست الدقة من ناحية النظرية والمنهج والتطبيق والتى تتمتع بها تلك العلوم ، كافية لها كى تجعلها من مقررات السلوك الاجتماعى ، والذى يعتمد على الوعى والارادة ، بل ويستطيع تشكيل هذه العلوم

---

(١) Wallace, walter, sociogical theory, Heinemann, first published, 1969, P. 249.

حسب غايات الأفراد ومصالحهم . ومن ثم كانت لعلوم الفعل صفة الخصوصية والذاتية التى تنسحب إلى مجالات معينة من الحياة الاجتماعية ، لا تتفق أبداً مع المشابهات فى العلوم الطبيعية أو الاستعارة منها ، كما فعل الوضعيون فى إطار ما يسمونه بوحدة العلوم . ولهذا جاءت معالجة الغايات من قبل النظرية الوضعية ، غامضة وغير ملائمة ، لأنها ردتها إلى ظروف الفعل نفسه ، وتجاهلت دور الفاعل أو لم تهتم به . وجنح المذهب المثالى إلى المبالغة ، حين ارتبطت الغاية عند أهم رواده بما ينبغى أن يكون عليه ، ومنح الواقع المباشر أهمية محدودة . وقد جمع المسلك الطوعى عناصر من هذين الاتجاهين ، ثم أضاف إليها أبعاد أخرى فى مقدمتها الملاءمة مع الطابع الخاص بتحليل الشئون الانسانية . وحتى هذا الحد نستطيع القول بأن هذا الموقف من قبل بارسونز وباختصار شديد ، يعبر عن وجهة نظره قبل الحرب العالمية الثانية ، وكما جاء مفصلاً فى كتابه بناء الفعل الاجتماعى .

غير أن الأحداث والوقائع المتوالية فى المجالات الاقتصادية والسياسية ، ونتائج الحرب وآثارها على طبيعة البناء الاجتماعى ، ثم ظهور أفكار وايديولوجيات جديدة ، واحتدام الصراع الدولى ، كل ذلك أدى إلى حدوث تحولات فى أفكار بارسونز ، ولكنها لا تخرج عن الخط التصورى الذى رسمه قبل الحرب كثيراً . فمع بقاء حرية الارادة وحق الاختيار المتجسدة فى مذهبه الطوعى كما يسميه ، دخلت متغيرات أخرى ، تتصل بالعوامل والميكانيزمات السيكودينامية ، والتى لم يرد ذكرها أبداً فى فترة ما قبل الحرب ، ومن ثم فقد قدم بارسونز مفهومه الجديد « استعداد الحاجات » والأكثر ارتباطاً ببناء نسق الشخصية على ما نرى . كما تعرضت الجوانب المعيارية والذاتية للتغيير فى مخططه الجديد للفعل منذ عام ١٩٥١ ، وفى ذلك تراجع نسبى عن العنصر الارادى ، والذى اضحى من جانب آخر غير محدد المعالم ، فى مقابل التركيز على أهمية العلاقة بين الوسائل والغايات ، ووضوح فكرة المدخلات والمخرجات ، وهى وثيقة الاتصال أيضاً بالوسائل والغايات . هذا بالاضافة إلى وضوح أحد أبعاد الفعل وهو « الموقف » . ومع امكان تنظيم السلوك عن طريق التوجيهات المعيارية ، إلا أن الدافعية عنصر جوهرى .

وهنا نلمس نوعاً من الانطباع الكبير بالتيار السيكولوجى ، وذلك بتعدد العناصر النفسية وتدخلها فى التشكيل الوجدانى والمعرفى والاعجابى التقديرى . وإذا

كان استقلال العقل « كأحد عناصر الجانب المعرفى » أمراً جوهرياً قبل الحرب ، وشرطاً ضرورياً لتفسير الفعل فى ضوء المذهب الطوعى . فقد أصبح مثل هذا الاستقلال عن الكائن العضوى وموضوع العالم غير ممكن . ويعلق بارسونز على ذلك فيقول : بأن التحول عن بعض الأفكار واستبدالها بأخرى ، ثم وجود إضافات جديدة ، لا يخرج عن كونه اعادة للنظر Revision وليست ارتداداً Reversion عن آرائه الأساسية . ونجد فى « النسق الاجتماعى » آثار لتلك المراجعة لا سيما فيما يتعلق بمفهوم « الذاتية » « والطوعية » مع التركيز النسبى على الرمزية الثقافية[1] .

ومن جانب آخر قدم بارسونز مشروعه النظرى المعروف باسم « متغيرات النمط » أو « البدائل النمطية » ، كإطار لتصنيف وتبويب أشكال الفعل وأيضاً نماذج الأدوار داخل الانساق الكبرى والصغرى ، وهذه المتغيرات تتصل بالتكامل بين الأبعاد الدافعية والوجدانية والثقافية ، كما تشير بالمثل إلى الصلة الوثيقة بين الفاعل وموضوع الفعل والمعايير التى تنظم الحياة فى مختلف المجالات .

ويلح بارسونز على طائفة من حدود الموازنة التى تعتبر شرطاً ضرورياً للاستقرار الاجتماعى ، لا سيما فيما بين التوجيهات الخاصة بالفاعل (الفرد أو الجماعة) ، وبين نماذج الموضوعات Modalities of objects . وتلك الموازنة لا تخضع للارتباطات العشوائية ، وإنما تحكمها متغيرات النمط . وايجازاً للقول يمكن طرح الأبعاد التالية كمؤشرات لبناء الفعل فى ظل الصياغة الجديدة وهى :

(ا) متغيرات النمط كمقاييس لتحديد وتنميط أو نمذجة السلوك .
(ب) الملزمات الوظيفية ، وتعبر عن اسهامات بارسونز الجديدة فى المذهب الوظيفى ، وهى شروط ضرورية للأداء الكفء .
(ج) انقسام الأطر المرجعية للفعل إلى ثلاثة مجالات مميزة نسبياً وهى الانساق الكبرى .

---

(١) Parsons T., The social system, op-cit, P. 544.

ثانياً : أصول النظرية الطوعية فى تفسير الفعل :

تمكن بارسونز من خلال المعالجة الكاملة للاتجاهات المذكورة ، من الوصول إلى نتائج تتصل بإسهام كل منها فى تحقيق نظريته الطوعية فى الفعل Voluntarstic theory of action والتى يرمز إليها (.V.T.A) . وقد لاحظ أن الاتجاه النفعى أبرز البعد الفردى المتطرف ، فجاءت عقلاً نيته متحيزة معرفياً ، ومع ذلك فقد طرح مبادىء للواقعية الاقتصادية التى تعمل إلى حد كبير مستقلة عن الشروط الاجتماعية ، بينما رفض الوضعيون الجوانب الميكانيكية فى مقابل التركيز على أساليب القياس الفيزيقى والفسيولوجى ، واكتسبت العقلانية طابعاً مقبولاً بهذا التحول ، إلا أنهم لم يدركوا أن علوم الفعل البشرى تختلف عن علوم الطبيعة . وهذا ما حققه المثاليون ، حيث بات دور القوى الثقافية والنسبية التاريخية ، من الضرورة بمكان فى التفسير . ومن ثم فإن تصور بارسونز لكل من الاطار العام للفعل ، ثم لانساق الفعل ، جاء شاملاً لعناصر وبنود مستقاة من هذه الاتجاهات الثلاث ، وفى صياغة جديدة . تلك الصياغة التى تعتمد على الالتقاء بين الأفكار ، والتأكيد على النظام الاجتماعى ومتطلبات التنظيم والترشيد فى ظل التناغم المعيارى ، وعن طريق التنشئة الاجتماعية . وتنقسم وحدات الفعل فى إطار النظرية المذكورة إلى ما يأتى :

١ ــ الفاعل Actor :

وهو الشخص أو مجموعة الأشخاص أو الجماعة التى تمارس نشاطاً أو دوراً من نوع ما . ويعتمد ذلك النشاط على الجهد الايجابى فى الجانب الأكبر منه ، وعلى الممارسات اليومية ، والاختيار النسبى من بين عدد من البدائل . ومن ثم فإن الفاعل هنا هو الذات بالمعنى السيكولوجى والسوسيولوجى معا . ولا تنفصل الذات بذلك عن سلوك الآخر . والفاعل من ناحية ثانية شخص يدرك وجوده وما يحيط بهذا الوجود من أشخاص وموضوعات وأشياء ، بحيث يتمكن من اصدار القرارات الخاصة بذاته العارفة والسالكة فى آن واحد . وكل ذلك يتم فى إطار الملائمة على المستوى الواقعى ، وهنا تمتزج الجوانب الوجدانية بالحدود العقلية (المعرفية) ، وبالشروط الاجتماعية والثقافية . وتترجم قضية الفهم ــ كما يحددها فيبر ــ عن وجودها بشكل ملحوظ فى هذا العنصر . لأن الفهم هنا لا يتحقق إلا بتوفر

المضمون والمغذى والدلالة الرمزية . والجدير بالاهتمام أن الفاعل قد يكون هيئة ذات صفة اعتبارية تقوم بالنشاط الذى يمارسه الشخص أو الجماعة .

٢ ــ الغايــة End :

وهى ما يسعى الفاعل لبلوغها وتمثل الحالة المستقبلية للسلوك فى كثير من الأحيان . وتتعدد الغايات بتعدد الاطارات ، وقد يحدث نوع من التبادل بين الغاية والوسيلة ، إلا أن التعلق بهدف ما يبقى قائماً ، بغض النظر عن عملية التناوب هذه ، وبما يتجاوز التباين الفكرى والواقعى بين الممارسين للنشاط .

٣ ــ الموقــف : Situation

وهو مجال أو دائرة وقوع الفعل ويشتمل على عنصرين :

(ا) الظروف : Conditions

وهو مجموعة بنود الفعل أو وحداته (unit acts) التى يصعب سيطرة الفاعل عليها ، أو التحكم فى متغيراتها وعناصرها .

(ب) الوسائل : Means

وهى وحدات الفعل التى تخضع لسيطرة الفاعل أو تكون فى حوزته .

٤ ــ التوجيهات : Orientations

وتنقسم إلى قسمين :

(ا) توجيهات دافعية : Motivational orientations

وتتصل بالجانب السيكولوجى للفعل والنواحى الوجدانية ، ووظيفتها تصريف التوترات وتنقسم إلى ثلاثة شعب :

* **توجيهات ادراكية : Cognitive orientations**

وتتعلق بتصور الفاعل والقدرات الأساسية المزود بها ، وهذا ما نتعرض له بالتفصيل فى مبحث لاحق من هذه الدراسة .

* **توجيهات ارضائية : Cathectic orientations**

وهى بوتقة الانفعالات والعواطف ، وشتى صور التعبير عن الجانب الوجدانى .

* توجيهات تقييمية : Evaluetive orientations

وتشتمل على اهتمامات الفاعل النسبية بالموضوعات والأشياء التى تكون محل اختيار أو انتقاء يتلاءم مع مستوى تطلعاته وطموحه(1) .

(ب) التوجيهات القيمية : Value orientations

وتضم القيم والمعايير الاجتماعية والثقافية ، وتقبل الانقسام تحليلياً إلى ثلاثة فصائل هى :

* **إدراكية** : والادراك الثقافى يتميز عن الادراك العقلى نوعاً ما ، بالنظر إلى طبيعة الموضوعات الثقافية العامة وطريقة اكتسابها وانتشارها .

* **خلقية** : وتشتمل على كل ما يكون من شأنه تحقيق القبول والرضا أو الاستحسان الاجتماعى ، والأخلاق جوهر القيم(2) .

* **استحسانية أو اعجابية** : تتصل بالأحكام الجمالية ، وبتقرير الأشياء والموضوعات المادية وغير المادية ، ولا سيما جوانب التراث الفنى والأثرى . ويلاحظ أن الموقف بما يشتمل عليه من ظروف ووسائل ، يمكن أن ينقسم إلى بعدين أحدهما داخلى ، يتصل بخصائص الفاعل العقلية والعاطفية ، والآخر خارجى يعبر عن الصفات المشتركة والعامة بين أفراد المجتمع وجماعاته ، كما يرتبط بالبيئة بمعناها الواسع .

ويكشف هذا المخطط عن أن كل من الوسائل والغايات ، تخضعان للتوجيه المعيارى فى ضوء البدائل المتاحة ، كما أن الفاعل مقيد بحدود القدرات والجوانب الداخلية ، وبشروط البيئة الخارجية المكانية والزمانية ، فضلاً عن الشروط الثقافية

---

(1) Parsons T. The structure of social action 44-46, op-cit, PP.

(2) Warner,stephen,"Toward a redefinition of action theory: paying the cognitive element its due". A.J.S, vol. 83, N. 6 (1978) P. 1321.

والاجتماعية [1] . وتتشكل الظواهر الاجتماعية عن طريق العلاقات المتبادلة بين اثنين أو أكثر من الفاعلين . وهذا يعنى أن الرابطة بين الذات والآخر ، هى محور عملية التفاعل الاجتماعى ، وهى أيضاً الأصل والأساس فى تكوين الرموز ذات الدلالة المشتركة ، خاصة الرموز الثقافية . ويذهب بارسونز إلى أن الغايات التى ترتبط بالفاعل من ناحية ، وبشروط الموقف من جانب آخر ، تخضع للانتقاء وذلك بالرجوع إلى محكات القيم ، وتنبع القيم فى تصوره ، من المشاعر والاحساسات الباطنية المشتركة بين الفاعلين ، ويعنى ذلك أن القيم تعود فى جزء منها إلى التكوين العضوى ، وفى الجزء الآخر إلى التراث الاجتماعى والثقافى . ويشير بارسونز إلى أن هناك عملية انتقال من المشاعر إلى القيم ، ثم الغايات . وهذه الأخيرة أكثر تخصيصاً من الأولى وأشد وضوحاً . وبيان ذلك أن المشاعر غالباً ما تكون مبهمة وغير مميزة المعالم ، وعندما تتجسد فى شكل قيم ، تصبح أشد وضوحاً ، وتأتى الأهداف فى صورة أسهل حصراً .

ولقد ناقش بارسونز فى هذا المخطط دور البيئة بمعناها الشامل (الطبيعى والاجتماعى) ، وبين أن العلاقة بين المكونات الفيزيقية والاجتماعية والثقافية تحدد أهدافنا من منظورات ثلاث هى : العوامل والمتغيرات الطبيعية ، والقدرات الفطرية ثم المجتمع . وفى دائرة هذه الأطر ثلاثية التكوين ، قد تكون الأهداف بسيطة أو مركبة ، وبينما يمكن تحقيق الفعل بأكثر من وسيلة ، إلا أن الاختيار من بين الوسائل مشروط بكثير من العوامل ، ومن أهم تلك الشروط مستوى الملاءمة . ولهذا فإن الخطأ والانحراف ، قد يقع بسبب اختيار الوسائل الأقل ملاءمة .

على أن المكونات الأربعة المشار إليها تتفاعل جميعاً ، وتقبل الانقسام لأغراض التحليل ، إلا أنها من الناحية العملية تتداخل سوياً وبشدة . ويشير بارسونز إلى ما يطلق عليه التنظيم المعيارى العام ، الذى يضع الضوابط التى تقرر الأهداف وتحدد الوسائل . وكلمة معيارى هنا تعنى أية عاطفة تلحق بشخص أو موضوع ، وتكتسب صفة الاحترام ، مثل الواجبات الأخلاقية . فإذا ذكرت العبارة ينبغى على الجنود طاعة الأوامر الصادرة اليهم من الضباط المنوطين بالخدمة فإن الطاعة تمثل قيمة

---

(١) Parsons T., The social system, op-cit, PP. 3-32.

لها ثقل معيارى ، بحيث يترتب على الاخلال بها ، وجود مشكلات صعبة تهدد النظام فى ذات المجال المتصلة به ، ومن هنا كان ارتباط المذهب الطوعى بالتوجيه المعيارى الذى يكتسب صيغة ملاءمة لظروف العصر ، لأن الفعل يعتمد على الأصول العقلية والثقافية فى الماضى (كما يعبر عنها التراث) ، والفهم المشترك فى الحاضر (على نحو ما يتجسد فى الجيل المعاصر) . ويصبح التوجيه الذاتى للفاعل فى سياق هذا التحليل ، مرتبطاً بملكية حق الاختيار للانسان دون غيره ، من الكائنات . والاختيار ليس بمسألة سهلة كما تطرحها وسائل الاعلام على رجل الشارع ، وإنما يتطلب التحليل الواعى لانساق القيم والمعايير . وهنا يشير بارسونز إلى اختلاف موقف الفاعل من تلك القضية عن موقف العالم . فارتباط الفاعل بانساق القيم أو بالتوجيهات المشار إليها آنفاً ، يختلف من حيث أنه لا يحلل الحقائق المعيارية، ولايبحث وراء الأسباب والعوامل ، بقدر ما يسعى إلى أن يأتى سلوكه ملائماً للموقف والظروف المحيطة به . بينما يهدف العالم إلى التحليل الدقيق للميكانيزمات والأدوار والمواقف . وتلك قضية لم يفطن إليها الوضعيون[1] .

ثالثاً : البعد المعرفى فى النظرية :

من القضايا التى كانت مثار اهتمام العلماء ، وهم بصدد تفسيرهم للفعل الاجتماعى المقولة « المعرفية » وهى عبارة عن مجموعة العناصر والبنود التى توجه الفاعل نحو الاعتقاد فى الوجود الحقيقى للأشياء ، (كالعلاقات والحوادث والظواهر والقوانين التى تفسرها وغير ذلك) ، سواء كان ذلك الوجود تجريبي ويقبل القياس أو الحصر ، أو فوق طبيعى يحتمل التأويل أو يستند للتخيل والتصور والظن . وينبغى الاشارة إلى أن المعرفة المرتبطة بالسلوك فى ضوء التفسير السوسيولوجى ، أكثر اتصالاً بالواقع الاجتماعى ، طالما أن الأمر أبعد من أن يكون تحليلاً مجرداً أو فلسفياً لهذه المشكلات ، ولأن هذا الأخير يتعمق فى بحث المقولات المعرفية الكبرى من منظور عام يختلف كثيراً عما نقصده .

ولذا فإن البناء الاجتماعى أحد الحدود الهامة للبعد المعرفى ، لأنه هو الذى يمكن الفاعل من ادارك المحيط ، ووضع فرص الانتقاء من بين الوسائل الملائمة

(١) Warner, op-cit P. 1327,

لتحقيق الأهداف ، كما يحس بها الشخص . ومن جانب آخر تمتزج الجوانب المعرفية بالعناصر المعيارية والقيمية من الناحية الامبيريقية ، بينما يبقى التمييز التحليلي قائماً . وهذا وجه آخر للتفرقة بين المعرفة الاجتماعية والمعرفة الفلسفية ، كما تعنيها المقولات المجرده . ففى المثال المشار إليه سابقاً إذا قلنا ينبغى على الجنود طاعة القائد . فإن البعد المعيارى ممثلاً فى قيمة الطاعة أو ما يسمى بواجب الطاعة ، لا ينفصل واقعياً عن تلك اللازمة الوظيفية للأداء الكفء ، حيث تصبح الطاعة من جانب آخر حقيقة اجتماعية لا ينفك ارتباطها باداء الفعل وبتحقيق الأهداف المنشودة .

على أن البعد المعرفى من حيث محتواه السوسيولوجى ، يشتمل على كثير من الحقائق العلمية فى النظرية الاجتماعية ، ويضم كل الآراء والأفكار التى ننسبها عادة للعلماء والباحثين فى الميدان ، ويتوفر فى جانب هام منها الصدق الواقعى أو الشواهد الدالة عليها امبيريقيا . ومع أن من الأمور المعرفية ما لا يستوجب بالضرورة التحقيق الواقعى ، أو يصعب اخضاعها للاختبار مثل « يوجد اله واحد » « والكتاب المقدس صحيح » ، فإن ذلك لا يعنى بأى حال وقوف العلم الاجتماعى موقفاً سلبياً منها ، بل إن بحث تلك القضايا وكثير مثلها يكون من خلال وظائفها وعلاقاتها بالتفكير والتصور ، وما هو أهم من ذلك كله ، الكشف عن مؤشراتها فى سلوك الفاعلين وانعكاساتها على النظم الاجتماعية ، كما فعل دوركايم فى تحليله للانتحار ، وماكس فيبر فى دراسته للعلاقة بين المذهب البروتستانتى والسلوك الاقتصادى[1] . ومن ثم فإن الموقف المعرفى — لدى الفلاسفة — يظل أكثر تعلقاً بقضايا ما وراء الطبيعة ، وبالمطلق والنهائى ، بينما ينطوى التحليل السوسيولوجى فى الجانب الأكبر منه ، على بيان دور المعرفة فى السلوك البشرى ، واتصالها بأرضية الوجود الاجتماعى ، ولهذا يذهب وارنر Warner إلى أن اهتمام بارسونز بالجانب المعرفى فى تفسيره للفعل ، يتجلى فى نقطتين :

(ا) الحاق المعرفة بما هو علمى (حتى يبقى العنصر المعرفى غير متغير) .
(ب) امتزاج المعرفة بما هو معيارى (من أجل بيان مكانة ودور المعايير فى التفسير) .

---

(١) Warner, op, cit, PP. 1329-1347.

أما عن علاقة المعرفة بالعلم ، فإن الادراك بمعناه الواسع ، عنصر هام فى التفرقة بين الفاعلين (من النوع الانسانى) والمستويات الأخرى ، ولا سيما دون الانسانية منها ، ومن خلال التباين الجوهرى بين الأولى والثانية تتعدد الأفكار والظواهر المعرفية وتتجاوز مجرد الصور والحالات العقلية والمنطقية للأشياء والموضوعات .

فالأفكار الدينية مثلاً ، تنتمى لما هو معرفى ، بالرغم من تعلقها بالكيانات فوق الأرضية ، وبحثها فى خفايا وأسرار الكون من منظور خاص ، وذلك لأنها تتطور مع الزمن ، وتتنوع باختلاف الأماكن والمجتمعات ، وتنعكس على كثير من نماذج الفعل البشرى فى أشكاله الفردية والجماعية ، وتنحصر التوجيهات المعرفية عند بارسونز فى أربعة بنود هى :

١ ــ **العناصر العلمية** : ويرمز إليها بالرمز ــ T - وتتمثل فى العلم الصحيح .
٢ ــ **العناصر غير العلمية** : ويرمز إليها بالرمز (t) وتعود للخطأ والجهل واللغو .
٣ ــ **المكونات العشوائية** : ويرمز إليها بالرمز (.R) .
٤ ــ **المكونات المثالية** : ويرمز إليها بالرمز (.I) .

وكل من هذه الحدود الأربعة ، يركز على جوانب محدده من المقولة المعرفية بمدلولها السوسيولوجى ، كما يرتبط بأنواع معينة من الجماعات ونماذج السلوك . غير أن الجانب الهام من تحليل بارسونز ، بقى قائماً على أساس التوجيه المعيارى ، خاصة فيما يتعلق بتكوين النظم Institutionalisation ، وتلك قضية محورية فى تصور بارسونز . ولعل هذا الاهتمام أحد جوانب نقده للمذهب الوضعى ، حيث يصفه بأنه « جعل من العلم الصحيح مصدر المعرفة بالعالم الخارجى »[1] . وفى ذلك تقليل من شأن الوجود الذاتى للفاعل ، أو التهوين من دوره فى صياغة الأمور وتشكيل الموضوعات ، ويعتبر دوركايم ــ فى رأى باسونز ــ متحيزاً معرفياً ، لأنه جعل مقولة المعرفة ملحقة بما هو علمى ، بالرغم من أن قواعد السلوك فى تقسيم العمل ، معيارية كما هى علمية أيضاً ، وقد اهتم بهذا الأخير فى مقابل اعطاء أهمية

(١) Parson T.," Toward a redfinition of of action theory" op-cit ,PP. 1351-53.

أقل للأول . ومن أجل ذلك جاءت صياغة بارسونز للفعل على أنه نشاط خلاق ، ويستند للارادة والاختيار وليس الجبر والالزام ، نوعاً من تحقيق التكامل بين الجانبين فى سياق النظرية الطوعية .

وتبدو علاقة البعد المعرفى بالمعايير والقيم الثقافية ـــ على ما يرى بارسونز ـــ فى تحليل فيبر للمذهب الرأسمالى الحديث . حيث تنعقد الصلة القوية بين بناء المواقف السلوكية وصور الأفكار ، تلك الأفكار التى لا تشكل فى حد ذاتها غايات للفعل ، بل تظل اطاراً مرجعياً للشروط والظروف المثالية التى تسير الغايات وفقاً لها ، ويفصل بارسونز بين بنود المعرفة التى تعود للمعتقدات غير الأمبيريقية ، وتلك التى ترجع إلى المواقف الواقعية كما تجرى فى حياتنا اليومية ، غير أن كل من نوعى المعرفة مرتبطان بالقيم الاجتماعية . وعلى ذلك فإن أصحاب الثورات المعرفية مثل أفلاطون ، وكوبرنيق ، وكولمبس ، وديكارت ، ولوثر ، وكالفن وغيرهم ، والذين يكون ارتباطهم بالانساق المعرفية غير الأمبيريقية أشد ، أسهموا بشكل أو آخر فى تكريس القيم الاجتماعية والثقافية .

ومن المؤشرات الهامة للبعد المعرفى كما يفهمه بارسونز ، ما قدمه ماكس فيبر من شروح لمقولة الفهم ، والتى درسها على المستوى المقارن ، وبين كيف أن كل عقيدة دينية تتصل بظروف الحياة . غير أن رأى فيبر لم يكن شاملاً ، فليست كل عقيدة دينية ترتبط بظروف حياة الناس بالضرورة لأن العقائد تتباين بما لا يتسق بحال مع شكل الجماعات ، كما أن قضية المعنى هى الأخرى موضع اختلاف ، وكثيراً ما تتعارض المصالح مع المعايير عامة . ويترتب على ذلك خروج الأفراد أو انحراف الجماعات عن الأحكام والقواعد التى تدعمها المعايير التى ينتسبون إليها عقائدياً وفكرياً . وهذا ما يتجلى بشدة فى مجتمعاتنا المعاصرة(١) .

ومن جانب ثالث يذكر بارسونز بأن مؤشرات الجانب المعرفى فى صياغة الفعل باتت مميزة فى تحليل باريتو للسلوك المنطقى وغير المنطقى ، ولا سيما تلك المحاولة من جانبه لتطبيق المقاييس العلمية على دراسة السلوك البشرى . على نحو ما يتأتى فى ما أطلق عليه « المنهج التجريبي المنطقى » غير أن محاولته لم تنجح ،

(١) Pope,op-cit, PP. 417 - 427.

لأنه لم يلتزم بحدود هذا المنهج ، فضلاً عن بعض الموجهات الأيديولوجية التى أفسدت وضوح خطه ومسلكه الفكرى ، بينما التزم دوركايم بقواعد المنهج فجاءت صياغته أكثر واقعية ، إلا أن موقف كل من باريتو ودور كايم حول دور الفاعل — فى رأى بارسونز — يدل على أن الفاعل لا يختلف كثيراً عن العالم ، بينما حظيت التفرقة بين موقف العالم والفاعل (الفرد أو الجماعة) ، بقسط وافر من تحليل فيبر .

وقد جمع بارسونز بين الجوانب الايجابية فى آراء هؤلاء ، وأضاف إليها أفكار مستقاة من فلسفة كانت حول دينامية المعرفة عند التفسير الموضوعى للظواهر الاجتماعية ، وفى مقدمتها الفعل الاجتماعى . ذلك لأن العنصر الدينامى يتلاءم وطبيعة العلاقة بين الذات والموضوع ، أو الذات والآخر ، وقد تجسد ذلك فى مؤلفاته الحديثة بالاشتراك مع شوتز ١٩٧٧[١] . ومن أمثلة التحليل الدينامى للفعل خلوا من الانطباع السائد عند الاقتصاديين ، الكشف عن دور المعرفة العلمية فى ميدان الخدمة الطبية ، حيث يطبق مفهومه عن متغيرات النمط فى هذا الصدد . فيذهب إلى القول بأن شهرة الطبيب تعتمد فى المقام الأول على الالمام بأسرار المرض وخفاياه ، ويقترن ذلك من جانب آخر بمدى ما يحرزه من نجاح فى الميدان العملى (ممارسة العلاج ، ونجاعة التشخيص ، وفاعلية الدواء ، أو جدوى العمليات الجراحية) — مع المزيد من تحصيل كل ما ابتكرأو استحدث فى المجال وتدخل الجامعات طرفاً فى هذا الشأن ، بما تشتمل عليه من معاهد وفروع علمية وسياسات نظرية وبرامج تطبيقية وتشكل أبعاد هامة فى المنظومة الطبية .

ومن الجانب الثالث تقوم مدارس كالمدارس العملية (كمعاهد التمريض) ، ومؤسسات علاجية تتبع الجامعات (مثل المستشفيات) ، ومراكز للتدريب والتلمذة الصناعية (مثل المراكز المتخصصة فى تشغيل المعامل الطبية ، وصناعة وصيانة وإدارة الأجهزة والمعدات) . وعلى حين يبقى دور الطبيب ، محور شبكة العلاقات ، وأساس بناء الفعل فى هذا الميدان ، فإن الأمر يقتضى وجود أدوار أخرى متجانسة نوعاً ما مع هذا الدور الأساسى مثل الممرض ، ومهندس الأجهزة الطبية ، وأخصائى المعمل ، وكلها أشكال متباينه للفعل ، ولكنها تحقق غالباً غايات واحدة . ويمكن

(١) Parsons T. ,op-cit; PP. 1353-57.

القول بأن كل منها يمثل وحدة للفعل Unit act وتتضافر هذه الوحدات معاً وبشكل متكامل لتقديم الصورة العامة للفعل الاجتماعى ، الذى يشتمل على مقومات كثيرة ، وفى مقدمتها تلك الأبعاد التى حددها بارسونز على سبيل الحصر (الفاعل ، الغاية ، الموقف ، التوجيهات) .

ولايتوقف تحليل بارسونز عند هذا الحد ، فإذا كانت هناك معاهد أكاديمية وأخرى تمارس دوراً تطبيقياً فى تكامل الوظيفية الطبية ، فإن الكليات التى تمثل نظماً علمية خالصة (كالآداب والعلوم) تخدم بطريق غير مباشر الوظيفة الأكاديمية لمجموع التخصصات المشار إليها ، فكثير من برامجها يشتمل على مبادىء وقواعد تشكل المناهج التربوية فضلاً عن الأدوار المكملة الأخرى وهكذا يلتقى الجانب المعرفى بمعناه الخالص مع السلوك الواقعى فى الحياة اليومية على نحو أكثر تفصيلاً وأشد تعقيداً ، تظهر من خلاله الصلة الوثيقة بين الجامعة والنسق الاجتماعى ككل ، ويكون البعد المعرفى قاسماً مشتركاً بينهما ومضموناً واسعاً يجسد كل المبادىء والنظريات ، كما يحتوى على مجمل الممارسات الواقعية ونماذج الأداء اليومى المباشر .

رابعاً : دور الأفكار فى نظرية الفعل :

لا تنفصل الأفكار فى محتواها العام عن المقولة المعرفية ، إلا أن طبيعة التحليل هنا تأخذ اتجاهاً آخر ، وهذا هو السبب فى معالجة القضية فى بند متميز نوعاً ما . ذلك أن بارسونز متأثراً بماكس فيبر ومناهضاً للايديولوجيا المادية التاريخية ، ذهب إلى أن الاتجاه الطوعى لايمكن أن يستند للهيجلية أو الماركسية أو سوسيولوجيا المعرفة بالرغم من وجود نقاط اتفاق بينه وبين هيجل وماركس وكارل مانهايم ، لأن هذه الاتجاهات لاتتفق فى رأيه مع الموقف الاجتماعى الراهن . فإذا أضفنا إلى ذلك البعد الايديولوجى الواضح عند بارسونز حيال الفلسفات النقدية ، ورفضه للماركسية اللينينيه والتى اهتمت بالجوانب الطوعية فى الفعل إلى حد ما ، تبين لنا إلى أى مدى جاء تركيزه على دور الأفكار ، بما يمكن اعتبارها بناء أساسياً فى مشروع نظرى يقف دائماً فى مواجهة مباشرة ضد فلسفة الصراع . والأفكار عند بارسونز جوهرية فى أية نظرية للفعل ، وتنقسم إلى ثلاثة أقسام هى :

(أ) الأفكار المتصلة بالوجود الواقعى

(ب) الأفكار ذات الطابع المعيارى
(جـ) الأفكار الخيالية .

وترتبط كل من هذه الأفكار بالقيم البشرية ، وبالتجربة ، كما تشتمل على مقاييس للسلوك وأنساق مختلفة للتوجيه الاجتماعى والثقافى للفاعل . أما عن النوع الأول من الأفكار فإنها مركب من الظواهر الواقعية ومناهج البحث التجريبى ، وكيفية تطبيقها ومعايير الحكم على مدى صدقها وثباتها . بجانب الأفكار غير الامبيريقية والتى تتم دراستها فى ضوء مناهج ملائمة لطبيعتها .(١) وهذا النموذج من الأفكار يرتبط بمخطط بارسونز حول الوسائل والغايات فى ضوء المبادىء الآتية ، الكفاءة فى الأداء أو مايسميه بميكانيزم الانجاز ، والملائمة مع الموقف الذى يواجه الفاعل ، والاختيار من بين البدائل ، وذلك عن طريق معرفة الفاعل بالآثار والنتائج المحتملة .

على أن فشل الفاعل فى تحصيل القدر الملائم من المعارف العلمية والاجتماعية والثقافية ، يجعله غير قادر على أداء السلوك المتوافق فى مجال هذا النموذج .(٢) ولايتوقف الأمر عند هذا الحد ، بل أن الضعف قد يكمن فى ذات النظرية العلمية وفى مدى ملاءمتها للواقع الاجتماعى ، على نحو ما تكشف من نضوب الأفكار النفعية فى القرنين الثامن والتاسع عشر ، والذى بات واضحاً فى التباين الشديد بين مايجرى فى الميدان الاقتصادى وواقع الحياة اليومية وماتزخر به من مشكلات . كما يعتبر بارسونز التحليل الماركسى بناءً فكرياً أيديولوجياً ، ينقصه عنصر التكامل الضرورى بين الاقتصادى والاجتماعى ، وينفى عن الماركسيه الصفة المنهجية فى التحليل ، لأنها أغفلت التباين الشديد بين نماذج الفعل فى المجتمعات ، لاسيما تدخل النظم الاجتماعية فى تشكيل السلوك الاقتصادى فى المجتمعات البسيطة (البدائية) ، والفوارق الثقافية بين المجتمعات المعاصرة .

ومن جانب آخر تجاهلت البعد الفكرى فى « التكنولوجيا » فى مقابل التركيز على المقومات المادية والفنية . وقد وقع لوسيان ليفى بريل Levey Bruhl فى خطأ مناظر ، عندما أقام تفسيره للعقلية البدائية على صورة لا منطقية ، ولم يفطن لتباين

---

(١) Parsons T., Bales and shils, workinq paper in thetheory of action, new york, 1953, PP. 31-62.
(٢) Gouldner, op-cit, PP. 185-89.

أطر الدلالة الثقافية فى مثل هذه المجتمعات ، واختلافها عن المجتمعات الأخرى ، وهو اختلاف ما كان ينبغى أن يرده بريل أبداً للأفكار غير العلمية والسلوك غير العقلانى ، طالما أن لهذه المجتمعات حدودها التصورية الخاصة ، والتى لا تقل بحال — ومن الناحية السوسيولوجية — عما يقع فى المجتمعات الصناعية المركبة . فإذا ماقورن ذلك التفسير بواقعية مالينوفسكى ، وتحليله الدقيق للميكانيزمات التى تتحكم فى بناء الصور الذهنية والأفكار ، يمكن القول بأن الصلة بين الفكر والوجود ، أو الفعل والمبادىء التى يخضع لها ، أشد قوة فى هذا الشكل من المجتمعات مقارنة بغيرها .(١)

أما الأفكار ذات النموذج المعيارى ، فهى تشير للمستويات والمبادىء والقواعد التى تعين السلوك فى ضوء المعايير norms والقيم Values كما يقرها التراث الاجتماعى وأشكال النظم .

وأخيراً فإن الأفكار الخيالية وتضم التصورات المتعلقة بالوجود المستقبلى والنموذجى والمثالى ، ولا تتصل ببرنامج محدد للفعل ، ولكنها تعبر عن عواطف واتجاهات تتجاوز حدود الأداء الايجابى والفعال ، وهى أقل أهمية .

تعقيب :—

يختلف الاطار المرجعى للفعل على النحو المشار إليه سلفاً ، عن انساق الفعل على النحو الذى يأتى فى الفصل الثالث . وذلك لأن هذا الاطار مشروع تصورى قدمه بارسونز فى مرحلة معينة من تطور النظرية ، ثم تبلورت الصياغة أخيراً فى الانساق . وهذا النموذج العام يشتمل على وحدات السلوك ، وهى من طبيعة امبيريقية ومشخصة وجزئية ، على اعتبار أن كل فعل فى أى مجال من مجالات الحياة يتكون من تلك الوحدات الصغرى . غير أن بارسونز وهو بصدد البحث عن إطار نظرى ملائم لبناء الأفعال البشرية ، واستعراض الاسهامات الأخرى فى تراث علم الاجتماع ، وصولاً لموقفه الطوعى ، لم يهتم إلا بالأبعاد الكبرى والقضايا الكلية ، دون أن يعير المشكلات الجزئية إلا قدراً محدوداً من تفكيره ، وفى إثارته للمشكلات

(١) Parsons T. and others, Essays in socioloqical theory, free prss, paper back. 1954, PP. 21-52,

الفلسفية الكبرى ، ما ينهض دليلاً على ذلك . بيد أن القضايا التى تناولها هويز لا تمثل حقيقة سوسيولوجية ، بقدر ما هى تصور مجرد ومتخيل لحالة من الفوضى النظامية ، تسويغاً لاتجاهه المتحيز معرفيا حيال الحكم المطلق والنظرة التشاؤمية للسلوك البشرى . ومهما يكن من المبررات التى قدمها بارسونز وهو بصدد طرح أفكاره حول النظام الاجتماعى ، ماكان ينبغى إقحام مثل تلك الآراء . ولقد كان هذا الموقف محل انتقاد شديد له من قبل معاصريه ، إلا أن التطور اللاحق والمتجسد فى أفكاره عن أنساق الفعل ، يعتبر إسهاماً فى نظرية الفعل من المنظور السوسيولوجى . خاصة وأن التقسيم الذى يقدمه فى هذا الشأن يتفق مع الآراء الشائعة بين علماء الاجتماع والانثروبولوجيا والنفس إلى حد معين .

* * *

الفصل الثالث
انساق الفعل

- مدخل
- أولا : نسق الشخصية
- ثانياً : النسق الثقاف
- مناقشة وتعقيب .

الفصل الثالث
انساق الفعل

مدخـــل :

بدأ بارسونز منذ عام ١٩٥١ يعيد صياغة أفكاره فى ضوء تصوره الجديد لانساق الفعل الكبرى وهى : النسق الاجتماعى ، النسق الثقافى ، ثم نسق الشخصية على اعتبار أن كل منها يمنح السلوك البشرى طابعاً خاصاً يمكن تمييزه على المستوى التحليلي أو النظرى وان بقيت المبادىء والقواعد التى يعتمد عليها السلوك مركب يصعب الفصل بين عناصره من الناحية العملية والتى تنتمى إلى هذه الانساق جميعاً . لأن الفعل البشرى لا يقبل بالتجزئة إلا من الوجهة النظرية فحسب . ولما كان موقف بارسونز من النسق الاجتماعى ، ينطوى على تفاصيل كثيرة ، كما يستأثر بالمزيد من اهتمامه ، فسوف أعالج فى هذا الفصل نسقى الثقافة والشخصية ، بينما أتناول فى الفصول الباقية قضية النسق الاجتماعى ، بما يتلاءم ودلالتها النسبية فى التفسير المعاصر للنظرية السوسيولوجية .

أما عن الشخصية ، فقد حظى هذا الموضوع بجل اهتمام علماء النفس ، وجانب من الدراسات الأنثروبولوجية والسوسيولوجية بل والسياسية والتاريخية ، بيد أن تصور بارسونز للشخصية من المنظور النسقى ، وان جاء شاملاً لكثير من الأفكار التى عالجها علماء النفس ، يختلف عن غيره فى بعض الأسس المنهجية والموضوعية . فيلاحظ أولاً أن الفروق الفردية وهى متغير هام فى دراسة الشخصية عند علماء النفس ، ليست ذات شأن فى تحليل بارسونز إذا ما قورنت ببحثه عن مقومات وأبعاد التكامل والترابط بين مكوناتها ، وانعكاسات ذلك على الأداء والانجاز الاجتماعى . ولهذا فإنه مع وجود أبعاد متعددة ومتباينة فى تحليل الشخصية ، يركز

بارسونز على جوانب مميزة من الشخصية وفى مقدمتها ما يسميه « استعداد الحاجات » وظاهرة الاستدماج ، كما يهتم بالخلق القومى وبالنماذج المجتمعية للشخصية ، ومن أجل ذلك فإن الدراسة النسقية تتبلور . ثانياً فى دائرة العلاقة بين الذوات (الفاعلين الأفراد) والجماعات ، وفى سياق التبادل الضرورى بين المضمون الثقافى والمعنى الاجتماعى للعلاقات والروابط داخل المجتمع . أى أن التحليل ينصرف أساساً لدراسة العلاقات بين الانساق الثلاثة .

ومن جانب ثالث يتعرض بارسونز لمستويات النمو النفسى الاجتماعى للشخص ، ويرى بأن النسق الاجتماعى هو الناتج النهائي للشخصيات السالكة والمتفاعلة على نحو معين ، وأن التبادل الضرورى بين الفاعلين ، محور تكوين وصياغة عملية التفاعل الاجتماعى ، وهى احدى المقومات الهامة للنسق الاجتماعى من المنظور التحليلى . هذا بالاضافة إلى ارتباط تفسيره للشخصية كنسق بكل من متغيرات النمط الخمسة ، وبالميكانزمات الأخرى .

أما بالنسبة للنسق الثقافى : فيكاد أن يصبح المفهوم الأنثربولوجي للثقافة بأبعاده ومقواته الأساسية عند الرواد والعلماء المشهورين أمثال مالينوفسكي ولينتون وروث بندكت ، هو المنطلق الهام نحو تعيين حدود هذا النسق . ولهذا نجد أن الخصائص العامة للنماذج الثقافية لا سيما الرمزية منها مقررة في تحليل بارسونز ، وليس أدل على ذلك من تكريس الجانب الأكبر من عمله في هذا الصدد ، نحو أشكال وصور التعبير الرمزي ، بل أنه يعتبر الثقافة نسق رمزي بالدرجة الأولى ، وأن الشخصية نسق دافعي في المحل الأول ، ثم عاد فأضاف إلى البعد الدافعي الجانب السلوكي المميز أيضاً للشخصية .

أولاً : نسق الشخصية :

إن تكوين « الانا » Ego عند بارسونز يختلف كثيراً عنه عند فرويد ، لأن هذا التكوين لابد أن يحقق توافقاً مع الآخر Alter كمصدر جوهرى لبناء الشخصية ، وتصبح عملية التفاعل الاجتماعى ضرورية لتحقيق تلك الوحدة الهامة التى يسميها باستعداد الحاجات ، بالاضافة إلى عملية الاستدماج ، وهى فى مرتبة تالية من استعداد الحاجات . ذلك أن بارسونز يعتبر الشخصية نسق دافعى يتشكل

من البنود والعناصر التى تحفز الشخص لأداء معين فى موقف ما . ويشير استعداد الحاجات كما يراه بارسونز إلى كل أداء يرتبط بالاشباع أو يحقق جزاءً (إيجابياً كان أم سلبياً) ، ويعتمد الأداء هنا على الجوانب الوسيلية ، أى يهدف إلى تحقيق غاية أو عدة غايات ، عن طريق وسيلة ما ، وإن كان ذلك لا يحول دون قيام الصور التعبيرية كأهداف للنشاط البشرى . وأى ارتباط ايجابى أو سلبى بين الأداء والجزاء ، يمثل احدى الواجهات الهامة فى تكوين استعداد الحاجات ، وتدخل فى هذا السياق كل أشكال اعادة البناء التى تتم داخل تصور وعقل الفاعل ، بما فى ذلك ميكانيزمات الدفاع والكبت والاحباط والاستبدال وغيرها من النماذج التى تعبر عن التكيف السوى أو عدم التوافق .

ومن هنا فإن استعداد الحاجات بناء مزودج يشتمل على الكثير من صور التوافق والتوتر ، وعلى بدائل متفاوتة الدرجة من هذه الصور[1] . وأشير إلى أن هناك ارتباط بين تصور بارسونز لاستعداد الحاجات ، وبين موقف علماء النفس من كل من الدوافع Drives والحوافز incentives ، بيد أن بارسونزيريد بالمصطلح شيئاً آخر أوسع نطاقاً وأكثر اتصالاً بالحدود الاجتماعية والثقافية . فهو منظور تنظيمى يعمل داخل الشخص ، ويضم طائفة من الدوافع والحاجات والخصائص ذات الصلة بالجانب المعرفى كما قدمناه من قبل ، وبالموجهات القيمية ، ولهذا فقد أطلق عليه بارسونز فى أكثر من موضع « نسق استعداد الحاجات » بسبب خاصيتى الشمول والتكامل المفترض وجودهما معاً ، وإذا كان مفهوم الدافع فى علم النفس يتصل بالطاقة Energy اللازمة لأداء النشاط ويتعلق أكثر ما يكون بالانسان ككائن عضوى ، فإن استعداد الحاجات يشتمل على رموز ثقافية واجتماعية تتجاوز الاشباع المباشر الذى يكون غالباً هدف الدافع . وأكثر من ذلك ، أن هذا الاستعداد يعنى الميل إلى التصرف فى ضوء الوسائل والأساليب المتاحة والتى ترتبط بالموضوعات والمواقف وحدود الاختيار فى السلوك ، مع وجود إطار للتوقعات المحتملة ونتائجها .

أما عن كيفية عمل هذا النسق الفرعى ودوره فى تكوين الشخصية ، فإن بارسونز يشير إلى مشكلة الخوف والقلق والتردد التى تواجه الشخص فى مختلف

---

(١) Parsons and shils, Toward General theory of action, op-cit; PP. 114-20.

مراحل نموه ، ويكون مصدر هذا الخوف ما يتوقعه الفاعل من حرمان أو احباط فى كثير من المواقف . ولهذا فإن الشخص يسعى دائماً للحصول على أكبر قدر من هذه الاستعدادات بطريقة منظمة تمكنه من الاشباع الوجدانى . وللاشباع مستويات ومراحل ، إلا أن الشخص يهدف دائماً إلى بلوغ الحد الأمثل أو النمطى للاشباع . وهو أمر محل اختلاف ، بالنظر إلى حدود القدرة وشروط المواقف ، غير أن هذا النمط الشائع مقرر مجتمعياً ونظامياً . وتنشط ميول الحاجة فى المواقف الأكثر ملاءمة لتحقيق الأهداف ، وابان الخطر أو الخوف والشك الذى يساور الانسان أحياناً . وليست صور العدوان والانسحاب والانتظار والترقب ، سوى مظاهر تعبر عن تلك الميول[1] .

وتدخل متغيرات النمط فى المنظومة من حيث أنها قوالب لتصنيف استعداد الحاجات من خلال توقعات الدور وميكانيزم الاحلال **Substitution** وتكتسب بذلك صفتى **المرونة والتنوع** ، بما يتفق وظروف الموقف السلوكى . ومن بين ميول الحاجة التى يذكرها بارسونز ، الميل إلى « التقدير » **Esteem** والقبول **Approval** والاستحسان ، والتكيف مع النمط الشائع وغيرها من الميول الأخرى ، وهى تتفوق — فى رأى بارسونز على الحاجات الاقتصادية بالنسبة لبناء الشخصية . والعلاقة بين ميول الحاجة ومتغيرات النمط ، أحد الملامح الأساسية فى تصور هذا النسق وصلته بالانساق الأخرى . فإذا تناولنا متغير النمط « الوجدانية » فى مقابل الحياد الوجدانى ، نجد أن الاختيار من قبل الشخص لحاجة معينة دون الأخرى ، إنما يعبر عن ميل محدد ، قد يتصل بالاشباع الوجدانى والعاطفى ، ويتعلق بالمشاعر الأساسية كالحب والبغض والعداوة ، كما قد يكون الميل مرتبطاً بالتوجيه العقلانى المنطقى ، وبالوسائل المقررة لبلوغ الهدف مجرداً من الانطباعات . ويكمن الفرق بين النوعين فى اتصال الحياد الوجدانى أكثر ما يكون بالقيود المفروضة على الشخص .

ومتغير آخر مثل « التوجيه الذاتى فى مقابل التوجيه الجمعى » يتحول الميل وفقاً لتعدد نماذج الشخصية ، إما إلى الانبساط والتعلق بالآخرين ، أو التمركز حول الذات كما الحال فى السلوك المنطوى أو الانسحاب والعزلة ، وتتصل هذه الميول والاستعدادات بالأزواج الأخرى من متغيرات النمط . الأمر الذى يعنى أن هذه

(١) Parsons T. The social system, op-cit ,P. 251.

المتغيرات ليست قاصرة على تصنيف الجماعات والمجتمعات ، بل أيضاً لتبويب أشكال ونماذج السلوك والدور الاجتماعى ، وسمات الشخصية . وما يلاحظ على تصور بارسونز لاستعداد الحاجات ، أنه جاء محملاً بأبعاد واسعة جداً ، ويصعب التمييز بينها ، على ما يذهب ماكس بلاك ، ومثال ذلك الحاجة إلى الحب ، حيث تتباين صورها وترتبط بحاجات أخرى متباينة كالجمال والتذوق ، ولا ترتبط بالأداء والجزاء دافعياً فى كثير من الأحيان ، ولا بمخطط بارسونز حول ميكانيزم الدفاع Defense mechanisms أو التكيف والتوافق adaptation mechanisms ، أو الشكل الوسيط بينهما والذى يطلق عليه ميكانيزمات اختبار الواقع Reality-testing mechanisms إلا فى نطاق ضيق(١) .

أما عن ظاهرة الاستدماج internalization فهى تشتمل على مبادىء من عملية التقمص identification ، ولكنها تفترق عنها فى كثير من المقومات . ذلك أن الاستدماج يضم بنود ثقافية هامة ويعبر فى جانب منه عن تناول دور الآخرين taking the role of others وهو ليس مقابلاً للاندماج ، بل يسهم فى صياغة عملية التفاعل بين (الذات والآخر) على نحو أكثر تفصيلاً وأشد تعقيداً . فالذات تعيش فى وسط ثقافى مميز ، وتتأثر بالذوات الأخرى على صور ما(٢) . ولعملية التفاعل مستويات أقلها ما يقع فى دائرة العلاقة بين الأم ورضيعها ، وأكثرهم ما يتم فى نطاق المجتمع . وأثناء مراحل النمو يكتسب الشخص كثيراً من المعايير والقيم عن طريق الوسط ، غير أن الاكتساب مرحلة فى الطريق الى الاستدماج . وذلك لأن هذا الأخير يعنى تمثل الموضوع الاجتماعى والثقافى سواء كان قيمة أو اتجاه أو استعداد حاجة بحيث يصبح جزء لا ينفصل عن الشخص ، ويظهر فى كثير من مواقفه(٣) . وكما يقول بارسونز ، فإن الاستدماج نمط للتفاعل المتبادل reciprocal interaction pattern بين الذات والآخر ، بحيث لا ينفصل أى من الطرفين المتفاعلين عن الآخر فى سياق هذا النمط .

---

(١) Black MAX, The social theories of Talcott parsons, prentice-Hall, london, 1960, PP.156-160.
(٢) Parsons T.social struture and personality, op-cit, PP. 82-90.
(٣) Parsons T. and Bales, Family, socialization and interaction process, op-cit, P. 55.

وإذا كانت الشخصية هى موطن استدماج الموضوعات والبنود الثقافية الواردة عليها بسبب ارتباطها بالآخرين ، فإن الصلة بين النسق الثقافى ونسق الشخصية من الضرورة بمكان ، ولأن تلك العملية تنتج على مراحل ، وتبعاً لمستويات المرونة والقابلية للتشكل فى كل مرحلة ، فإن الاستدماج لا يقتصر على الموضوعات والعناصر التى تنتمى للزمن الحاضر ، بل يمتد للماضى أيضاً ، كما يتجاوز حدود المرئى والمعاش ، إلى نطاق المسموع والمنقول والمتخيل ، فيستدمج الشخص الأشياء والنماذج عن طريق القراءة والاطلاع وكل مصادر المعلومات ، وتلعب مرحلة النضج دوراً أساسياً فى هذا الصدد . فهناك من الموضوعات المستدمجة ما يقتضى قدراً أكبر من التطويع ، كما قد تصبح هذه الموضوعات على درجة من التركيب الشديد ، مما يلزم معها نمو القدرات المعرفية المتعددة . ولهذا فإنه كلما تقدم النمو النفسى الاجتماعى للطفل كلما كانت قدرته على الاستدماج أكبر(١) .

ويعتقد بارسونز أنه حقق نوعاً من التوازن بين آراء فرويد ودوركايم فى صياغته لظاهرة الاستدماج ، كما نجح فى تفسير العلاقة بين نظرية التحليل النفسى ومجال اهتمامها الشخصية ، وبين النظرية الاجتماعية ومحورها النسق الاجتماعى(٢) . وانه قدم اطاراً يتعدى ما هو مقرر لدى علماء النفس حول نظرية التعلم وتكوين العادات الفردية ، لأن الاستدماج يجعل من السمات والنماذج المكتسبة جزءً ملازماً لسلوك الشخص والأداء المتطابق مع هذه النماذج . بالاضافة إلى الحساسية المرهفة من جانب الفاعل حيال كل ما هو مستدمج ، ثم أن الاستدماج فوق ما تقدم ، عملية اجتماعية ثقافية فى المقام الأول .

ولقد تعرض بارسونز ، وهو بصدد تناوله لنسق الشخصية ، إلى الطابع القومى أو الخلق العام للمجتمع كما يعبر عنه النموذج أو الطراز المميز . ففى مؤلفه البناء الاجتماعى والشخصية ، كانت الرابطة بين الخلق والمجتمع من أبرز الموضوعات ، حيث ناقش باسهاب التحولات التى تعرض لها الخلق القومى الأمريكى خلال فترات متعاقبة ، وقرر فى هذا الشأن أن جوانب التغير فى بنيان هذا الخلق

---

(١) Johson Harry, socioloy, Asystematic introduction, Routledge and kegan paul, london, 1968, P.122.

(٢) Parsons, social structure and personality, op-cit, P. 20.

ترتبط أساساً بالمعايير التى صاحبت التصنيع ونمو البيروقراطية والتحضر ، وأن الأسس الجوهرية لهذا الخلق لم تتغير كثيراً خلال القرن العشرين . ذلك لأن القضية كما يراها تتصل بتفاصيل السلوك والأجزاء ، بينما تظل القيم الأصلية والمصالح الراسخة فى دائرة أقل تغيراً وأكثر استقرار .

والجدير بالاهتمام أن بارسونز يؤكد فى هذا الموقف رأيه حيال قضية التغير الاجتماعى ، وهو على ما نرى محافظ إلى حد كبير[1] . كما ناقش بارسونز أيضاً النمو الاجتماعى والسيكولوجى للشخصية من المنظور النسقى ، وتتبلور أبعاد ذلك المنظور فى الكشف عن المراحل المميزة للشخصية القاعدية عند الطفل فى السنوات الخمس الأولى من العمر بكل أبعادها ، والأزمات التى يتعرض لها الصغير ، وتتجلى فى هذا الصدد العلاقة الوثيقة بين تفسير فرويد وبارسونز ، حيث يظل الاختلاف بينهما قائماً فى الشكل وصياغة المصطلحات ، دون المضمون والمعنى ، ويتجلى ذلك فى النظر إلى الشخصية على أنها ليست ظاهرة لاحقة لبناء المجتمع على حد تعبير بارسونز ، وإنما تشكل نسقاً متميزاً له سماته وخواصه ، ولا يخل ذلك بمبدأ التداخل مع الانساق الأخرى ، وأن تكوين ميول الحاجات أو الاستعدادات ، وأيضاً عملية الاستدماج ، تتحققان على نحو مفصل خلال دائرة التنشئة الاجتماعية ، التى تشتمل على عمليات متعددة وأنماط للتفاعل وبناء الدور .

ويركز بارسونز فى تناوله للشخصية القاعدية على نموذجين لبناء الدور، أحدهما ما يطلق عليه الدور التعبيرى ، والآخر الدور الوسيلى . أما عن الدور التعبيرى فيرتبط أساساً بالعوامل والمؤثرات الوجدانية وبالعواطف والانفعالات ، بينما يضم الدور الوسيلى كل الممارسات وأنماط السلوك التى تظهر فيها العلاقة المنطقية والمباشرة بين الوسيلة والغاية أو تتصل بالممارسات المنظمة والتى يكون ارتباطها بالبعد المعرفى والعقلانى واضحاً . وعلى هذا الأساس فإن الأدوار التى يقوم بها الأب — فى جماعة الأسرة — أكثر ما تكون اتصالاً بالجانب الوسيلي الذى يراه بارسونز مقرراً فى توفير مصادر العيش أو أسباب ووسائل الحياة ، كما يتأتى فى العمل وتحقيق المطالب والحاجات الضرورية لحياة الأسرة . على حين أن النشاط الذى تمارسه الأم يعتمد على

(١) Parsons and others, family socializtion and interaction process, op-cit, PP. 158-160.

الصور التعبيرية ، وهى تشبع حاجات تتباين نوعاً ما عن الاشباع الوسيلى . غير أن التمييز بين نوعى الدور ليس مطلقاً بل هو أمر نسبى ، وأن التناوب فى أداء الدور ظاهرة مستمرة خلال مراحل النمو المتعددة ، كما أن الأطفال يستدمجون هذه الأدوار على نفس القدر من النسبية ، ويبدو ذلك فى التفرقة بين سلوك الذكر والأنثى ، وهى تفرقة قائمة فى تصور الصغار منذ مراحل مبكرة من العمر(١) .

ولقد تعرض بارسونز بشكل مفصل لمختلف الميكانيزمات والعمليات السيكولوجية التى أثارها علماء النفس ، ولكنه بين مدى ارتباطها الشديد بكل من شبكات الدور الاجتماعى ومركبات الأدوار منذ ميلاد الطفل وخلال مرحلة المراهقة ثم النضج وذلك فى ضوء المعانى الخاصة لهذه المفاهيم . ومنها يظهر بجلاء الارتباط الشديد بين العمليات النفسية بأبعادها الوجدانية والعقلية والمعرفية وبين الجوانب السوسيوثقافية ، وذلك بتجسيد الفوارق الأساسية بين بناء شخصية الذكر والأنثى ، لا سيما على مستوى الأداء الوسيلى والتعبيرى ، مع بيان صلة هذه الفوارق بمكانة الشخص ومركزه فى المجتمع ، ومقدار السلطة وحدودها زيادة ونقصاً ، على نحو ما نراه فى الشكل الآتى :

شكل رقم (١)
نموذج للتفرقة بين الآداء الوسيلى والتعبيرى(٢)

+ التفوق	التفوق الوسيلى (الأب ــ والزوج)	التفوق التعبيرى (الأم ــ الزوجة)
السلطة - النقص	الضعف الوسيلى (الولد ــ الأخ)	الضعف التعبيرى البنت ــ الأخت

(١) Lesser,richard, Growes Theodore, society, personality and development.

(٢) Parsons T. and others, famliy, socialization and interaction process. op-cit, P. 40.

ويشير بارسونز إلى أن هذا التقسيم يشير للأسبقية والأولوية فى بناء الأدوار والخصائص الأكثر شيوعا فى سلوك كل من الذكر والأنثى ، وضرورة وجود الفوارق فى بناء شخصية الجنسين ، ولزومه لآداء الأدوار على نحو أكثر فعالية ، كما أن التوازن بين نوعى الآداء هام حتى يمكن تحقيق النمو المضطرد فى تكوين الشخصية ، لاسيما فيما يتعلق بالاستقرار فى العلاقات ، وفاعلية الضبط الاجتماعى غير الرسمى . ومرة أخرى يستخدم بارسونز متغيرات النمط فى تحليله لعلاقة الأم بالطفل وانعكاسها على شخصيته ، فيشير إلى أن المكانة الاجتماعية للصغير تكون من النوع الملتصق ascribed فى الطفولة المبكرة على وجه التحديد ، حيث يكون الاعتماد على عطاء الأم وإنجازها ضروريا فى ضوء متغيرات مثل النوعية والعمومية ، والمصلحة الذاتية ، وكلما تقدمت مراحل النمو مع اضطراد العمر ، كان سلوك الوليد البشرى أكثر ميلا نحو الانتشار ، والآداء ، والمصحلة الجمعية . وإجمالا للقول فإن متغيرات النمط ذات التكوين المزدوج والمؤلفة من خمسة أزواج تتحقق على صورة ما خلال مراحل تكوين الشخصية ، وانها لا تعود إلى أسس تكوينيه Constitutional ترتبط بالبناء العضوى للجسم البشرى ، قدر اتصالها بالمؤثرات والعوامل الخارجية الثقافية والاجتماعية .

ومن جانب آخر فإن الميكانيزمات السيكولوجيه لا تنفصل عن تلك العوامل والمؤثرات فى ضوء التفسير النسقى للشخصية . ومن أجل ذلك فإن كثير جدا من القضايا النفسية مثل النرجسية وميكانيزمات التكيف والدفاع ، والعقد النفسية وغيرها من المفاهيم التى ناقشها فرويد بالتفصيل ، ظهرت عند بارسونز على صورة أخرى ، فالنرجسية على سبيل المثال تمثل رابطة قوية ببعض الموضوعات التى يؤثرها الفاعل بجل اهتمامه ، وهى من جانب آخر استعداد أو ميل لحاجة مكبوتة من النوع الشبقى erotic ، ويعود مصدرها إلى قواعد التابو المفروضة من قبل المجتمع على الذات . إن عمليات الضبط الاجتماعى ، ووضوح انساق الثواب والعقاب فى المجتمعات الحديثة قد اكسبت هذا الشكل من الموضوعات الجنسية كما يفهمها فرويد صياغة مجتمعية جديدة ، تعبر عن العواطف القوية لدى البعض نحو الموضوعات والأشياء والأشخاص فى إطار التوجيه المعيارى ككل ، وانساق القيم بصورة خاصة . ومن ذلك تعلق النرجسية بمتغير النمط « الخصوصية » فى مقابل

العمومية ، وان الجنسية المثلية (تعميم خاطىء) ، مصدره القصور الذى يكمن فى التوجيه القيمى لاسيما أثناء مرحلة المراهقة .

ومن ناحية ثالثة قرر بارسونز أن وظيفتى التكامل والتكيف تشكلان أساس الأنا الوسطى أو الأنا الواقعية كأحد الأقسام الهامة فى تكوين الشخصية عند فرويد ، بينما تربط وظيفة تدعيم النمط Pattern maintenance بالأنا الأعلى . وقبل بارسونز مخطط فرويد التصنيفى لبناء الشخصية ، غير أنه أضاف إليه أفكارا أخرى مستمدة من تحليله لكل من متغيرات النمط والملزمات الوظيفية واستعداد الحاجات ثم الاستدماج ، كما كشف النقاب عن الدور الهام لعملية الضبط الاجتماعى فى مواجهة مشكلة الانحراف . وبات تأكيده على العناصر المتكاملة والتكيفية من مقومات الشخصية واضحا فى نظير اهتمام فرويد بالجوانب غير السوية أو المرضية ، وفى الوقت الذى تتعدد الصور وتتنوع البدائل الثقافية أمام الأشخاص للتخلص من مواقف المعاناة والتأزم فى رأى بارسونز ، يذهب فرويد إلى حصر بل وإغلاق دائرة المشكلات الصعبة والمتزاحمة والزج بها فى محيط اللاشعور .

وبالاضافة إلى ما تقدم قام بارسونز بإعادة صياغة قضايا التوازن الاجتماعى وهو بصبدد تناوله لانساق الفعل ، وكذلك مشكلة تدعيم الحدود والتوجيهات القيمية والدافعية بما يتلاءم والتداخل بين الانساق من ناحية ، والتباين من جانب آخر . وعلى سبيل المثال فرق بين الميكانيزمات التى تتحكم فى الشخصية ، وتلك التى تعود للنسق لاجتماعى . فالانساق الاجتماعية لا تكبت repressed ولا تنطبق عليها عمليات مثل الاسقاط projection أو غيرها من المفاهيم بالمدلول الذى يقصده علماء النفس ، غير أن القوى الدافعية والمؤثرات التى تعمل على ظهور مثل هذه العمليات ، تنشىء وتنمو وتتطور داخل المجتمعات وفى سياق الجماعات ؛ ولهذا تختلف نماذجها باختلاف النظم والثقافات . على أن هناك ثلاثة نماذج من الميكانيزمات الشخصية يهتم بها باسونز ، وهى ميكانيزمات التعلم وميكانيزمات التكيف أو التوافق ثم ميكانيزمات الدفاع . ويختص كل منها بطائفة من الحاجات والميول الأساسية اللازمة لنمو الشخصية ، وعلاقات الأشخاص بعضهم ببعض ، والتأزر والتناسق بين الوحدات والمكونات . وإذا كانت مثل هذه العمليات تعبر عن البناء الديناميكى للشخصية ، فإنها تتصل من جانب آخر بنوع ومستوى العلاقة

بين الفرد والمجتمع والثقافة والمجتمع ، أى التبادل الضرورى بين انساق الفعل الثلاث[1] .

ثانيا ــ النسق الثقافى :

مما لاشك فيه أن المفهوم الانثربولوجى للثقافة ، ولا سيما الجوانب الرمزية ، هى الاطار المرجعى لتصور بارسونز للنسق الثقافى كأحد انساق الفعل ، ومن أجل ذلك تتجسد النماذج والأنماط الثقافية فى صور وأشكال الاستجابات ، وتصبح مثل تلك النماذج بيئة للسلوك على حد تعبيره ، وهذا موقف يتفق مع الرأى القائل بأن الثقافة من المنظور الشامل تعبر عن الأفكار والتصورات التى توجد فى أذهان الناس ، وكذلك المعايير التى توجه السلوك الاجتماعى ، وانها شيء مجرد ولكن تكتسب طابعا عمليا عندما تتجسد فى سمات وأنماط تعين النموذج المميز لحياة الجماعة . وعلى الرغم من تأثر بارسونز الملحوظ بآراء مالينوفسكى ، فإنه أكد على المقومات الرمزية والمثالية فى الثقافة إلى الحد الذى ذهب فيه إلى تعريف الثقافة بأنها نسق رمزى ، وهو اتجاه يختلف كثيرا عن الاتجاه الواقعى الذى يعول على التراث الملموس ومن أبرز أنصاره مالينوفسكى[2] .

والواقع أن التراث العلمى الذى يتناول موضوع الثقافة ، ينطوى على مواقف وآراء متشعبة وليس هناك ما يدعو إلى الخوض فى التفاصيل الدقيقة فى هذا المضمار ، أو حتى التعرض لموقف الانثروبولوجيا الثقافية وهى محور الارتكاز فى الولايات المتحدة الأميريكية فذلك ما تزخر به البحوث والدراسات ، لاسيما فى مجال الفلكلور واللغويات والايكولوجيا الثقافية[3] . وما يعنينا أن اهتمام بارسونز بالجوانب المنظمة والمستقرة للثقافة ، دفعه إلى التركيز على فكرة النمط لعلاقتها الوثيقة بالمدخل النسقى من ناحية ، وبالتصور الرمزى من جانب آخر ، ولهذا يناقش بالتفصيل فكرة إتساق النمط ممثلا فى التألف المنطقى وتلاحم البنود والعناصر والأنماط ، ثم امتزاجها

---

(١) Parsons T., The social system; op-cit, P. 203.

(٢) دكتور/ ابو زيد احمد ــ البناء الاجتماعى ، الجزء الاول ، الطبعة الثانية ، ١٩٦٦ الفصل الرابع .

(٣) Kilkhon, clyde, The study of culture, 1951, chapter,"5".

سويا وقدرتها على توجيه الأفعال فى كثير من مجالات الحياة . وتدل الشواهد المستقاة من أعمال بارسونز المبكرة والمتأخرة ، على أن النسق الثقافى يتألف من ثلاثة أبعاد ، تؤكد جميعها المحتوى الرمزى فى أعمق صوره وهى :

١ ـــ انساق الأفكار والمعتقدات Systems of ideas and beliefs

٢ ـــ انساق الرموز التعبيرية Systems of expressive symbols

٣ ـــ انساق التوجيه القيمى Systems of value-orientations

وهى وحدات (أو انساق فرعية) تحقق تكاملا على مستوى الكل الثقافى الذى يعتبر أحد الانساق العامة للفعل .

أما عن انساق الأفكار المعتقدات ، فهى تتميز بأسبقية الجوانب المعرفية على ماعداها ، وتعبر عن الآراء والاتجاهات ، والتصورات الذهنية العقلية والعقائدية ، حول أمور الكون أو الطبيعة وشئون الحياة الاجتماعية . وتفسر جانبا من المشكلات التى تواجه الانسان ، وكيفية استجابته لها ، ودرجة الملاءمة وتنقسم بدورها إلى قسمين :

(أ) المعتقدات المعرفية : وتتركز فى النظريات العلمية والفلسفية والآراء السياسية والاجتماعية وهى وحدات (أو انساق صغرى) من المعرفة المغلقة ، بمعنى أنها قاصرة فى تكوينها على الاطار التخصصى الضيق ، بكل مصطلحاته وإجراءاته العلمية والمعملية . ولهذا المعتقدات جانبان أحدهما نظرى والآخر امبيريقى .

(ب) الكزمولوجيا : Casmology (أو قضية الوجود)
وهى تشتمل على أفكار وعقائد فلسفية فى المقام الأول ، وتتصل بالمثل أو النماذج الفكرية التى تكسب العصر طابعه الثقافى المميز . كما هو الحال فى الفلسفة اليونانية ودورها فى تشكيل نظام (المدن المستقلة) polis ، والصور الشعرية عند هيمروس وهزيود ، وفى تطور المسيحية على مر العصور ، ويقرر بارسونز فى هذا الصدد أن عالم ما فوق الطبيعة له دلالته الهامة فى إعادة التكيف والتوازن فى بعض مواقف الحياة التى يعتريها الاضطراب ، أو تتعرض لاختلال التنظيم ، وهذا ما يتأتى فى الدور الذى مارسته الكالفنية فى تخليص المسيحية الأولى من بعض الشوائب بإقامة مملكة الله على الأرض ، بدلا من

ارتباط المتعبد بمواقف لم يعد يكترث بها مثل « صكوك الغفران » . وحين سعت الكالفنية إلى ذلك ، جعلت من « الخلاص » أو كفارة الذنب ، قضية ترتبط بسلوك الفاعل على الأرض ، وحيال الآخرين من بنى جنسه ، ويعتبر ذلك تحول فى الهدف ، أو التباعد بغاية السلوك عن الالتواء والانحراف[1] . وفى ذلك تسويغ لأنماط من الفعل تعتمد على طبيعة مايعتقد فيه ، بما يساير الاداء الواقعى والاحساس بالعواطف المشتركة والنمط الشائع .

وواضح هنا اهتمام بارسونز بالموجودات فوق الطبيعة فى مبحثه عن الكزمولوجيا ، وهى تتصل من حيث محتواها الثقافى بثلاثة مقومات أو عناصر ، وفى مقدمة هذه العناصر **الشعائر** ، وتخدم أهدافا سحرية ودينية ، **والابتهال** Supplication أو التوسل وهى أدعية وعبادات يقوم بها الناسك أو المصلى لتحقيق تطلعاته المستقبلية على وجه الخصوص ، ثم **التأمل** Contemplation وهو حالة عقلية ، تظهر فى تقبل الفاعل لتأثير القوى الخارقة ، وقدرتها غير المحدودة على التحكم فى سلوكه ، مع حكمتها التى تتجاوز نطاق معرفته ، ويرتبط التأمل بالعقائد الغيبية mystical كما هو الحال فى البوذية المبكرة والطاوية Taoism ، وهى تتقر من خلال الرموز كما تعتمد على تشخيص الطبيعة Anthropomorphism ومفهوم الانيمزم والأبعاد السيكولوجية لهذه الظواهر .

فإذا انتقلنا إلى النوع الثانى وهى انساق الرموز التعبيرية نجد أنها تشتمل على تفاصيل كثيرة تتصل باللغة وأشكال الفن ونماذجه ، وتتميز بأسبقية الجوانب العاطفية والوجدانية على غيرها . ومصدر الرموز الثقافية التعلم والاكتساب ، وذلك لأن بارسونز لم يكترث بالأبعاد المادية للثقافة ، واعتبرها نسقا فكريا لا يمكن رده إلى المورثات . وعلى الرغم من أهمية الاستعدادات التى تعود للتكوين البيولوجى وصلتها بوظيفة التعلم ، فإن التطور الثقافى — فى رأيه — مستقل عن التطور البيولوجى . وتفسير ذلك أن التفاعل البشرى عند المستوى الرمزى (بما فى ذلك لغة الاشارات والايماءات والحركات ، فضلا عن اللغة المفصلة) إنما يمثل مرحلة مستقلة ومميزه نظريا

---

(١) Parsons T., The social system, op-cit, PP. 375-78.

وعمليا عما حققته الكائنات ما قبل الرمزية (أى الأشكال الراقية من الحيوانات) وان تلك القضية ، أحدثت تقاربا فى مجال العلوم الانسانية التى تدرس السلوك البشرى . فيما بين علم النفس (بالذات عند فرويد) وعلم الاجتماع الذى يبحث فى القضايا المعرفية والمثالية ، وعلم النفس الاجتماعى الذى يركز على التفاعل على المستوى الرمزى (عند كولى . وجورج هربرت ميد وغيرهم) وأيضا بالنظريات الاجتماعية التى تأثرت بالفلسفة البرجماتية . وتصبح الثقافة فى ضوء ذلك التقارب ، وسطا للاتصال الرمزى بين النسق الاجتماعى ونسق الشخصية من خلال اهتمامها بالقضايا الابستمولوجية وعالم الأفكار والتصورات الذهنية(١) .

ولقد تمثل بارسونز رأى ليزلى هوايت Leslie White فى النظر للكلمة على أنها بداية ظهور فكرة الثقافة ، وأن الرموز التعبيرية وذات الدلالة الاتصالية هى الوحدة الأساسية فى بناء النسق الثقافى . كما أنها هى التى مكنت أجدادنا الأوائل من الانتقال من مرحلة أشباه الانسان إلى مرحلة الانسان ، وأصبح السلوك البشرى متميز بالصيغ الرمزية التى لا يشاركه فيها أى نمط آخر من أنماط سلوك الكائنات من مستوى أقل . ولهذا فإن الرموز التعبيرية جزء من التقليد والتراث الثقافى الغزير فى مادته ونوعه وترتبط قدرة الانسان على الترميز وإعطاء الموضوعات والأشياء دلالة معينة ، بالفهم المشترك بين أفراد النوع الانسانى . وهكذا تدخل الصور المعرفية ذات الاتصال الوثيق ببناء الشخصية لتكسب الرموز صياغة أدق ، ويتجلى ذلك على المستوى التجريدى فى إطار قدرة الانسان غير المحدودة على الربط بين الموضوعات ، وتتعدد مستويات الرموز فمنها ما يختص بالاشارة إلى الأشخاص ، ومنها ما يتعلق بالألوان والأذواق ، ومن بينها ما يشير إلى تقنين الحركات هذا بالاضافة إلى مستوى القيم والرغبات(٢) .

ويتفق بارسونز مع البعض فى اعتبار الثقافة كل السلوك الاجتماعى القائم على الرمز . بل إن صلة الرموز تمتد إلى الجوانب الشعورية والوجدانية التى أفصح النقاب

---

(١) Parsons T., (Social System) International Encyclopedia of social sciences, (1968) Vol. 15, PP. 458-73.

(٢) Parsons T., The social system, op-cit, PP. 2-23.

عنها من قبله مالينوفسكى . وفى ضوء تلك الأهمية ، يحدد بارسونز ثلاثة من الوظائف الأساسية أو الهامة للرموز من حيث علاقتها بالفعل وهى :

١ ــ تقوم بتنظيم التفاعل عن طريق وضع المعايير التقديرية والاعجابية التى تقرر صيغ ذلك التفاعل .

٢ ــ تؤدى وظيفة الاتصال بين الأجزاء ، بما يضمن وحدتها وتكاملها على المستويين الشعورى والمعرفى .

٣ ــ تعد الرموز فى حد ذاتها أهدافا مباشرة لاشباع استعداد الحاجات . فاستجابة الأم لصياح الطفل ، إنما تأتى نتيجة لاحساسها بحاجته إليها ، واستعدادها لتلبية مطالبه ، كما هى رمز للتعبير عن الألم الذى يعانيه والمقترن بالصياح(١) .

وهذه الوظائف تجعل من الرموز أدوات هامة فى الاتصال بين الذات والآخر ومظهرا للتعبير عن المشاعر وصور الاشباع والحرمان ، وبذلك تكون وظيفتها مزدوجة التكوين . فهى تصل النسق الاجتماعى بنسق الشخصية عبر أوساط الاتصال والتبادل والتفاهم المشترك .

ولا يقتصر تحليل بارسونز على الحدود الثقافية لبناء الرموز ، بل يمتد إلى الجناح الأكثر اتصالا بالتحليل النفسى أيضا . حيث ناقش دور السمات الجسدية مثل لون الشعر وشكل الجسم فى تكوين الرمز الشبقى والعاطفى على النحو الذى فصله فرويد . ولكنه بين إلى أى مدى يرتبط الرمز بالفنون من حيث أشكالها ونماذجها ، ودرجات الاستجابة لها بالقبول والحب والاستحسان ، والاستهجان والرفض والنبذ ، أو عدم الاكتراث . وكيف أن متغيرات النمط يمكن أن تفسر مثل هذه المواقف ، لاسيما متغيرى (الوجدانية فى مقابل الحياة الوجدانى) ، (والنوعية فى مقابل الانتشار)(٢) . ومن جانب آخر تفسر الرموز جانبا من الأدوار التى يمارسها الأب فى مقابل الأم ، كما تعين سمات وخواص المقدس والتابو وما يتعلق بالمسموحات والممنوعات فى نسق القرابة والانساب . وجمع بارسونز بين موقف دوركايم من الشعار الدينى ودوره فى تحقيق التماسك الاجتماعى ، ورأى مالينوفسكى

(١) Parsons T., the social system, PP. 385-90.
(٢) Ibid P. 391.

فيما يتصل بالشعائر الجنائزية Funeral Cermenials ودورها فى التعبير عن العواطف الأخلاقية للجماعة واستطاع أن يوحد بين الموقفين فى تحليلة لمشكلة الضبط الاجتماعى(١) .

ومن ناحية ثالثة يذهب بارسونز إلى أن الرموز التعبيرية تتشكل فى صيغ مختلفة طبقا للعمليات والميكانيزمات السيكولوجية ، كالكبت والاحلال والاسقاط وتصور المعانى والمؤشرات التى تدل عليها هذه الميكانيزمات بنوعيها السوى والمرضى . ويفهم من تحليل بارسونز ككل اهتمامه الشديد ، ببحث العلاقة بين الرموز الثقافية وكل من نظم القرابة والدين والسحر ، بل وأشكال الفنون الابداعية والتشكيلية ، والظروف السياسية والاقتصادية وغيرها(٢) .

وأخيرا فإن انساق التوجيه القيمى ، تفسر البدائل المتباينة لأنماط الفعل والآثار المترتبة عليها ، وتشتمل على الأحكام العامة والفرعية وما يخلعه عليها الفاعلون (الأفراد والجماعات) من ألوان التقدير وهى أكثر اتصالا بالتراث الاجتماعى .

* *

(١) Ibid, P. 399.
(٢) Ibid PP. 367 - 74.

مناقشة وتعقيب :

من الواضح أن انساق الفعل ليست سوى أطر مرجعية كبرى تحدد طبيعة ونوع الفعل بالنظر إلى السياق النظرى الذى يمكن رده إليه . ويعنى ذلك أن هناك من نماذج السلوك ما يتلاءم مع أى من هذه الأطر أكثر من غيره . وبذلك يصبح التمييز التحليلى بين الانساق ضرورة علمية . وإذا كان الفعل من الناحية الامبيريقية يعتمد على أسس لا تقبل بالفصل بين العلوم السلوكية ، فإن المادة النظرية بكل أبعادها التصورية موضع خلاف بين العلماء ، حتى عند دراسة النسق الواحد ، مثل الشخصية التى يمكن بحثها من منظورات متعددة . ولهذا كان تقسيم بارسونز لانساق الفعل ضرورياً لأهداف التحليل ، وجاء تركيزه على النماذج المستقرة والمنظمة للثقافة متشميا مع أغراض الدراسة النسقية . ولهذا يصف الثقافة بأنها أكثر ارتباطا بوظيفة تدعيم النمط ، كما هى وسط مثالى للتعبير عن وظيفة التكيف . غير أنه عندما صنف الثقافة إلى أنساقها الفرعية خلط بين الأفكار والمعتقدات والكزمولوجيا ، أو لم يفرق بينهما على نحو مؤكد .

وإذا كان تصوره لرمزية الثقافة يتفق مع الآراء المعاصرة فى تعريف الثقافة ، فإنه لم يهمل الأبعاد الأخرى ، ولا سيما تلك التى تتصل بالنظم الاجتماعية ، مثل المعتقدات الدينية والأخلاقية ، وانساق القرابة والزواج . ويمكن القول بأن النظريات العلمية تمثل جانبا من الثقافة ، وانها تنتمى للأفكار ، وتتصل الأفكار بكل من الصور العقلية والذهنية وبعملية التعلم . وهذا يدل على أن مفهوم النسق الثقافى ينطوى على حدود سيكولوجية (عقلية ووجدانية) وأخرى اجتماعية كما تترجم عنها القيم ، هذا بالاضافة إلى العناصر الرمزية جوهر الثقافة عنده .

وبذلك يمتد المضمون إلى كثير من الظواهر التى تعتبر قاسما مشتركا بين انساق الفعل . الأمر الذى يفسره بارسونز من خلال قاعدة تبادل الحدود . فمع التسليم بإمكان التمييز بين انساق الفعل نظريا ، إلا أنه يصعب عمليا تجزءة السلوك ، ويمكن وصف طبيعة النموذج أو شكل الآداء من حيث مدى علاقته الوثيقة بأحد انساق الفعل فى مقابل ارتباط من مستوى أقل بالانساق الأخرى .

بيد أن القول بأن الثقافة تتصل أكثر ما تكون بوظيفة تدعيم النمط (فى مخططه عن الملزمات الوظيفية) وبالتكيف ليس له ما يبرره ، لأنه عاد وقرر بأن نسق الشخصية أكثر اتصالا هو الآخر بوظيفتى التكيف والتكامل . ومع التسليم فرضا بهذه الملزمات ، فإن الوظائف الأربعة يمكن أن تتجسد فى أى نسق من الانساق الكبرى أو الصغرى التى تعرض لها بارسونز ، وليس لأى منها علاقة أكبر بتلك الوظيفة على حساب الأخرى .

وبالرغم من وضوح أبعاد نسق الشخصية ، وبروز دور المعانى الدافعية بشكل مفصل لاسيما أثناء مناقشته لكل من ظاهرتى الاستدماج واستعداد الحاجات ، فإن انطباعه بالتيار السيكولوجى ، بات جليا ، لاسيما عندما تحدث عن ميكانيزمات التكيف والدفاع والكبت . والجدير بالاهتمام أن أعمال بارسونز المتأخرة تفيد تحوله عن مصطلح « نسق الشخصية » الذى استبدل له بالنسق السلوكى ، ويعنى ذلك أنه ضمن تصوره الجديد عناصر ذاتية على علاقة أكبر بالآداء العملى والمواقف المشخصة .

* * *

الفصل الرابع

النسق الاجتماعى

- **مدخل**
- **أولا** : الدور والنسق الاجتماعى
- **ثانيا** : التفاعل الاجتماعى وتكامل النسق
- **ثالثا** : متغيرات النمط
- **رابعا** : فكرة المدخل والمخرج
- **خامسا** : التدعيم الذاتى والنسق الاجتماعى
- **سادسا** : الأبعاد الداخلية وتبادل الحدود .
- **سابعا** : مكان النظم الاجتماعية من الانساق
- **ثامنا** : موقف النظرية السوسيولوجية من النسق الاجتماعى
- **مناقشة وتعقيب .**

الفصـل الرابـع

النسـق الاجتماعـى

مـدخـل :

يستأثر النسق الاجتماعى من المنظور التحليلى بمزيد من جهود بارسونز ، وهذا ما يتفق مع الأهمية النسبية للنظرية السوسيولوجية المعاصرة ، ومع موقفه الخاص من قضية التنظير فى علم الاجتماع ، لاسيما وأن هناك أكثر من مؤشر يدل على احتواء النسق الاجتماعى لكل انساق الفعل الأخرى . وتلك نقطة تحول فى التركيز ، دون أن تصبح تراجعا عن الأفكار والمواقف السابقة ، ويتجلى هذا فيما أحرزه بارسونز من تقدم نحو إعادة صياغة فكرة المجتمع من منظور أكثر شمولا واستيعابا . وتفسير ذلك أن المفهوم العلمى لكلمة المجتمع Society من حيث نشأته وتطوره وطبيعته كان موضعا لمناقشات مستفيضة من جانب الرواد ، أكدت جميعها الشكل المنظم للحياة الاجتماعية ، وهو مصدر اشتقاق بارسونز لمصطلح النسق الاجتماعى . بيد أن الفكرة ليست وليدة التصور الراهن وإنما تعود بالضرورة إلى مراحل من التنظيم الاجتماعى الموغل فى القدم .

وإذا لم يكن بوسعنا الوصول إلى البدايات الحقيقية أو الصور الأولى لنموذج هذا النوع من التنظيم ، فليس أمامنا إلا أن نقدم صياغة لا ترتبط أساسا بالتأريخ للمجتمع أو نظمه ، وإنما هى من قبيل المثال . ومن ثم كانت الوحدة النمطية فى التعبير عن فكرة المجتمع كنسق ، هى الجماعة المحلية المنظمة Societal Community

التى تعتبر صميم أو جوهر النسق(١) . ومن الصور الممثلة لهذه الجماعة من التاريخ القديم المدن المستقلة فى اليونان القديمة ، والأمة فى العصور الحديثة . ولقد أيقن بارسونز بأن مفهوم التضامن الاجتماعى على النحو الذى فسره دوركايم ، مصدر تصوره للجماعة المحلية ، كوحدة أولى للاحساس المشترك والولاء من قبل الأفراد حيال الكل الاجتماعى . ولقد نمت مشاعر الانتماء للمجتمع والنزعة الوطنية Citizenship فى حدود هذا السياق وبتطوره وتعقد بنيانه ظهرت الجماعات الصغرى أو الفرعية Subgroups وتباينت الأدوار والوظائف . وأصبح وجود التنوع والتفاضل ضرورة لبلوغ غاية التكامل . ومن ثم فإن النسق الاجتماعى يقبل الانقسام إلى انساق أقل فأقل منها حتى مرحلة النواة الأولى . وانطلاقا من هذا التصور فإن النسق الاجتماعى كيان مركب ، يشتمل على الكثير من النظم والجماعات ، والأدوار والوظائف ، والعلاقات والروابط . وتعتبر فكرة النسق هنا أوسع من مفهوم البناء الاجتماعى(٢) .

وقياسا على انساق البيئة الأخرى كالنسق العضوى ، فإن للنسق الاجتماعى أبعدا بنائية وأخرى وظيفية ، كما أن له حدود خارجية تعين علاقته بالانساق الأخرى ، ومقومات داخلية تتعلق بطبيعته النوعية والخاصة ، أو تدعم وجوده الذاتى . ومن هنا جاء تعريف بارسونز للنسق الاجتماعى ، على أنه يتألف من فردين أو أكثر ، يتفاعلون بعضهم مع البعض الآخر على نحو مباشر أو غير مباشر ، فى ظل موقف معين ، يمكن أن تحكمه حدود فيزيقية واقليمية ، ومجموعة من المراكز والأدوار الاجتماعية . وفى موضع آخر يذكر بارسونز أن « النسق الاجتماعى عبارة عن مجموعة كبيرة من الفاعلين الذين تقوم بينهم علاقات تفاعل اجتماعى فى موقف

---

(١) من المرجح ان الجماعة المحلية المنظمة التى تعبر عن المفهوم السوسيولوجى للنسق الاجتماعى ، تتجسد في الوحدات المجتمعية التى شهدت نموا وتطورا من مستويات اصغر حجما الى اخرى اكبر منها ، على نحو ما يتأتى في « الفخوذ والبطون » او العشائر والقبائل ، كما تتمثل ايضا في نظام المدن القديمة والمقاطعات في العصور الوسطى ، واخيرا القوميات والامم الحديثة ، وتستعمل كلمة Societal بمعنى مجتمعى ، ولاسيما في الاشارة الى الابعاد المنظمة والتى يتميز بها مجتمع ما . وأهم خواص وملامح التنظيم ، الترابط بين الاجزاء او الوحدات ، وةالتناسق في اداء الوظائف ، والتكامل في بناء الادوار ، وهذه المعانى حاضرة في تصور بارسونز على ما نراه .

(٢) Parsons T., (Social System) International

معين ، قد يتخذ مظهرا فيزيقيا أو بيئيا ، ويتجهون نحو تحقيق الاشباع الأمثل لحاجاتهم ، كما تتحدد علاقاتهم الاجتماعية عن طريق بناء ثقافى مميز ومجموعة من الرموز المشتركة(١) .

ويعنى ذلك أن النسق الاجتماعى مفتوح الأطراف ، يؤثر ويتأثر بالانساق الأخرى ، ولاسيما تلك التى تشترك معه فى الحدود ، كالثقافة والشخصية ، كما يشير التعريف بالمثل إلى انضواء الثقافة داخل حدود النسق الاجتماعى بهذا المعنى الواسع . على أن الوحدات الأساسية فى الانساق الاجتماعية هى ، الأدوار والجماعات والعمليات ، لا الأفراد فى حد ذاتهم .

ويفرق بارسونز بين الانساق النظرية والانساق الامبيريقية ، مستعينا فى ذلك بمنطق الاستعارة والتشبيه من مجال العلوم الطبيعية ، فيذهب إلى أن النسق الامبيريقى (مثل نسق المجموعة الشمسية) فى علم الفلك ، يمثل فى نظرية نيوتن مجموعة من المكونات تصبح الأرض واحدة من بينها ، أو جزء ذو طابع كتلى معلق فى الفضاء ، وسريع الحركة . غير أن هذا الواقع المرئى ، يختلف عن الآراء المفصلة وجهود العلماء فى اتجاه الربط بين الأجزاء والمكونات ، على نحو أكثر تجريدا أو أشد عمومية ، ولأن التنظيم العلمى يقوم على الانتقاء للصفات العامة والمشتركة بين الظواهر . وأى نسق يعتبر فى الأصل مجردا أو تصوريا ، ويعتمد على أبعاد وحدود منطقية ، ولا يختلف النسق الاجتماعى فى ذلك عن الانساق الأخرى . فالاطار العام والحدود ، والقدرة على التدعيم الذاتى ، والاستمرار خلال الزمن ، قائمة كلها فى النسق الاجتماعى ، الذى يشتمل بالمثل على انساق امبيريقية مثل نظام الطبقات .

ثم يتجه بارسونز مرة أخرى للاستعارة من مجال البيولوجيا ، فقد قرأ مؤلف ولتر كانون W.B, Canon « حكمة الجسم البشرى » ، وقرر بأن الانساق الاجتماعية تميل إلى تحقيق التوازن باستمرار ، ويترتب على ذلك الميل إزالة الضغوط والتوترات التى

(١) Encyclopedia of Social Scences, opcit, pp. 458-73

تخل بمنطق التوازن[1] . وتوصل إلى وجود ثلاثة خواص أساسية يتميز بها النسق الاجتماعى وهى :

١ — ان النسق الاجتماعى يتألف من أجزاء يعتمد بعضها على البعض الآخر ، وفى ذلك تقرير لمبدأ الاعتماد المتبادل .

٢ — ان هذا النسق يتمتع بمقومات التدعيم الذاتى ، حيث تميل العناصر أو الأجزاء للاستقرار والتكامل ، وخفض التوترات باستمرار .

٣ — ان النسق الاجتماعى يتغير ، بفعل الديناميات الداخلية ، أو بسبب العوامل الخارجية .

ولبارسونز موقفه الخاص من تحليل هذه القضايا على نحو ما نطرحه تباعا ، بيد أنه أكد كثيرا على مبدأ الاعتماد المتبادل ، وهو مبدأ وظيفى. وفى هذا الصدد يرى أن أجزاء النسق تختلف فى درجة اعتمادها ، وفقا لتباين وظائفها ، وتعدد اسهاماتها فى تحقيق وحدة الكل وحفظ وجوده . كما أن بعض أجزائه تمثل استقلالا نسبيا ، ومنها ما تتوفر له القدرة على الآداء الكفء ، بينما تقصر أجزاء أخرى عن الوفاء بالمتطلبات أو تصبح معوقات وظيفية ، غير أنها تعمل جميعا فى إطار الوحدة الشاملة للكل . ولقد تناول بارسونز بالتحليل قضايا كثيرة ، من أهمها عمليات التفاعل الاجتماعى داخل النسق ، ومتغيرات النمط وعلاقة الدور بالنسق ، وموقف النظم من الانساق الاجتماعية ، ومكان النظرية السوسيولوجية وغيرها الأمر الذى يدعو لمناقشة هذه القضايا فى شىء من التفصيل .

أولا — الدور والنسق الاجتماعى :

تعتبر نظرية النسق الاجتماعى تحديثا لآراء بارسونز وإعادة صياغة للأفكار فى ضوء التطورات المعاصرة . وإذا كان موقفه من الفعل يوحى بقوة إلى مدى تأثره برواد علم الاجتماع الحديث ، فإن اتجاهه النظرى فى تحليل النسق ينهل — دون شك —

(١) من بين ما توصل اليه ولتركانون في مؤلفه « حكمة الجسم البشرى » تلك الاكتشافات المتصلة بالغدد الكظرية Adernal Glands والتى تنتج سكر الدم ، الذى يمنح الجسم الطاقة ممثلة فى الجلكوز Glucose وقد توصل كانون الى وجود مجموعة من الميكانيزمات تحول دون التغيرات الكبيرة فى درجة الحرارة ، وتحقق التكافؤ الضرورى بين وظائف الجسم ، او تعمل على استمرار توازنه ، بإقصاء المؤثرات غير الطبيعية .

من آراء المعاصرين له[1] . ولهذا فإن مفهوم الدور كما يتصوره بارسونز لا يخرج عن نطاق التفسير الراهن ، خاصة عند جورج هربرت ميد ، وروبرت ميرتون .واتساقا مع هذا المنطق ، فإن الدور الاجتماعى سلوك يقترن أداؤه بمركز معين ، وهو أداء متوقع من قبل الشخص أو مجموعة الأشخاص . ولا ينفصل الدور فى تراث علم الاجتماع عن مفاهيم مثل التدرج والمكانة الاجتماعية والوضع الاجتماعى . وتبرز فى السياق مصطلحات أخرى كثيرة ، أذكر من بينها تمثل الدور أو تناول الدور Role-taking ، وشبكة الدور Role-set وصراع الدور[2] . وقضية الدور مركبة ومتباينة التفاصيل ، وتتعلق بالاداء والانجاز الاجتماعى وبالتكييف والملاءمة مع ظروف المواقف ومتغيراتها . وهذا الطابع الدينامى لفكرة الدور فى مقابل المكانة ، هو الذى أخذ به بارسونز[3] . غير أن تصوره لمفهوم الدور يتأثر إلى حد كبير بنظريته عن

---

(١) Gouldner, optic, p. 204-13

(٢) Mitchell, Duncan, Dictionary of Sociology, London, 1967 p. 148

(٣) هناك ثلاثة مواقف يمكن ان تساهم في تحديد مفهوم الدور وهى :

ا ـــ يمكن تعريف الدور عن طريق ارتباط مجموعة من المعايير والتوقعات بالمسؤليات وبمراكز الفاعلين . ويصبح الدور هنا من قبيل القيام بوظيفة في تنظيم ما .

ب ـــ يتعين الدور عن طريق الجزء الذى يؤديه العضو في الكل الاجتماعى المسمى بالنسق ، وتلك وجهة نظر هربرت ميد .

جـ ـــ الدور عبارة عن الافعال التى يؤديها الافراد كوحدات في بناء المجتمع بما يحقق الاهداف المنشودة ، والمصالح الاساسية بالوسائل المقررة .

وهذه المعانى الثلاث مقاربة ، ولهذا يستخدمها جميعا رالف لينتون حين يقرر بأن الدور وعاء يشتمل على الاتجاهات والقيم والسلوك الذى يتعين عن طريق شخص ما او مجموع الاشخاص الذين يشغلون مكانة اجتماعية ، ويصبح بناء الدور وثيق الصلة بتكوين الشخصية طالما ان الفرد يسعى دائما الى تحقيق وجوده الاجتماعى عن طريق الاداء والانجاز الذي يعبر من جانب آخر عن قدرته وكفاءته لاسيما حيال المشكلات الصعبة ، مع استغلال الفرص المتاحة والفرص الجديدة وهذا ما دفع بارسونز لعقد صلة وثيقة بين الشخصية والنسق الاجتماعى ، اعتمادا على فكرة بناء الدور . ومهما يكن من تعدد الاتجاهات في تفسير مشكلة الدور عند كل من اينتون وميرتون فإن الجدير بالملاحظة ، هو استيعاب بارسونز لافكار مثل المكانة الملتصقة والمكانة المكتسبة ، وتضمينها صياغته لمتغيرات النمط . كما ان آراء ميرتون حول شبكة الدور مركب الادوار حظيت بقسط وافر من تحليل بارسونز كما طبقها في دراسته عن العلاج ودور الطبيب ، وهي على صلة قوية بالنسق الاجتماعى .

الفعل . ويصبح الدور أحد الوحدات التى يتكون منها الفعل . ويكون الآداء فرديا كان أو جماعيا ، مرتبطا بتبادل التوقعات ، وإن كان حدوث التوقعات المنتظرة ليس بالشرط الضرورى لآداء الدور ، ولكنه يبقى دائما حاضرا فى ذهن الفاعل ، وإذا لم يحدث ما تتوقعه الذات من قبل الآخر فإن المشكلة تبقى مرهونة بالتباين بين السلوك الذى وقع أو تم ، وبين ما كان مفروضا أن يحدث ، كما أن التفسير يمتد أيضا إلى ميكانيزمات أخرى لا سبيل لمناقشتها الآن ، وإنما نركز على العلاقة بين الذات والآخر ، فى إطار ممارسة كل منهما لدور ودور مقابل . وأى فاعل يقوم بعدة أدوار فى وقت واحد ، وتشتمل هذه الأدوار على مفارات فى النماذج ، بالنظر إلى عمليات ومؤثرات متعددة وطبقا لمصالح واهتمامات الذات ، وقدرة الآخر على تلبية مطالبه وحاجاته التى تتصل هى الأخرى بظروف التنظيم الاجتماعى ، وبشروط القدرة وملاءمة المكان والوقت .

وتدخل عملية التنشئة والضبط الاجتماعى طرفا فى تحديد القدرات والاختيارات وتحديد مستوى الملاءمة ونوع الآداء ، بما فى ذلك تعيين الوسائل والغايات وانساق الثواب والعقاب[1] . ويذهب بارسونز إلى أن أداء الأدوار يعتمد على ديناميات المواقف والخصائص الذاتية للفاعلين ، والنتائج المترتبة على الآداء . ولهذا فإن هناك ثلاثة معان لفكرة الدور فى رأيه وهى :

١ ـــ ان الدور من وجهة نظر الفاعل ، تحدده مجموعة من التوقعات ، التى تخضع لمعايير وتقاليد ونظم الجماعة . وهذا ما تفسره أعمال بارسونز حتى عام ١٩٤٥ . ويظهر العنصر الطوعى الذى تتميز به أعماله المبكرة فى هذه الصياغة .

٢ ـــ الدور الاجتماعى جانب منظم ، يوجه الفاعل ويعين مشاركته الايجابية فى أية عملية تفاعلية . وهذا ما تؤكده أعمال بارسونز بالاشتراك مع شيلز منذ عام ١٩٥١ .

٣ ـــ يعتبر الدور نسق « فرعى » من أبرز وظائفه تنظيم السلوك ، ولا ينفك ارتباط هذه الوظيفة بالمكانة الاجتماعية .

(١) Lasswell Thomas and others, Sociology, Scott, Foresman and Company, 1970. pp. 138-40

وفى ضوء هذه المعانى ، يجسد الدور نسق القيم المشتركة عبر عملية الاستدماج ومن خلال مبدأ تبادل التوقعات . ويرجع التباين فى الآداء إلى نوع القيم المستدمجة . فالدور الذى يؤديه الفنى فى المصنع ، يختلف عن دوره فى الجماعة المهنية التى ينتسب إليها ، حيث تبرز القيم الخاصة بهذه الجماعة الأخيرة فى توجيه الدور[1] . وبينما يهتم منفذ المشروع الاقتصادى بعمليات البيع والتسويق ، وبالتوازن فى المدفوعات النقدية يتجه المهندس نحو الاهتمام بالكفاءة فى الانتاج ، وهذا التباين ضرورى لكل الأطراف فهو يحقق التكامل مع نسق القيم الخاص ، والذى يؤثر فى بناء الدور من خلال التأكيد على أهداف معينة ، كما يعمل على تكامل الأدوار فى النسق كإطار أوسع[2] . وقد تناول بارسونز بالتحليل فكرة الدور من الناحية الامبيريقية ، وفى ضوء تصوره لمتغيرات النمط ، وهو بصدد بحث العلاقة بين المريض والطبيب ، وبين أن اعتماد دور الطبيب على المعرفة والخبرة يمثل عنصر الحياد الوجدانى وهو أكثر اتصالا بالموضوعية فى الممارسة . غير أن مهنة الطب تقتضى من جانب آخر توفر الاعتبارات الانسانية فى الآداء . ومجال هذه الاعتبارات المشاعر والعواطف (أى الميول الوجدانية) والتى تصبح فى كثير من مواقف الفعل ، شروط لازمة للآداء الجيد ، الأمر الذى يعنى عند الطبيب الممارس ضرورة القيام بدور مزدوج أو ثنائى التكوين . وتنطوى تلك الثنائية على المقابلة أو المناظرة بين اتجاهين قد يكونا متضادين إحيانا .

ومن ناحية أخرى فإن متطلبات العلاج أو الوقاية تشتمل على نوعين من التوجيه (التوجيه الذاتى فى مقابل التوجيه الجمعى) . ذلك لأن هيئة العلاج ليست سوى جماعة تتباين أدوارها نسبيا ، ولكنها تسعى لتحقيق غاية واحدة ، ومن ثم فإن سلوكها يرتكز على الاتجاه العام نحو رفاهية المريض أو نزلاء المستشفى . وهو هدف يعلو ويتقدم على أى انطباع ذاتى مثل دافع الكسب ، والذى يأخذ أهمية ثانوية[3] . وإذا كان دور الطبيب على قدر من التركيب فإن دور المريض يتصل بنسق التوقعات والتى يمكن تقسيمها إلى أربعة وحدات هى :

---

(١) Foss Daniel, ''The world view of T. parsons'' Sociology on trial, Edited by maurice stein and

(٢) Arthur Vidich, prentice - Hall, London, 1963, pp. 96 - 126

(٣) Parsons T. and others, Family, Socialization, and Interaction process, opcit, p. 161

١ ــ ان نسقط عنه كل المسؤوليات التى يوكل بها غير المرضى ، تخفيفا للمعاناة الجسدية والنفسية .

٢ ــ محاولات المريض للتنصل من المهام التى تقتضى مشاركته لتحسين موقفه ، وهذا ما يدخل ضمن الأدوار المعوقة وظيفيا .

٣ ــ يصعب فى بعض الأحيان التمييز بين الآداء الايجابى والسلبى من قبل المريض خاصة إذا تميعت الحدود التى تفصل بين الصحة والمرض لديه ، أو كان موقفه العلاجى بالنظر لنوع المرض أو العمليات الجراحية لا يحمل على الثقة أو يشوبه الغموض ، لسبب أو لآخر .

٤ ــ يوجد إحساس مستمر عند المريض بالتزام هيئة العلاج بكل مطالبه ، وأن أى تقصير ينعكس على طرفى العلاقة .

وبالاضافة إلى هذه الوحدات ، تتحكم فى هذه العلاقة بين (الذات والآخر) وظائف مستترة وأخرى ظاهرة ، وغالبا ما يبدأ الطبيب بالكشف عن الوظائف الظاهرة وصولا لما يكمن من آثار قد تعوق عمله . كما أن شبكة الأدوار عند هيئة العلاج تضم طائفة من الوظائف التى ينبغى أن تبقى فى طى الكتمان ولا يعلمها المريض لأن ذلك من مستلزمات بناء الدور .

ويمضى بارسونز فى تحليلة لمكانة ومركز الطبيب ، فيشير إلى أن هذه المكانة وبدليل احصائى ، تعتمد على أسس اجتماعية ، تتفوق كثيرا على أهمية المؤهلات العلمية ، فقد ثبت أن بناء هذه المكانة مرجعه الدور الاجتماعى الذى يكون التخصص المهنى الفنى جانبا واحدا من أبعاده والجدير بالاهتمام أن هذا الدور يضم بنودا ثقافية وميكانيزمات سيكولوجية ، بالاضافة إلى إسهامه فى تحقيق وظيفة الضبط الاجتماعى ، لا سيما أثناء انتشار الأوبئة والأمراض سريعة العدوى ، ومقاومة مواقف الاهمال أو اليأس ، والمبالغات أو التضخيم فى آثار المشكلات الطبية . ولقد امتد تحليل بارسونز إلى مناقشة مشكلة الموت ، وردود الأفعال أو الاستجابات التى تتباين ثقافيا بالنظر إلى دور الشعائر والطقوس فى تقبل الوفاة كحقيقة ، ثم وجوب التكيف مع آثارها أو مرور وقت طويل حتى يعود التوازن الاجتماعى فى بناء الأدوار . ومعنى ذلك أن الدور ليس قصرا على الشخص ، بل يمتد إلى القيمة والمعيار أو الشعار

والرمز والعادات والأعراف والتقاليد ، وغيرها من مقومات التراث الاجتماعى والثقافى[1] .

ولقد ناقش بارسونز الفوارق فى ممارسة الأدوار ، وميز بين أداء الدور وتمثيل الدور ، ويعنى المصطلح الأول ذلك الآداء الذى يعود إلى ذات الفاعل ، أما الثانى فيشير إلى وضع الفاعل فى موضع الآخر ، (أى النقل عن الآخرين أو تقليدهم) ، فالأدوار التى يجرى تمثيلها تؤخذ عن الغير ، طالما أن أداؤها لا يقتصر على ذات الفاعل الأصلى أو تعتمد على جهده الخاص والمستقل بل ترجع فى جزء منها على الأقل لشخص آخر ، والمثال الحى لهذه التفرقة ، تقليد الصغار لأدوار الكبار ، والتى تدخل فى دائرة تمثيل أو نقل الدور ، وكلما تقدم بهم العمر ونمت شخصياتهم ، تحولوا تباعا من مجال التقليد والنقل إلى حيز الاداء المستقل والمبتكر . وتلك قضية تتضح معالمها فى الفوارق بين الأجيال على المستويين الاجتماعى والثقافى . هذا بالاضافة إلى انتقال ممارسة الدور من نطاق التشابه والتناظر إلى التباين والتمايز من الناحيتين التعبيرية والوسيلية . وكلها من مؤشرات تطور ونمو الشخصية نحو مرحلة التكامل والنضج .

والواقع أن هذا التحليل ينهل من أفكار بيلز زميل بارسونز ، خاصة تفسيره لديناميات التفاعل فى الجماعات الصغيرة . ولكنه طبقها على النسق الاجتماعى ، وفى هذا الصدد يقول « لما كان النسق الاجتماعى إطار للتفاعل بين مجموعة كبيرة من الأشخاص ، ويخضع سلوكهم للتحليل داخل الكل الاجتماعى ... » فإن علاقات التفاعل بين المشاركين هى الموضوع الرئيسى للدراسة النسقية ... وتتبلور هذه العلاقات فى شكل أدوار اجتماعية لا أشخاص ..[2] ويعنى ذلك أن الدور هو الجانب المنظم لتوجيه الفاعل ، وهو الذى يميز نوع المشاركة وطبيعة المساهمة أثناء عملية التفاعل ، وبينما تنتفى مقومات الآداء الشخصى بانتهاء دورة حياة الفرد ، فإن الدور الاجتماعى متصل الحلقات ، وأنه يقبل التجريد ويمكن أن ينتقل بين الأجيال ، فهو دائم ومستمر بغض النظر عن مسألة تعاقب الأجيال . ويعتقد بارسونز أن كل الانساق الاجتماعية تميل نحو الاستقرار فى بناء الأدوار ونماذج السلوك ، ويعود ذلك

(١) Ibid, pp. 439 - 47

(٢) Parsons and shils, OP - Cit. pp- 23 - 24 .

إلى اضطراد نمو التوجيهات الثقافية المشتركة ، مما يدعم النسق ، كما يرجع بالمثل إلى وجود تنظيم معين فى دائرة أقليم أو منطقة محددة ، ونسق للتدرج الطبقى وعلاقات للقرابة ، وقيام طائفة من الوظائف الهامة التى يقابلها إطار واضح للجزاءات (الثواب والعقاب) ، هذا بالاضافة إلى البناء العام الذى يتحكم فى عمليات الضبط والتغير والانحراف الاجتماعى(١) .

وينطوى ذلك الرأى على شيء من الغموض ، الذى لا يخلو من منعطف ايديولوجى واضح . فليست العناصر المشار إليها كافية لتقرير حقيقة الميل المضطرد نحو الاستقرار فى بناء الأدوار ، فضلا عن تداخلها معا وقصور مصنفها . بيد أن جملة ما يريد بارسونز التعبير عنه ، هو أن الانساق لها أبعاد بنائية وأخرى وظيفية ، وأن العلاقة بين الجانبين مصدر تكوين النظم الاجتماعية . ويكون الدور قطاع Sector فى هذا التكوين . وتفسير ذلك أن أداء الدور بما يقابله من توقعات ، وما يحيط به من جزاءات ، يخلق أطرا مرجعية للسلوك فى المجالات النوعية أو الانساق الفرعية والتى تعرف باسم « النظم » ، على اعتبار أن النظم جزء من النسق ويتصف النظام الاجتماعى بالتخصيص فى آداء الأدوار بينما يميل النسق للتعميم والشمول(٢) .

ثانيا ـــ التفاعل الاجتماعى وتكامل النسق :

التفاعل الاجتماعى عملية مركبة لا تتم إلا بوجود طرفين على الأقل ، وعلاقات للتأثير والتأثير المقابل ، بحيث يتحقق الفهم المشترك ، ويكتسب السلوك الناتج عن هذه العلاقات طابعا متناسقا بين الأطراف ، ولا ينفصل التفاعل الاجتماعى عن الدور وكل المتغيرات الأخرى التى اتعرض لها . وقد تأثر بارسونز كثيرا بآراء بيلز وشيلز الرائدة فى هذا المضمار . غير أنه كعالم وظيفى ومن رواد الاتجاه التحليلى فى النظرية السوسيولوجية المعاصرة ، بنى استراتيجيته النموذجية على أساس العلاقة بين الذات والآخر واستنادا لما يسميه ميكانيزم الانجاز فى التوقعات ، وهو مفهوم وثيق الارتباط بتكامل التوقعات فى آداء الدور الاجتماعى(٣) . وهذا الميكانيزم يعنى أن أية

(١) Ibid, p. 26

(٢) Ibid, pp. 208 - 21

(٣) Parsons and shils, family, Socialization and Interaction Process, opcit, pp. 37 - 40

علاقة تفاعلية ، ينبغى أن تحقق الاشباع المتبادل للطرفين ، أو تضمن تحقيق الغايات والأهداف النسبية التى يسعى إليها الفاعلون فى إطار التوجيه المعيارى ، بما يشتمل عليه من تفاصيل كثيرة ، وبعبارة أخرى فإن تقابل الطرفين يجب أن يؤدى إلى التوافق المزدوج Double Contingent على حد تعبيره . ولهذا فإن عمليتى التنشئة الاجتماعية والاستدماج ضروريتان لصياغة التفاعل بشكل يعمل على استقرار النمط وتكتسب الجوانب الدافعية والثقافية شأنا كبير فى هذا الصدد[١] . وتظهر الجوانب الوظيفية فى تحليل عملية التفاعل على النحو الآتى :

يقول بارسونز « ان الوحدات الأساسية فى تكوين الانساق .. من حيث أنها تعبر عن العلاقات التفاعلية بين الذات والاخر .. ، هى إنماط ونماذج السلوك التى تتسم بالتفاضل والتمايز ، وأيضا بالتبادل والتكامل .. وتعتبر المكانة الاجتماعية أحد أبعاد البناء الاجتماعى ، وهى لا تنفصل عن الدور الذى يجسد الأبعاد الدينامية ، وأن الفارق بين المكانة والدور ، قريب الشبه بالتمييز بين موضوع التوجيه ، وحدود المقدرة أو الكفاية »[٢] . ويكشف فحوى هذا الاقتباس عن وجود عنصرين أساسيين فى عملية التفاعل ، أحدهما مستقر نسبيا والآخر وهو الهام متغيرا ونشطا باستمرار . وإذا كانت المكانة الاجتماعية ترتبط بالحدود والمواقف الأكثر ميلا للاستقرار ، فإن علاقة الدور بشرط القدرة والانجاز يجعل منه عنصرا وظيفيا ومتغيرا ولهذا فإن هناك خاصتين لاكساب التفاعل الاجتماعى ديمومة التغير والنشاط وهما :

المرونة : التى يختص بها الكائن البشرى (من النوع الانسانى) وتدخل فيها بنود وسمات دافعية وثقافية .

الحساسية : ويعنى بها بارسونز استعداد الشخص للتأثر باتجاهات الأخرين في إطار الاستجابات النوعية للمواقف المتباينة .

وهاتان الخاصيتان تحققان التناسق والتأزر بين سلوك الأفراد ، والتكامل الاجتماعى المفتقد لدى الكائنات الأخرى ، وهذه الأخيرة تفتقر أيضاً إلى انساق

---

(١) Rex John, key problems of sociological theory, routledge and kegan paul, London, 1961, pp. 102 - 112

(٢) Parsons, the social system, optic, p. 25

التوقعات ذات المدلول والمعنى الرمزى بسبب عدم وجود اللغة المفصلة والتى يقصر وجودها على الانسان (العاقل) . ومن أجل ذلك يعتبر بارسونز اللغة أحد الأوساط الهامة فى التبادل والتفاهم المشترك ، وان اضطراد عملية التفاعل الاجتماعى ، يسير محاذيا للنمو والتطور فى اكتساب وتعلم الألفاظ والصيغ اللغوية وسائر المستويات الرمزية الأخرى . هذا بالاضافة إلى دور اللغة فى إشباع الحاجات عن طريق التعبير والكلام والحركات المصحوبة بالاشارات .

وتحظى قضية الاشباع ـــ التى يستمدها من أفكار مالينوفسكى ـــ بقسط وافر من اهتمامه ، بيد أن الاشباع يرتبط عند بارسونز بطبيعية ونوع العلاقة التفاعلية بين الذات والاخر والتى يمكن تصنيفها إلى أربعة فصائل من الاحتمالات هى :

١ ـــ اما أن تكون الاخر ـــ فى نظر الذات ـــ غير قادرة ولا راغبة فى تحقيق ما تريده الذات Neither willing, nor able وعلى الذات أن تواجه مشكلة الاختيار الصعب ، بين الاصرار والاستمرار فى مطالبها أو تغير منها ، وفى هذه الحالة الأخيرة يتحتم عليها أن تبحث عن تلبية الحاجة (و) بدلا من (ج) ، ولكن إذا أصرت على طلب (ج) واعتقد بأن الاخر لا يرغب ولا يستطيع سد حاجاتها ، فمن المحتمل أن تبحث عن مصدر آخر للأشباع ، ويعتمد قرار الذات هنا على البدائل ، وقد يأتى السلوك فى شكل عقابى أو انتقامى نحو الآخر .

٢ ـــ توفر الرغبة والقدرة معا على الاشباع Ego'sview alter as a both willing and able, to provide وهنا تميل العلاقة بين الطرفين إلى التبادل ، ويتحقق تكامل التوقعات وقلما تثور المشكلات أو تنشىء صور للاكراه والتوتر .

٣ ـــ توفر الرغبة مع عدم القدرة Willing but not able ، ويكون رد الفعل من قبل الذات متوقفا على رأيها فى شروط القدرة أو عدم القدرة من جانب الاخر على الاشباع وما يمكن أن يتم من تعديل فى مستوى كفاءة الحاجات المطلوبة ، فإذا أحست الذات أن الاخر غير قادر فعلا وانه لا يستطيع أيضا تعديل قدرته فإن النتائج سوق تتطابق إلى حد ما ، مع ما وصفناه فى الفصيلة الأولى . هذا مع وجود احتمالات اخرى مثل الانتظار أو الترقب أو الارجاء ،

وهى أمور تعنى العودة إلى الاخر فى مناسبات وأوقات لاحقة لتحسس حدود الكفاية ، فقد تتحسن موارده أو تنمو مهارته وقدراته أو تتجدد ، بالاضافة إلى وجود باعث التهديد أو العقاب أو الأشكال المناظرة .

٤ ـــ أن تكون الاخر قادرة ولكنها ليست راغبة فى تلبية الحاجات وهنا تستعين الذات بأساليب الترغيب وصور المغريات ، حتى تتجاوز حاجة اللارغبة فى الاشباع كما قد تلجأ لوسائل العقاب . ويذكر بارسونز أن هناك ميكانزمات أخرى تتحكم فى هذه الاحتمالات الأربعة ، وفى نتائجها بالنسبة للطرفين(١) .

بيد أن مثل هذا التصنيف تحكمى إلى حد كبير ، كما أنه غير فاصل . هذا بالاضافة إلى أنه قائم على التصور والتجريد . ولا يعدو أن يكون اجتهادا من نوع ما . ذلك لأن الطابع المركب لعملية التفاعل الاجتماعى على أى من المستويات ، يمنع إمكانية وضع تقسيم من هذا النوع . فإذا أضفنا إلى ذلك التركيز على طرفين (الذات والآخر) من أطراف العلاقات المتعددة فإن هذا يعنى التقليل من أهمية أشكال ونماذج التفاعل على مستويات أخرى ، جديرة بالبحث . وإن تبادلية الارضاء ، التى يقول بها بارسونز ، تنطوى على تعقيدات نظرية ، تقلل من أهميتها ، أو تجعل تلك الصياغة جافة ، إذا ما قورنت بموقف مالينوفسكى ومصنفه الواقعى إلى حد ما .

ثالثا : متغيرات النمط :

ان تصنيف المجتمعات والجماعات الى نماذج وانماط ، فكرة قديمة ولا تسمح طبيعة هذه الدراسة بأكثر من تعقب ابعاد هذا الاتجاه منذ بداية ظهور علم الاجتماع التحليلى فى الربع الاخير من القرن التاسع عشر . واول ما تجدر الاشارة اليه ، اعمال عالم الاجتماع الالمانى فردناند تونيز Ferdinand Tonnies الذى فرق بين الجماعية المحلية Gemeinschaft والمجتمع Gesellschaft وترتبط الاولى بما يسميه الارادة الرئيسية Essential Will ولهاابعاد غريزيةوعضوية، بينما يعتمد المجتمع على الارادة التحكمية Arbitrary وتسيطر الاولى على حياة القرويين وارباب الحرف ، على حين ان الثانية هي الطابع المميز لرجال الاعمال والعلماء(٢). وقد اضحت التفرقة بين المجتمع

(١) Goulner, optic, pp. 257 - 60

(٢) Lazarsfeld P. F., Main trends in Sociology, George Allen of unwin, London, 1970, pp. 11

والجماعات المحلية والروابط وغيرها مؤكدة في تراث علم الاجتماع الحديث . حيث تأثر ماكس فيبر بتقسيم تونيز في تصنيفه لأنواع السلطة (التقليدية والتجديدية) ، ولنوعى الترابط الاجتماعى (المحلى والقومى) . كما ترجمت الفكرة عن وجودها عند دوركايم (التضامن العضوى والتضامن الألى)(١) .

وقد تأثر بارسونز — من غير شك — بهذه التصانيف العلمية ، وبأخرى غيرها تنتمى الى مجال الدراسات الانثروبولوجية ، وتمكن من اعادة صياغتها فيما يسميه بمتغيرات النمط التى تعبر عن نماذج وانماط الجماعات والمجتمعات ، وتجسد التباين فى صور واشكال العلاقات والأدوار ، بأبعادها السيكولوجية والسوسيولوجيه والثقافيه . هذا بالاضافة الى انها اطار للمقابلة والمناظرة بين البدائل السلوكية ، طبقا لمقاييس ومحكات ترتبط بكل من الوسائل والغايات ، والانجاز والجزاء ، وميكانزمات التفاعل الاجتماعى . ويعتبر مؤلف بارسونز بالاشتراك مع شيلز « نحو نظرية عامة للفعل » ، احد المصادر الهامة لهذا المخطط التصنيفى . حيث نجد تفصيلات واسعة لنماذج الاختيار فى شكل أزواج خمسة متقابلة يتم الاختيار من بينها من قبل الفاعل فى ضؤ الشروط والظروف المحيطة بالموقف . وهى تحدد الممكن والمحتمل والمفروض لكل من الفاعل (الفرد) والفاعلين (الجماعات) ، ونماذج الموضوعات الاجتماعية والتوجيهات التى تتحكم فيها ، بما فى ذلك بيان السمات المميز للأداء ، والخصائص السائدة عند الجماعات .(٢)

والبدائل النمطية هى التى تصل بين بناء الدور فى اى نسق اجتماعى ، وبين القيم والمعايير الاجتماعية . واى نمط للاختيار ينتمى لأحد البدائل او المتغيرات بصورة ملموسة بحيث يمكن التمييز بين الادوار ونماذج السلوك والموضوعات الاجتماعية ، التى قد تأخذ صيغا خصوصية أو انتشارية أو وجدانية وحيادية ، الى غير ذلك من المصنفات ، على نحو اوجزه فيما يلى :(٣)

---

(١) Nisbet, Robert, the sociological tradition, Heinemann, London, 1967, pp. 16 - 18

(٢) Parsons and others, Family, socialization and interaction process, optic, p. 225

(٣) Inkles, Alex, what is sociology, prentice-hall of India, New Delhi, 1971, pp. 74 - 75

١ ــ الوجدانية فى مقابل الحيد الوجدانى :

Affectivity versus affective neutrality

ويسميها بارسونز ايضا « بالمعضلات المتصلة بنظام الارضاء . gratívication - Discipline Dilema[1] ويتصل هذا التكوين المزدوج بالحدود التى تسمح للفاعل بالتعبير عن مشاعره او عواطفه اثناء اداء الدور ، بما يتفق والمتعة الذاتية ، أو أحاسيس الرضا النفسى ، والتى قد تكون ايجابية او سلبية . واوضح مثال لذلك ، هو موقف الطفل فيما قبل المرحلة الاوديبية ، على حد تعبير بارسونز . ففى الوقت الذى لم تأخذ عملية الضبط الاجتماعى دورا ملموسا ، يسمح للطفل بالتفريغ عن مشاعره وانطلاقها . وكلما اضطرد نمو الشخصية ، يزداد الميل نحو الجانب الآخر وهو الحياد الوجدانى .[2]

ويعنى ذلك تأجيل او ارجاء الاشباع حتى يتم بالشكل الملائم . او بما يتفق والمعايير . أو استبدال الاختيار بما يتناسب مع الاعتبارات الاخلاقية العامة . ومن جانب آخر ، اذا كانت جماعة الاسرة موطنا لتمركز المشاعر الوجدانية ، فإن الجماعة المهنية او الحزب السياسى ، إطار لطرح الموضوعات المحايدة وجدانيا . وتعتبر كل من الوجدانية والحياد الوجدانى ، واجهتين لشىء واحد . ويصبح الفرق بينهما معلقا على الخصائص المميزة للفعل ، أو الموضوع الاجتماعى او الجماعة ، من حيث مؤشرات التركيز النسبى على احد المتغيرين فى مقابل الآخر . وما ينبغى الاشارة اليه ، ان هذا المتغير اكثر اتصالا بالجماعات والوحدات الصغرى ، وبالطوائف المحدودة النطاق ، أو ما يسميه بارسونز الانساق الصغرى (المفتوحة او المغلقة) .

٢ ــ المصلحة الذاتية فى مقابل المصلحة الجمعية :

Self - orientation vs. collective orientation. (Private vs. collective interest dilema)

تعنى المصلحة الذاتية تعلق الاختيار بالاهتمامات الفردية او حاجات الانا الخاصة . أما المصلحة الجمعية فتشير الى ادراك الفاعل لحاجات الجماعة التى ينتمى

---

(١) Johnson Harry, optic, p. 137.

(٢) Parsons, the social system, op - cit, pp. 58 - 60 .

اليها او حاجات المجتمع ككل .[1] وقد بدأت الصياغة الاولى لتلك الثنائية فى شكل المصلحة الذاتية فى مقابل « اللامصلحة » Disinterestendness ثم اعيدت الصياغة على النحو المذكور . وينطوى مضمون المصالح هنا على الاتجاهات والميول الفردية ، والتى قد تكون غير مكترثة بنظم المجتمع والمعايير العامة . وتشكل بالتالى بناء دافعيا يكشف عن توجيه الطاقة النفسية وتركيزها نحو الذات ، دون مرعاة للتعارض مع رغبات الآخر . الامر الذى قد يثير الاضطراب فى العلاقات ، او يجنح بالذات الى العداوة والاغتراب .[2] وقد يصبح هذا الميل سلبيا او مكبوتا او معوقا وظيفيا . والتطرف فى ايثار المصلحة الذاتية يدفع الآخر الى قهر الذات بطريقة او بأخرى ، من اجل الحد من الميول الذاتية ، او الاتجاه نحو قيم (النحن) الجماعة ، والتطابق مع مصالح الآخرين . ويستثمر بارسونز آراء وليم جراهام سمنر Summner عن الاعراف الاجتماعية ، وتصور دوركايم للاكراه الاخلاقى والضمير الجمعى فى الكشف عن دور الموجهات الجمعية فى اقصاء النزعات الفردية ، تدعيما للنسق ، وازاحة للتوترات بين الفاعلين[3] . وقد لا يحس الفاعل بالاكراه مباشرة ، ولكنه يجد نفسه أمام شروط وظروف تحدد اختياره ، وتدفع به بعيدا عن الاعتبارات الفردية أو التخلى عن الأهمية النسبية لمصالحه ، بسبب المقتضيات الملحة للنسق . وهذا ما يتسق مع رأى دوركايم حول طبيعة القهر الاجتماعى[4] .

٣ ــ العمومية فى ماقبل الخصوصية :

Universalism, vs. particularism

وتعنى الاختيار طبقا لنماذج التوجيه القيمى ، من حيث علاقتها بالنسق ككل ، أو بأحد الانساق الصغرى او الجماعات . ومعنى ذلك ان مركب القيم ثنائى التكوين . فهناك انساق القيم المشتركة بين جميع الافراد ومعظم الجماعات التى يتألف منها النسق ، والانماط النوعية او الخاصة للقيم ، كما تتجسد فى بعض الجماعات ولكن على نحو متباين نسبيا . ولا يصبح دافع المصلحة فى هذا المخطط

---

(١) Ibid, pp. 60 - 67

(٢) Parsons and Smelser, op - cit, pp. 34

(٣) Parsons, "Social System" International Encyclopedia, optic, pp. 458 - 470

(٤) Parsons, The Social System, op - cit, pp. 96 - 101.

ذو معنى ، لأن الخصوصية لا تنصرف الى الانا أو الذات ، بل ترتبط بالجماعة او الطائفة أو النموذج معين من السلوك ويصير انفعال الشخص اكثر التصاقا بهذا النموذج ، مقارنا بالانطباعات العامة السائدة فى المجتمع . ويرجع اهتمام بارسونز بالقيم « الخاصة » فى مقابل القيم « العامة » إلى نشأة ونمو الروابط الاختيارية فى المجتمعات الحديثة ، وانتشارها على كافة المستويات ، وتعدد اشكالها ، مما ترتب عليه توزيع الميول والاهتمامات ، والمناشط والادوار بين هذه الجماعات . وتعقدت بذلك مواقف الاختيار ، كما ازدادت الصعوبات امام الفاعلين ، لاسيما فى المجتمعات الحضرية .

على ان ذلك الانقسام فى الموجهات القيمية من متطلبات الانجاز الاجتماعى فى المجتمعات الحديثة . واذا كانت الثنائية بين المصلحة الذاتية والمصلحة الجمعية ، تنطوى على تعلق الفاعل بما يشبع حاجاته او يحقق الفائدة الخاصة مجردة من اية اعتبارات اخرى ، وربما على حساب المصلحة العامة ، فإن الخصوصية فى هذا النمط من المتغيرات ، امر مختلف عن المصلحة الذاتية . لانها تشتمل على عملية توزيع النشاط وتقسيم الأدوار بين اعتبارين ينبغى ان يقوم بينهما توازن على صورة ما . ومن ثم فإن الخصوصية لا تتعارض مع العمومية فى كثير من الاحيان ، طالما ان هناك من المواقف ما يستوجب التصرف طبقا للمعيار الخاص ، أو قيم الجماعة المرجعية التى ينتمى اليها الشخص . ولأن النسق ينقسم بالضرورة إلى جماعات اولية (أنساق تحت الصغرى) ، وأخرى ثانوية (انساق صغرى) ، ولكل منهما قيمها الخاصة . ومن معالم الخصوصية دور الاب فى الاسرة ، والذى يقابله على مستوى العمومية دور القاضى فى المحكمة .

وبينما تتجه معظم الادوار فى جماعة الاسرة والانساق المناظرة الى التركيز على المعايير الخاصة ، فان الجماعات المهنية والسياسية والهيئات العامة ، تأخذ بمركب القيم المشتركة.(١) والتفرقة بين العمومية والخصوصية امر نسبى ، ويمكن الكشف عن تلك النسبية عن طريق المقارنة بين ديناميات العلاقة الاجتماعية التى تسيطر على جماعات اللعب . فاللعبات الفردية تختلف فى المقاييس والادوار ، عن اللعبات الجماعية . ولا يؤدى هذا الاختلاف الى اى نوع من التعارض ، بل يصبح ضروريا . ففى النشاط الجماعى يقتضى التكامل فى الاداء ونجاح الجماعة فى بلوغ الهدف ،

(١) Johnson, op - cit, pp. 138 - 140

تطبيق مبدأ التناوب فى أدق صورة والتغلب على التوترات باستمرار ، والالتزام بقواعد الاداء التزاما قويا ، يشبه التقيد الصارم بالشعائر والطقوس ، بل أنه قد يكون تحكميا فى كثير من الاحيان ، كما هو الحال فى اداء الفريق اثناء مباراة كرة القدم .[1] واخيرا فان العمومية تفسر السلوك فى الكل الاجتماعى ، الذى هو النسق ، اما الخصوصية فهى تفسير نوعى مقابل للجزء الاجتماعى . وان القضية تتعلق بصفتى الشمول والتكامل ، او التنوع والتفاضل ، وأى منهما ضرورية للنسق .

٤ ـ الاداء فى مقابل النوعية :

Performance vs., Quality

وتستخدم صيغة اخرى هى التوريث فى مقابل التحصيل . Ascription Vs. achievement. ويعنى هذا النمط من المتغيرات الاختيار بين (نماذج) الموضوعات الاجتماعية والثقافية . بيد أن التفرقة المقررة فى التراث حول المكانة المكتسبة Achieved status والمكانة المتصقة Ascribed status تمثل احد جوانب هذه الصياغة . واذا كان المقصود بالالتصاق ، تدخل عوامل مثل الجنس والسن والطبقة ، او السلالة وغيرها من المقاييس المناظرة فى بناء الادوار والمكانات ، فإن الاكتساب او التحصيل يتبلور فى الانجاز العلمى والثقافى ، استنادا لمواهب وقدرات الفاعلى ، والتى غالبا ما تتصف بالعمومية والانتشار . ويكون مبدأ تكافؤ الفرص دالا فى هذا المضمار[2] ويمكن القول بأن الحواجز الاثنولوجيه والدينية والثقافية وغيرها ، لها اثر بعيد فى تشكيل الموضوعات المتصلة بالنوعية ولاسيما عند بعض الجماعات .

وتعد سياسة التفرقة العنصرية من بين التطبيقات الدالة على متغير التوريث . وبينما تركز المجتمعات الحديثة على نموذج الاداء العام ، وتدعم اشكال الانجاز الاجتماعى ، فان الانساق المغلقة مثل الطوائف الدينية فى الهند ، تُعول كثيرا على التقاليد العنصرية المورثة . وتدخل الايدلوجيا السياسية والعرقية طرفا هاما فى دائرة التوريث . ففى المانيا الهتلرية تغلبت العقائد التى تبنتها السياسة النازية على كل الفلسفات الاجتماعية والأراء السياسية الاخرى . واصبح تفوق الجنس الآرى والالمانى

---

(١) Ashley J. and others, an introduction to the sociology of education, 1969, pp 63 - 65

(٢) gouldner, op - cit,pp. 300 - 315

بخاصة على غيره من الاجناس ، محورا اساسيا فى صياغة الاتجاهات العامة نحو قهر الآخرين . ونفس الحال ينطبق على الصين ابان العهد الامبراطورى ، ممثلا ذلك فى دولة العائلة الواحدة التى يحكمها الامبراطور . ويعتقد بارسونز ان الانساق الحديثة تتجه نحو اسقاط النوعية — بهذا المدلول — من حساب التوجيهات القيمية والتركيز على الاداء[1] .

٥ — التخصيص فى مقابل الانتشار : Specificity vs. diffusion

(او تحديد مجال الاهتمام بالموضع The definition of interest in the object)

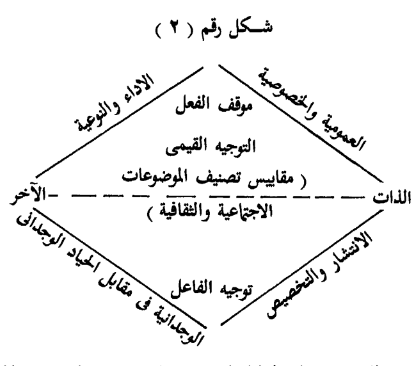
ويعنى ذلك أن العلاقات الانتشارية كما تتجسد فى جماعة الاسرة تتمتع بالاستمرار والتنوع والكثافة . اى انها لا ترتبط بمواقف خاصة او ظروف موقوتة ، بينما نجد العلاقات التخصيصية مثل العلاقة بين البائع والمشترى ، والمالك والمستأجر ، والمدرس والتلميذ ، يمكن أن تقتصر على مجال محدود . ويترتب على ذلك ايضا ، تباين الدور الاجتماعى الانتشارى عن الدور الاجتماعى التخصيصى . اذ ينطوى الدور الانتشارى على التزمات وواجبات اوسع ، كما تبرز المكانة والمركز بشكل فعال . ويذكر بارسونز ان العلاقات الانتشارية فى الاسرة تتناظر من حيث الكثافة مع العلاقات التى تقوم عليها القيادة فى المجتمع . وأن القائد فى علاقاته المركبة يمارس دورا قريبا الشبه بدور الاب . وتتسم العلاقات التخصيصية غالبا بقصر الأجل الزمنى ، وضيق المجال المكانى ، كما تكون من قبيل الالتزامات التعاقدية . وهى بذلك ليست على قدر من العمق فى كثير من الحالات . والصلة بين هذا المتغير والتوجيهات الدافعية والقيمية ، تمنح الفعل الطابع المميز فى الجماعة او الرابطة والتنظيم .

هذا وقد حاول بعض العلماء اضافة نماذج اخرى إلى هذه الازواج الخمس ، نذكر منها ليبزت S.M. lipset غير ان تلك النماذج المضافة مثل « المساواة القانونية فى مقابل حكم الصفوة » ، جاءت ضمن مصفوفة بارسونز وفى سياق كتاباته الأخرى . ولقد اشار بارسونز الى ان كل من العمومية والخصوصية ، والنوعية والأداء ، تتصلان بمقاييس تصنيف الموضوعات ، بينما ترتبط الوجدانية والحياد

(١) Ibid, pp. 190 - 200

الوجدانى ، والانتشار والتخصيص بتحديد الاتجاه او الميل نحو الموضوعات . وهذا ما يتسق مع التفرقة بين موقف الفعل وتوجيه الفاعل نحو الموقف . ويمكن توضيح هذا الرأى بالنموذج الآتى :

شـكل رقم (٢)



ومع ذلك يبقى هذا المخطط التصنيفى على قدر من الغموض ، لا سيما بالشكل المعقد الذى وضعه بارسونز ، وأدخل فى حيزه كثير من التفاصيل المتعلقة بموقفه من الوسائل والغايات ، والمدخلات والمخرجات . وعلى ذلك فان معالجة قضايا التمايز البنائى ، والتباين الوظيفى من خلال هذه الانماط لم تحقق الا تقدما محدودا . وعلى المستوى النظرى المجرد . ولهذا فان هذا التصنيف تعرض لانتقادات كثيرة على ما نراه فى موضعه .

رابعا : فكرة المدخل والمخرج :

من الافكار التى آثارها بارسونز فى تناوله للنسق الاجتماعى ، قضية التوازن الاجتماعى . ولهذا التوازن اكثر من مدلول ومعنى . وتعتبر العلاقة بين المدخلات والمخرجات احد جوانب التعبير عن ظاهرة التوازن ، او هى إحدى صيغها الهامة .

ولا تنفصل فكرة المدخل والمخرج عن كل من تدعيم الحدود والتغذية المرتدة ، فى تحليل بارسونز[١] . وتتجسد المدخلات اما فى شكل موارد Resources بالمعنى الاقتصادى ، او تشير الى كل العناصر المادية وغير المادية التى يمكن الانتفاع بها فى تحقيق تقدم المجتمع ونموه . ومبدأ المنفعة واسع جدا ، فهو ليس قصرا على القيم المادية التبادلية بل ينصرف الى مجمل الاشياء والموضوعات والعمليات التى ترتبط بأهداف المجتمع (الجماعات ، النظم ، الادوار الخ . .) . واستمرار تدفق المدخلات سبب جوهرى فى النمو والتقدم الاجتماعى .. واذا كانت فكرة المدخلات والمخرجات تبرز بصورة واضحة فى مجال السلوك الاقتصادى ، ممثلة فى عوامل الانتاج كالارض والخامات والعمل ، ورأس المال ، وما يقابلها من مخرجات ، كما هو الحال فى عوائد الانتاج مثل الربح والريع والفائدة ، فان الطرح الذى يقدمه بارسونز ، يتجاوز ذلك بكثير . حيث يمتد الى قضايا اجتماعية وثقافية متعددة ، من أهمها الضبط الاجتماعى (انساق الثواب والعقاب) ، ومخطط الوسائل والغايات (على النحو الذى جاء مفصلا فى نظريته عن الفعل) ، والتدعيم الذاتى او القصور الذاتى ، والانحراف الاجتماعى واخرى غيرها .[٢]

ويبدو من سياق الافكار المركبة عند بارسونز ، ان المدخل والمخرج صياغة جديدة لمفهوم العلاقة بين النسق الاجتماعى والبيئة من ناحية والعلاقة بين الانساق « المفتوحة » « والمغلقة » من جانب آخر . وتفسير ذلك ان انفتاح المجتمع كتصور محدد للنظم والجماعات على البيئة والمحيط الفيزيقى والعضوى ، بما فى ذلك الموارد والمكونات الجغرافية والطبيعية ، والكائنات العضوية الحية بل والمجتمعات الاخرى ، ويكشف عن قدرة النسق على التبادل وتدعيم وجوده ، واستمرار النشاط البشرى نحو الاضطراد فى التقدم . وهذا الاضطراد فى التقدم مرهون بتكيف الجماعات والنظم مع البيئة من المنظور العام ، وقدرتها على تأكيد وجودها . وهنا تظهر فكرة حفظ الحدود ، التى تجعل النسق الاجتماعى متميزا عن الانساق الاخرى (العضوية

---

(١) يقصد بارسونز (بالمدخلات Inputs كل المصادر والموارد والتجهيزات والعمليات التى تحدث داخل المجتمع او ترد عليه من البيئة الخارجية يرجع عام ثم تصبح جزءا منه « اما المخرجات » Output فهى باختصار الاهداف او الغايات التى تسعى اليها الجماعات والمنظمات او هى مقاصد الفاعلين .

(٢) Parsons "an outline of the social system, in theories of society", op - cit p. 60.

والفيزيقية) ، وفريدا فى الوجود . أما عن خاصية الانغلاق ، فهى تفسر سلوك ونظم الجماعات المنعزله وبعض الطوائف ، التى تأخذ اشكالات تقليدية ، وتحتفظ بوجودها الحاضر مقيدا الى حد كبير بحدود الماضى . ويشير بارسونز الى ان كل الانساق الاجتماعية الكبرى والصغرى تحقق مستوى معين من التدعيم الذاتى ، عن طريق العلاقة الدائمة والمتصلة بين المدخلات والمخرجات .

وإذا كانت الانساق العضوية تقدم لنا نموذجا حيا لفكرة المدخلات ، كما تتبلور فى التغذية والتنفس والتكيف مع غيرها ، وكلها من معطيات البيئة فان المخرجات عنده تتمثل فى اطراد اشكال النمو والبقاء وحفظ النوع . ولا يختلف الامر كثيرات على المستوى التصورى بالنسبة للنسبة للنسق الاجتماعى . فاذا ما قام قصور لسبب او لآخر فى الموارد الاساسية ، فان الاداء الوظيفى يتم على نحو غير متوازن ، أو يتعرض المجتمع لاضطراب التنظيم والانحراف[1] وعلى سبيل المثال اذا كان نقص الاكسوجين كمدخل مرتبط بالقصور فى آداء وظيفة التنفس عند الكائن العضوى ، فان نفس الشىء ينطبق على النسق الاجتماعى . فلو تعرضت بعض القيم الاساسية فى المجتمع للتفكك او التغير فان التوازن يصبح غير مستقر ، وقد تتزايد احتمالات السلوك المنحرف كما هو الحال عقب حدوث الانقلابات العسكرية والسياسية . ودون ان نفصل القول حول موقف بارسونز من البناء الاجتماعى ، وتصوره للوظائف الاجتماعية ، فإن المدخلات من الوحدات الاساسية فى بناء الانساق . وان العلاقات المقررة بين صورة وأنواع هذه المدخلات ، اقرب الى العلاقات البنائية او البناء الصورى ، كما يفهمه راد كليف براون بينما تتصل المخرجات بالأداء الوظيفى . طالما ان الروابط بين الوظائف والغايات من الامور المعترف بوجودها ، على النحو الذى يرد فى تراث علم الاجتماع والانثروبولوجيا .

والواقع ان هناك تكامل تام بين المدخلات والمخرجات ، وان قوة البناء الاجتماعى لا تنفصل عن الاداء الوظيفى الناجح . ومن الممكن ان تتجسد فكرة المدخلات والمخرجات بصورة مباشرة فى وضع الميزانية للمشروع الاقتصادى . فالعلاقة بين الاصول والخصوم (منه وله) ، ينبغى ان تكون متوازنة ، وإلا أدى الى

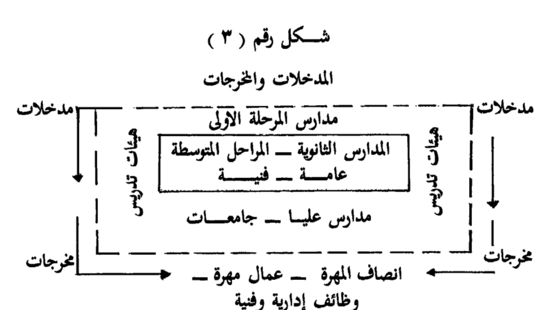
---

(١) Parcons T. international Encyclopedia, op-cit, PP. 458-73.

الاضطراب اثناء التنفيذ ، وصعوبة ترجمة الارقام إلى وقائع . وتعمل المدخلات على المستويين الافقى والرأسى لتحقيق الاداء الكفء للوظائف فى شتى الحالات . والمثال التالى يبين ذلك فى ميدان السلوك التعليمى(١)

شكل رقم (٣)

المدخلات والمخرجات



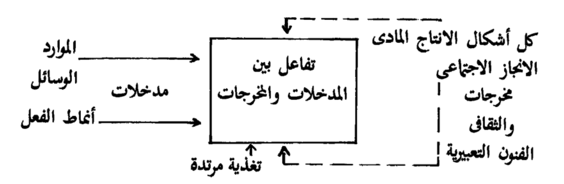
وتنبغى الاشارة إلى أن التفاعل بين المدخلات من الاهمية بمكان فى تحقيق التغذية المرتدة « Feedback » التى يعول عليها بارسونز كثيرا فى تحليله الوظيفى للانسان ، وهى مجموعات من الاثار والانعكاسات ، والافعال والاستجابات التى تسفر جميعها عن تدعيم النسق . فالمخرجات ترتد على النسق من جديد فى شكل أساليب للتطوير وفى ظهور انماط اكثر ملاءمة وتكيفا . كما فى الشكل التالى(٢) :

---

(١) Ashley and others, op-cit, PP.96-99.

(٢) Anderson, ralf and Carter, irle, Human behaviour in Social environment, a social system approach, chicago university press, chicag. 1979 PP.-27-28.

شــــكل (٤)



والجدير بالاهتمام ان فكرة المدخل والمخرج على اتصال وثيق بالملزمات الوظيفية ذات الشكل الرباعى ، والتى حددها بارسونز . فيلاحظ أولا أن وظيفة تدعيم النمط كما تتجسد فى المعايير والقيم الثقافية ، تؤدى الى مخرج اساسى ، وهو تدعيم بناء القيم . اما وظيفة التكامل والتى تكتسب قدرا كبيرا من المرونة عند الكائنات البشرية من النوع الانسانى ، ذلك الكائن السلوكى الفريد ، فانها تحقق الاستجابات الهادفة . وتبقى وظيفتى التكيف وتحقيق الهدف مجالا لتنظيم المعلومات ، وتنسيق الانماط من اجل اشباع الحاجات النفسية والاجتماعية ، طبقا لمعايير ثابتة نسبيا .(١)

خامسا : التدعيم الذاتى والنسق الاجتماعى :

يقول بارسونز أن النسق الاجتماعى محفوظ الحدود . بمعنى انه قادر على الاستمرار والبقاء . وأن فكرة القصور الذاتى المقررة فى ميدان التوازن الحياتى والانساق العضوية عموما ، تنطبق على المجتمعات البشرية وبما يتفق والطبيعة الاجتماعية مقارنة بالتكوين العضوى . وعلى ذلك فان هناك ميكانيزمات تعمل دائما على بلوغ اهداف الاستقلال الذاتى للانساق الاجتماعية ، ومنها ميكأنزمات الدفاع والتكيف ، وتعمل على ازاحة التوترات وشتى صور الصراع والتأزم ، تحقيقا لقاعدة التوازن دواما . ويعود ذلك الى أن الفاعلين افراد وجماعات ،ز مثل ورق النشاف ــ على حد تعبيره ــ قادرون ومستعدون لاستيعاب النماذج والانماط السلوكية والالتزام بالقيم

(١) Parsons, op-cit, P. 61.

والمعايير اثناء عملية التنشئة الاجتماعية الامر الذى يؤدى لقيام انماط ومواقف واستجابات ، تمكن الفاعل من الاختيار الملائم . وهذا ما يدفع بكل جوانب التوتر والاضطراب ، لتنحصر فى حيز ضيق ومحدود .

على ان هناك مسألتين هامتين فى عملية التدعيم الذاتى وهما ، موضوع « الطاقة » ثم عملية « التغذية المرتدة . ومفهوم الطاقة هنا يشتمل على كل القوى الاجتماعية والثقافية والسيكولوجية ، وايضا القدرات العلمية والامكانيات التكنولوجية ، والتنظيم الاقتصادى والسياسى . واذا كانت الطاقة هى المادة الاساسية للذرات وجزئياتها فى المجال الطبيعى ، بما فى ذلك « الشحنة » Charge مصدر ديناميات الوحدة النووية ، فان القضية تنسحب على المجتمعات البشرية ممثلة فى الحركة والاستقرار (المناظران لنوعى الشحنة الايجابية والسلبية) . وتتحول الطاقة بين الافراد والجماعات والشرائح ، ولكنه يصعب ملاحظة حركتها بشكل مباشر او غير مباشر ، وانما يمكن تبين نتائجها وآثارها على الانساق والنظم الاجتماعية ولا سيما الوحدات الصغرى . ومن مؤشرات الطاقة الاجتماعية القدرة والكفاءة فى الاداء والانجاز ، وقوة احداث التغير . وتحتفظ الطاقة الاجتماعية بخاصيتى الكمون والفاعلية . ففى حالة الكمون تبقى الامكانيات والموارد المتوفرة غير مستغلة . فاذا ما تحولت الى الشكل الآخر وهو النشاط إزداد دور الاتصال ونمت الفاعلية الوظيفية للنظم . وهكذا **نشاهد تدعيماً للأدوار** والمناشط .

ففى مجال الاسرة يقوى التفاعل بين الزوج والزوجة ، وفى ميدان العمليات الثقافية ، تزداد كثافة الاتصالات وتتعدد اساليبها ووسائلها وتتطور رموزها . ومن اجل ذلك ، فان كل من اساليب الاتصال والتواصل الاجتماعى ، ووجود القدر الملائم من المعلومات عن الموضوعات الاجتماعية والثقافية من الضرورة بمكان لتجسيد دور الطاقة . وقد تكون مصادر الطاقة الانساق ذاتها ، كما قد ترد عليها من البيئة بما تشتمل عليها من انساق اخرى . ويشير بارسونز الى ان فكرة الطاقة اتخذت صورا متعددة لدى العلماء . فقد استخدمها فرويد تحت مقولة « اللبيدو » ، ليشير بذلك للطاقة النفسية الجنسية بالمدلول العام والواسع . واصبح هذا الموضوع المنطلق الاساسى لتفسيره لكثير من الظواهر المرضية والسوية ويعتقد بارسونز أن للطاقة النفسية دور هام فى بناء الشخصية ، بينما تعتبر طرق ووسائل واوساط التبادل

والتفاهم المشترك ، مصدر الطاقة فى المجال الثقافى . وتتباين المصادر الاخرى للطاقة حسب طبيعة ونوع النسق الاجتماعى . ففى مجال التنظيم العسكرى تعد القوة البدنية والمعدات ، وتسهيلات النقل ، وعواطف التضحية والايثار ، من مقدرات البناء الايديولوجى الوثيق الارتباط بنجاح العمليات العسكرية .

وتميل الطاقة الى التراكم الكمى والنمو الكيفى خلال الزمن ، بما يفيد زيادة كثافتها وتركيزها فى مجالات محددة ، تحقيقا لاستمرار واضطراد النسق نحو النمو والتركيب وتلك قضية هامة فى تحقيق الاهداف والتطلعات التى على درجة من التحول والتبدل بين الاجيال .[1] وهذا التحول والنمو يقابل مفهوم « الديناميكا » الاكثر إتساقا مع طبيعة المجتمعات البشرية ويسمح التكوين الدينامى للطاقة بمرونة اكبر للتحول من مجال لآخر . عن طريق تحريك زوائد الطاقة من نسق لآخر يعانى من نقص القدرة والكفاءة على نحو ما يتأتى فى تعويض النقص البشرى والفنى فى بعض مجالات الحياة واثناء الازمات ، عن طريق القوات المسلحة . كما ان هناك وحدات تزداد فيها عناصر الطاقة عن حاجاتها ، ولهذا فان التخطيط القومى من ابرز واهم الاساليب فى اعادة توزيع الطاقة ، أو اقامة توزيع أمثل للموارد والحاجات . ومن الامثلة التى تعوق التوزيع الوظيفى الامثل أو الملائم للطاقة فى الانساق الاجتماعية ، التفرقة العنصرية فى مجتمع الولايات المتحدة وفى جنوب افريقيا . وتحول الاعتبارات غير الموضوعية فى توزيع الطاقة دون تحقيق الاهداف وتؤثر على التكامل الاجتماعى .

أما عن التغذية المرتدة ، فهى عملية تكسب الاداء طابع الحمو والحماس والفاعلية ، وتتصل بما يطلق عليه بارسونز « الدافعية الملائمة » . ووظيفة التغذية تقريب الوحدات المكونة للنسق وربطها معا . وهى اصطلاح وتصور للدلاله على الالتقاء والتقابل والالتحام بين الافعال والاستجابات والوسائل والغايات ، بما يدعم الوحدة ويضاعف من التماسك الاجتماعى . وهذه العملية لا يمكن تفسيرها من مجرد الملاحظة البسيطة للعلاقة بين الفعل ورد الفعل ، والمؤثر والأثر او السبب والنتيجة . وإنما يقتضى التحليل الكشف عن دور الانعكاسات المختلفة فى تدعيم الوحدة محل الدراسة او التكيف الملائم ، او صيانة النسق . فالعلاقة بين المؤثرات والاستجابات

---

(١) Anderson and Carter, op-cit, PP. 6-10.

ينبغى أن تتجاوز منطق الافعال المنعكسة ، إلى مجال التفاعل النشط فى ظل افضل الشروط ملائمة بالنسبة لكل من الفاعل والموقف معا . وعلى سبيل المثال ، لا يكفى فى الانساق العسكرية أن يستجيب الجنود لنداء القائد أو طاعة الاوامر حتى تحدث التغذية المرتدة ، بل أن تلك الاستجابة لابد أن تقترن بالفهم الواعى لدور كل من الطرفين ، مع الاتفاق على الوسائل والاهداف ، وقيام تفاعل من نوع ما ، يستطع القائد من خلاله ، معرفة معوقات العمل وكيفية مواجهتها ، كما يتمكن الجنود من طرح المشكلات التى تعترض الانجاز ، مع اقتراح حلول لها . وهذا ما يكسب التفاعل صيغته النشطة ، وينعكس بالتالى على النسق فى شكل منطلقات للتدعيم الذاتى .

وتصبح وظيفة الارتداد ، تبادل المعلومات والخبرات ، مع تكثيف الطاقات وتوزيعها باسلوب افضل على العناصر او الوحدات التى تكون النسق . فاذا لم تتوفر عوامل التدعيم من الداخل ، يمكن الاستعانة بقدرات الانساق الاخرى . وهذا ما يتجسد بقوة فى استخدام الطاقات من مصادر خارج القوات المسلحة كلما كان ذلك ضروريا . وإذا كانت التغذية المرتدة تعمل على تدعيم النسق ، فإن هناك صور أخرى للتغذية المضادة (او السلبية) ، والتى تعتبر معوقة وظيفيا للانجاز والاداء الكفء . فقد يواجه الطفل اثناء آداء نشاط اللعب ببعض النعوت الضارة او السيئة من قبل الاسرة ، أو الرفاق . واذا ما ارتكب احدى صور السلوك المناهضة للقيم ، ووجهه بمواقف غير مناسبة من ابوية ، او مدرسيه ، واتسع مجال النعوت إلى وصفه بالغباء والتخلف والشذوذ ، بما يتجاوز حدود الافعال ألتى بدرت منه ، انتقل موضوع التصور من المحيط إلى ذات الطفل ، وتبدأ استجاباته للآخرين تتسق مع افكارهم عنه . وهكذا تتراكم الاثار السلبية ، وتمتزج المشاعر والاتجاهات فى نفسية الصغير ، فتدعم خلق الانحراف ، وتلك احدى صيغ التغذية المرتدة . وتجدر الاشارة إلى أن نتيجة الاختبارات النفسية ، إذا ما أجريت على مثل هؤلاء الصغار ، تكون انعكاسا لآثار التغذية المرتدة ، اكثر منها مقياسا للسمات أو الخصائص المفترض انها ترتبط سببيا بالانحراف . خاصة وان فكرة الفرد عن نفسه تؤثر بشدة على الأداء فى اختبارات الشخصية . ويصبح التأويل اعتمادا على هذه النتائج غير موضوعى .[1]

(١) Ibid, P. 23.

ولقد حاول بارسونز تطبيق مفهوم السيبرنا طيقا على النسق الاجتماعى ، بما يشبه الى حد ما تطبيقها فى مجال الطبيعيات ، فقال بأن تعقد العلاقات الاجتماعية فى المجتمعات الصناعية الكبيرة ، وتعدد صور المعاملات ، وتطور نظم التعاقد وتنوع مجالاتها ، استلزم ضرورة الضبط والتحكم فى الميكانيزمات الاجتماعية تمشيا مع تعقد التنظيم . وهذا احد مؤشرات التراجع عن فكرة الطوع أو الارادة الحرة ، فى نظرية الفعل .(٢)

سادسا ــ الأبعاد الداخلية وتبادل الحدود :

النسق الاجتماعى إطار واسع للعلاقات والنظم التى تكتسب وجودا مميزا . وعلى ذلك فإن النسق يختلف عن غيره من الانساق الأخرى ، التى تقع جميعها فى الدائرة الكبرى للوجود ، وهى البيئة من المنظور الشامل . ويترتب على ذلك أيضا أن النسق الاجتماعى مثل النسق العضوى ، يتمتع بالقدرة على حفظ وجوده ، عن طريق العناصر والوحدات التى تدعمه ، والتى تحقق تناغما بعضها مع البعض الآخر عند مستوى معين . وهذا هو معنى الأبعاد الداخلية للنسق . ومن جانب آخر فإن الحد أو « التخم » يعني مقدار الطاقة الاجتماعية ودرجة تركزها فى كل وحدة من وحدات النسق . ذلك أن الحد هو الحائل بين انتقال وانتشار وتبادل الطاقة داخل إطار النسق ، وتحولها من نقطة المركز أو النواة إلى خارج الحدود أو نحو الانساق الأخرى . فالطاقة تكون أشد كثافة وأعظم تأثيرا فى الوحدات الأساسية أو العناصر الجوهرية . وتميل هذه الكثافة نحو التناقص كما يقل التأثير ، كلما اتجهت الطاقة من مراكز النشاط إلى الحدود ، أو الهوامش ، أو خطوط التماس .

ولتفسير قضة الحد ، نضرب مثلا بالأسرة كنسق . وفيها تتميز العلاقات بالكثافة والانتشار والعمق ، كما تكون الأدوار واضحة المعالم فى علاقة الأب بالأم ، والآباء بالأبناء . فإذا أقام الزوج علاقة بأحد الجيران ، أو شاركت الأسرة كلها فى نشاط مع الأسر الأخرى ، فإن مثل هذا النشاط يعد من قبيل تحول الطاقة من المركز إلى المحيط . وتكون علاقة الأسرة بالأسر الأخرى ، أدنى مستوى من حيث الكثافة

(١) Parsons T., tje system of modern societies, prentice-Hall, London, 1971, PP. 7-9.

والشدة عنها بالنسبة للعلاقات الداخلية ، بين الأب والأم والأبناء(١) . ودخول الطفل بالتبنى إلى نطاق الأسرة ، مثال آخر لفكرة عبور الحد الخارجى والالتحام بالأبعاد الداخلية للعائلة . حيث يصبح جزء منها ، ويؤدى دورا فيها . أى يجسد الصورة البنائية ، ويترجم عن الأداء الوظيفى . ومن جانب ثالث فإن مفهوم الحدود إيضاح للعلاقة بين النسق الاجتماعى وغيره من انساق البيئة . وتفصح ديناميات هذه العلاقة عن وجود ظواهر مستقلة استقلالا كاملا ، لأنها من السمات المميزة لهذا النسق دون غيره ، وأخرى يكون استقلالها نسبى ، وثالثة مشتركة بين الانساق جميعها . فالعلاقة بين التكوين العضوى عند الانسان وبعض الحيوانات الراقية ، أو تلك التى تنتمى إلى الآدميات بالمعنى الانثروبولوجى ، تعتمد على أصول مشتركة أو متقاربة على الأقل . بينما يستحيل قيام تبادل فى الحدود بين انساق الطبقات والبيئة الطبيعية من حيث هى كذلك .

وعلى الرغم من أن تعريف بارسونز للنسق الاجتماعى فى صيغته العامة ، ينطوى على شمول عناصر جغرافية وبيئية معينة ، فإن منطق التحليل هنا يتصل بجانب من الدراسة ، أو بجزئية لا تنسحب على مجمل الأفكار والآراء . وعلى ذلك فإن نموذج الشخصية المنطوية لا يسمح بالتبادل مع الآخرين ، لأن تركيز الطاقة النفسية (فى نسق الشخصية) يجنح بشدة نحو الداخل . ويصعب أو يستحيل قيام علاقات اجتماعية بين أفراد ينتسبون إلى إحدى الطوائف الدينية وغيرهم ، مثل طبقة العبيد أو (السودرا Sodra) ، كما هو الحال فى الهند ، بينما تحتفظ العلاقات بين البيض والزنوج فى الولايات المتحدة الأمريكية باستقلال نسبى(٢) . والجدير بالاهتمام أن بعض الملامح الثقافية المميزة للجماعات ، مثل الشعارات ، والرموز والاشارات ، وتقاليد الملبس ، والطقوس والمراسيم ، تؤدى دورا هاما فى خلق الفواصل بين الوحدات فى داخل النسق ككل .

بيد أن الطاقة الاجتماعية فى المجتمعات الصناعية ، دائمة الحركة ، وتدفع باستمرار نحو تبادل الحدود وتداخلها أحيانا . فإذا كانت العلاقة بين الاناث والذكور

(١) Parsons, "An outline of social system, op-cit, P. 36.

(٢) Buckley Walter, Socio?ogy and modern systems theory, prentice-Hall, 1967, PP, 207-215.

تتوقف عند حدود مرسومة لها عند بعض الجماعات والمجتمعات ، فإن انفتاح الانساق الحديثة ، ووجود تكافؤ الحقوق والواجبات ، وتبادل فى الأدوار بين الأنثى والذكر ، يجعل من الصعب التمييز بين حدود أضحت مجالا للتحول المستمر فى الطاقة . ولا تحول الفواصل الجغرافية والظروف الطبيعية دون تحولات النشاط على الرغم من تباعد المسافات . فالتبادل والتفاهم المشترك بين اليهود المقيمين فى اسرائيل وبين غيرهم من اليهود فى شتى بقاع العالم ، على جانب كبير من الفاعلية والنشاط . ولعل هذا هو السبب أيضا فى اختلاط الحدود حول ماهية المجتمع اليهودى وصعوبة الفصل فى قضية التمثيل الحقيقى للشعب اليهودى . ويشير بارسونز إلى أن العلاقات الوثيقة بين نسقين ، تعنى التداخل الشديد فى الحدود ، كما هو الحال فى ارتباط نسق القرابة بنسق الأسرة . وتعتبر عمليات مثل الانتقال والاستعارة والامتصاص الثقافى وغيرها مؤشرات دالة على التبادل فى الحدود بين الانساق الثقافية .

إن التفرقة بين الانساق من حيث خاصيتى الانفتاح والانغلاق ، أو التبادل والاستقلال الذاتى وغيرها من الأفكار المناظرة ، من الأمور النسبية . وقد تبلور مضمون الانساق المغلقة عند زنانيكى . كما ناقش باريتو مفهوم الحدود الداخلية والخارجية للنسق فيما عبر عنه بالانساق الخارجية والانساق الداخلية . وذهب جورج هومانز George Homans إلى أن الجماعة تشكل نسقا خارجيا تحدده ظروف البيئة وحاجات الجماعة ، وأن النسق الداخلى هو سلوك الجماعة الذى لا يكون مشروطا مباشرة بالأبعاد البيئية . ويصف هومانز النسق الداخلى بأنه محكم elaborated ويعنى ذلك عدم احتوائه على عناصر مستمدة من النسق الخارجى ، وأن الاعتماد المتبادل بين الأجزاء ، مصدر التدعيم الذاتى[1] . ويؤكد هومانز بشدة مفهوم التدعيم الذاتى والضبط السيبرناطيقى كما يفهمه بارسونز ، عندما يذكر أن التفاعل بين النشاطات والعواطف ، يشكل ما يطلق عليه « النسق الكلى المنظم » organized whole system ، والذى يختلف ويتباعد عن أية تصورات عضوية ، ويفهم البيئة على أنها بعد واحد ، يشير لتكيف الجماعة الذى لا يتأثر به النسق الداخلى .

---

(١) Homans, George, Human group, Routledge and Kegan Paul, London, 1957, PP, 104-107.

هذا ويمكن القول بأن أفكار بارسونز تنطوى على التفرقة بين « موقع الحد Location Boundry » أو محوره ، وبين خطوط التماس ، التى يعنى تجاوزها ، اتصال النسق بغيره من الانساق ، فيما يعرف باسم تألف خطوط الاتصال بين نسقين متميزين . فالطفل أثناء النمو يسعى إلى التعبير عن ذاته ونشاطه الخاص أولا ، ويميل إلى إبراز هويته ككيان مستقل ، من أجل أداء دور بارز فى نسق أكبر هو الأسرة ، التى تعتبر بدورها البيئة المحيطة بنسق شخصية الطفل . ولا تنفصل الملزمات الوظيفية المشار إليها من قبل عن تصور بارسونز لفكرة التبادل فى الحدود والاستقلال . من ذلك أن وظيفتى التكيف وتحقيق الهدف ، تتصلان بالحدود الخارجية للنسق ، بينما يكون ارتباط التكامل وتدعيم النمط بالأبعاد الداخلية للنسق أشد ، إلا أن الأمر يتعلق بالنسبية الاجتماعية فى النهاية . ولهذا تخضع الأنساق فى بعض الظروف لاجراءات غير مألوفة ، تحقيقا لفكرة التدعيم فى ظل شروط بالغة الدقة . فإعلان الأحكام العرفية وقت الحرب أو إبان الأزمات الشديدة ، مثالا للنشاط الموجه نحو هدف داخلى ، لتقليل احتمالات الاضطراب الاجتماعى ، أو تبدد الطاقة وبالتالى الاخلال بتوازن النسق . وممارسة سلطة القسر من قبل أجهزة الضبط الاجتماعى حيال سلوك المجرم ، أو من جانب الأسرة نحو الطفل ، كلها تؤكد تبادل الحدود بين الأدوار والمناشط كما تكشف عن أهمية ما يعرف بالنسق البؤرى Focal System . وهو مركز النشاط ، ودائرة التمركز فى وحدات الطاقة ، بجانب كونه تجسيدا لمفهوم التدعيم الذاتى فى مقابل نقاط التماس ، والتى تعين علاقة النسق بغيره من الانساق . وأخيرا فإن موقف بارسونز من هذه الأفكار وثيق الصلة بالتمييز بين أنساق الفعل من ناحية ، وحدود الاتصال والتبادل بين الظواهر الاجتماعية والثقافية والسيكولوجية من جانب آخر .

سابعا ــ مكان النظم الاجتماعية من الانساق :

من أكثر المصطلحات الاجتماعية العلمية تداخلا وتبادلا فى الاستعمال النظم الاجتماعية والانساق الاجتماعية . وتلك مشكلة لم تحسم حتى اليوم ، وإن حاول بارسونز حلها على نحو يتفق وأراؤه الخاصة[1] . فقد جاء التناوب بين كلمة « نظام

(١) للوقوف على الاتجاهات المتعددة والمفصلة حيال مفهوم النظم الاجتماعية اشير إلى :
١ ــ دكتور ابو زيد أحمد البناء الاجتماعى الجزء الأول ، الطبعة الثانية ١٩٦٦ (الفصل الأول) . =

اجتماعى Social institution » و « نسق اجتماعى Social system » متكررا وشائعا فى التراث . وبينما مال علماء الأنثروبولوجيا إلى استعمال كلمة النسق كمرادف للنظام أحيانا ، وكإطار واسع يشتمل على أكثر من نظام أحيانا أخرى ، كما هو الحال فى نسق القرابة ، فإن اهتمام بارسونز بالوحدات الكبرى كالثقافات والمجتمعات ، انعكس بشدة على موقفه من قضية النظام الاجتماعى . ولهذا فإن النظم الاجتماعية عنده ، لا تخرج عن كونها انساق صغرى ولكنها انساق من طبيعة مميزة ، ولكى يتسنى لنا الكشف عن هذا الوجود الخاص للنظم الاجتماعية ، ينبغى أن نتوقف قليلا عند بعض الاتجاهات السائدة فى هذا المجال .

إن كلمة النظام تشير إلى الأسس والقواعد المستقرة للسلوك أو الثابتة ثبوتا نسبيا . فإذا ذكرنا أن الزواج نظام اجتماعى ، فإن ذلك يعنى وجود مجموعة من قواعد السلوك ، المقننة أحيانا ، لضبط العمليات والمراحل والأهداف المنوط بهذا النظام . ويصبح النظام إطارا معياريا يحكم السلوك[1] . ولقد تناول أوجست كونت النظم الاجتماعية بالتحليل ووضعها فى إطار تصوره الخاص (للاستاتيكا الاجتماعية أو مبحث السكون والاستقرار) . وجاء تفسير هربرت سبنسر مناظرا للفسيولوجيا ، أو علم وظائف الأعضاء . وفى معرض شرحه للبيئة فوق العضوية Super organic ، التى هى بيئة النظم الاجتماعية ، عقد صلة قوية بين الآداء الوظيفى فى الجسم البشرى ، والأدوار أو الوظائف التى تؤديها النظم فى الحياة الاجتماعية . وارتبط تفسير وليم جراهام سمنر للنظم بالعادات العامة customs والأعراف mores ، والتى يكتمل نضجها عندما تتحول إلى قواعد rules وأفعال وأدوار لها بناء مميز . وتصبح النظم عنده أكثر استقرار ، وأطول دواما ، وأدق تنظيما . ولهذا أطلق على النظم الاجتماعية (أساليب العوام الراقية) super folkways التى يشعر الأفراد بوجودها وضروريتها لحياتهم[2] . ويعتمد النظام على طائفة متناغمة من الأعراف . وفرق بين النظم كاملة التكوين ، والتى يتوفر لها الوجود المادى والمجرد ، والنظم غير تامة التكوين ، والتى

= ٢ — دكتور غيث عاطف ، قاموس علم الاجتماع ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٧٩ ، ص ٢٤٤ — ٢٥٠ .

(١) دكتور ابو زيد ، المرجع السابق .

(٢) Mitchel, op-cit, PP. 99-101.

تفتقر إلى البناء المادى . كما بين الدور الهام للجزاءات (الثواب والعقاب) فى تشكيل النظم الاجتماعية ولا يختلف موقف « نادل Nadel » كثيرا عن سمنر فقد ذهب إلى أن النظم طرق مقننة للسلوك أو العمل المشترك . وعلى ذلك فإن النظم الاجتماعية تتألف من الأبعاد المتناسقة والمتكاملة لحياة الناس فى عدد من المجالات المتباينة نوعا ما .

ويعبر النظام الاجتماعى عند ماكيفر Maciver عن الصور والأشكال الثابتة ، والتى يدخل الناس بمقتضاها فى علاقات اجتماعية . وفى مؤلف له بالاشتراك مع تشارلز بيج C. page ، قرر بأن النظم عبارة عن الأشكال السائدة لأساليب العمل والسلوك فى المجتمع[1] . ويفرق بين النظام والرابطة ، على اعتبار أن الأول يشتمل على الأشكال والظروف التى تكون نشاط الجماعة ، بينما تمثل الرابطة association الجماعة التى تمارس التصرفات المتفق عليها ، وأن الفرد يمكن أن ينتسب إلى أية رابطة ، ولكنه لا يمكن أن ينتمى لأى نظام . وتجدر الاشارة إلى أن التفرقة بين الجماعة والنظام ، أحد مؤشرات تمييز بارسونز بين النسق الاجتماعى أو النسق عموما ، والنظم الاجتماعية . فالأنساق أقرب فى المضمون والمعنى من مفهوم الجماعات ، بينما تعتبر النظم وحدات نوعية لأداء وظائف محددة . وقد اقترب فهم رادكليف براون للنظم الاجتماعية من رأى ماكيفر ، على حين ذهب مالينوفسكى إلى تفسير النظم الاجتماعية من خلال صياغته للحاجات الوظيفية ، حيث تصبح النظم وحدات للنشاط البشرى المنظم ، بهدف إشباع الحاجات . وتجسدت فكرة الاشباع هذه بقوة عند بارسونز ، حين قرر بأن الانساق الاجتماعية تميل إلى تحقيق الجانب الأكبر من المتطلبات الأساسية للأفراد والجماعات[2] .

ولكل من تشارلز كولى ، وبيرستيد R. Bierstd ، وموريس جنزبرج M. Ginsberg وتشارلز الوود C. Ellwood ، وجولدنر ، وشينوى E. Chiny ، وكنجزلى دافز ، وهاملتون W. Hamilton من علماء الاجتماع ، وإيفانز بريتشارد Evans Pritchard وفورتيس Fortes من علماء الانثروبولوجيا ، مواقف مفصلة عن مشكلة النظام الاجتماعى . وكلها تكشف عن أن النظم الاجتماعية تختلف بالضرورة عن

---

(١) دكتور ابو زيد المرجع السابق .

(٢) Davis Kingsely, Human Society, New york, 1961,

مفهوم الجماعات ، ولكنها ترتبط على نحو ما بنماذج السلوك وأشكال الفعل ، وبالبناء الاجتماعى والوظيفة من جانب آخر ، ومن ثم فإن موقف بارسونز من انساق الفعل الكبرى ، يتباين كثيرا عن تصور العلماء الآخرين لمفهوم النظم الاجتماعية . بيد أن العلاقة بين تصوره للانساق الصغرى والنظم وثيقة ، طالما أن النظم الاجتماعية تقبل الانقسام إلى وحدات جزئية (انساق صغرى) ، يناط بكل منها أداء وظيفة واحدة أو عدد من الوظائف . على أن مصدر اشتقاق فكرة النسق ، ونموها عند بارسونز ، هو المجتمع بالمعنى السوسيولوجى ، والجماعات عموما ، بينما يصبح الأصل فى بناء النظم ، أنماط السلوك والقواعد التى تستند إليها . ومع ذلك تتقارب النظم مع الانساق فى عدة نقاط ، من أهمها وجود الأدوار والوظائف فى كل منهما .

ويمكن القول بأن أفكار بارسونز عن الانساق الاجتماعية تحمل معنى الشمول والاستيعاب . بحيث تشتمل الانساق على نظم ، بينما لا يحدث العكس ، فى كثير من الحالات . لأن الانساق تضم جماعات وأدوار ووظائف وعمليات ، بجانب عناصر أخرى ، ويكون النظام أحد مكونات النسق الاجتماعى . وتتداخل الانساق الصغرى (مثل الأسرة) مع النظم بشكل شديد على ما قدمت . ويبقى الاختلاف بين انساق الفعل كما يتصورها بارسونز ، وبين النظم ، اختلاف فى النطاق وفى المضمون كذلك . ولقد جاء تركيز بارسونز على المجتمعات والثقافات من المنظور الشامل ، مؤكدا باستمرار للعلاقة الوثيقة بين النسق والجماعة . ولما كان الدور الاجتماعى أحد الجوانب الأساسية فى بناء النظام الاجتماعى ، على ما يرى بارسونز ، وهو أيضا من أبعاد النسق الاجتماعى فإن النظم الاجتماعية أبنية تبلور مبادىء الاعتماد المتبادل ، والتناسق فى السلوك وتجسد فكرة التوقعات بشكل مفصل . وهى بذلك وحدات مقننة ومألوفة للأداء والجزاء وفى البناء الكلى للنسق الاجتماعى . ويعرف بارسونز النظم بأنها « مجموعة من الأدوار المتكاملة بنائيا ووظيفيا ، وأن لها دلالة تنظيمية بالنسبة للجماعات ، واضطراد التوازن فى النسق الاجتماعى » وفى موضع آخر ، يعتبر النظم الوحدات الأساسية فى صياغة فكرة البناء الاجتماعى . فيقول بأنها « نماذج الدور .. وشبكاته ومركباته .. ، أو هى مركب منمط patterned من الأدوار وتوقعات الأدوار ، التى تتصل بمجموعة من الأفراد ... »(١) .

(١) Firth Raymond, Elements of social organization, Londn, 1950., PP. 35-39.

ويقسم بارسونز النظم إلى ثلاثة مجموعات هى :

١ ــ النظم الاقترانية (التطابقية) Relational institutions

٢ ــ النظم الاضطرادية (المألوفة) Regulative institutions

٣ ــ النظم الثقافيــة Cultural institutions

وتجدر الاشارة إلى أن هذا التصنيف الغامض كما يبدو من ظاهر الصياغة ، يعتمد على بعض السمات التى تميز هذا الشكل من النظم عن الآخر . ولهذا جاء استعمال العبارات الوصفية من جانب بارسونز ، أحد المؤشرات الدالة على تلك السمات . ويفهم من النوع الأول ، تمركزه حول توقعات الدور المتبادلة Reciprocal role-expectations . بمعنى أن العلاقات المقررة طبقا لهذا الشكل من النظم ، قائمة على تبادلية الارضاء ، أو التناوب المباشر فى الاشباع غالبا . وتعتبر متغيرات النمط الخمس المشار إليها ، أحد المقومات الأساسية فى صياغة مثل هذه النظم . ومن جانب آخر تستند هذه النظم إلى مبدأ التثنية الذى اهتم به بارسونز (الوسيلة والغاية ، الذات الآخر ، المدخلات والخرجات ...) ، أو إلى ما يسميه « الانسكاب Inflow » ، ويعنى الاتجاه نحو التكوين والبناء ، « والتدفق outflow » ومعناه النمو والازهار بسبب النجاح فى الانجاز أو بلوغ الأهداف المنشودة . وتنتمى كثير من الأبعاد الايكولوجية ، والديمجرافية ، والبيولوجية ، التى لها علاقات بالثقافة والتكوين النفسى إلى هذا النمط من النظم . وتعتبر الأسرة مثالا للنظم الاقترانية .

أما النوع الثانى فهى النظم التى لا تقوم على علاقات انتشارية ، كالشكل السابق ، بل تميل للتخصص وحصر العلاقات فى نطاق محدد وضيق غالبا . ويدخل فى تكوينها عمليات أخرى أكبر أهمية ، مثل التجميع Allocation ، والتبويب ، والتوزيع Distribution ومن أبرزها النظم الاقتصادية . والشكل الثالث من النظم يجسد الصور والنماذج الرمزية ، وذات الطابع الشعائرى والطقسى . وتأخذ غالبا أنماطا متسقة البنيان ، وشديدة التماسك والالتحام ، فضلا عن تجانس الوحدات المكونة لها إلى حد كبير ، كما هو الحال فى اللغة(١) .

(١) Ibid, PP. 58-67.

ومع ذلك فإن تحليل بارسونز ينطوى على نوع من الخلط بين الانساق الاجتماعية والنظم ، لاسيما الانساق الصغرى . هذه الأخيرة التى جاءت فى أجزاء متفرقة من كتبه ومقالاته ، مرادفة فى كثير من الحالات للنظم . ويفرق بارسونز بين النظام الاجتماعى والتنظيم الاجتماعى . على اعتبار أن هذا الأخير أكثر ارتباطا بالبناء عنه بالسلوك ، بينما تعد نماذج الفعل محور تكوين النظم الاجتماعية . وهذا موقف لم يقبله ريموند فيرث R. Firth ، الذى انتقد الخلط بين البناء الاجتماعى والتنظيم . ففى الوقت الذى يقوم البناء الاجتماعى على التصور المجرد والمثالى أحيانا للعناصر ، يعتمد التنظيم على النشاط الواقعى والأداء العيانى ، وعلى اختيار الوحدات الأشد ارتباطا بالانجاز(١) .

ثامنا ـــ موقف النظرية السوسيولوجية من النسق الاجتماعى :

يعتبر النسق الاجتماعى من المنظور التحليلى ، الموضوع الأساسى للدراسة فى علم الاجتماع ، كما تعد النظم الاجتماعية محور النظرية السوسيولوجية . بل أنه ذهب إلى تعريف علم الاجتماع بأنه علم دراسة النظم ، وتحليل السلوك البشرى . ولقد بات البعد التحليلى عند بارسونز من الأهمية بمكان ، ودفعه ذلك إلى التجريد والبعد عن الواقع الامبيريقى فى كثير من الأحيان . ويعنى هذا الاتجاه النظر للظواهر الاجتماعية الواقعية ، على أنها مركب من عناصر تحليلية ، لها مظاهر مختلفة سياسية واقتصادية وسيكولوجية ، بجانب خواصها السوسيولوجية . وتعالج العلوم الاجتماعية كل منها فيما يخصه ، جانبا واحدا تحكمه قوانين خاصة . ويكون هذا التقسيم ممكن ومتاح من الناحية النظرية ، ولكنه يحقق تداخلا من نوع ما ، على المستوى الواقعى . وهناك علاقة طبيعية بين ضرورة الوظيفة الاجتماعية وبين نمط معين من الفعل . وعلى سبيل المثال ، فإن فكرة عرض السلع على الناس ، سواء كان طبيعيا أو ضروريا ، يشتمل على عمليات اقتصادية يصعب الفصل بينها وبين المواقف والعلاقات الاجتماعية(٢) .

---

(١) Firth Raymond, Elements of social organization, London, 195., PP. 35 - 39

(٢) Burger thomas, "Talcott parsoms, the problem of order in society, and the program of analytical sociology", A.J.S. vol. 23, No 2, (1977) PP. 320-329.

ولقد اعتبر بارسونز النظرية الاقتصادية أحد مظاهر التعبير عن الحياة الاجتماعية وأنه لا يتيسر فهمها إلا بردها للاطار العام ، التى هى جزء منه . على أن الأمر يحتاج للتنويه إلى آراء بارسونز المبكرة والمتأخرة فى هذا الصدد ، ففى مؤلفه بناء الفعل الاجتماعى ، سلك موقف باريتو ، حين اعتبر النظرية الاقتصادية نسق تحليلى مجرد ، يتناول بعض المتغيرات التى تحدد السلوك الواقعى فى المجال الاقتصادى ، مثلها مثل كل النظريات الاجتماعية الأخرى التى تفسر الظواهر الامبيريقية . ولكنه بعد نشر مؤلفه عن النسق الاجتماعى ، وفى كتابه عن « الاقتصاد والمجتمع » يقدم تصورا آخر ، يتباين نوعا ما عن الرأى السابق . فالنظرية الاقتصادية تتناول عمليات فى المجال الاقتصادى ، الذى يعتبر نسقا فرعيا متميزا عن الانساق الصغرى الأخرى فى المجتمع . وتصبح خصوصية الجانب الاقتصادى فى ضوء فكرة الانساق الاجتماعية ، مدعاة للنظر إليه ، على أنه « حالة خاصة » فى النظرية العامة للنسق الاجتماعى وتبقى المتغيرات الأساسية التى تعمل فى إطار كل الحالات الخاصة مرتبطة بالنظرية الأكثر عمومية . وتكون خصوصية النظرية الاقتصادية تبعا لذلك ، أكثر اتصالا بوحدات القياس التى تتميز بها العمليات ، دون أن تنفى تلك الخصوصية إمكانية الانتماء للنظرية الاجتماعية(1) .

يؤكد بارسونز أن علم الاجتماع ينبغى أن يظل علما تحليليا . وقد تأثر فى ذلك — وعلى حد تعبيره — بالتجريد التحليلى فى العلوم وعلم الاجتماع بخاصة ، ولاسيما آراء هوايتد وماكس فيبر ، وباريتو ، وهندرسون ، وجوزيف شومبيتر . بيد أن هذا الاتجاه لم يتوسع فيه كثيرا ، ولأن هدفه يتصل ببناء النظرية فى علم الاجتماع ، أكثر من سعيه لصياغة نظرية قائمة بذاتها . وهى محاولة على الطريق لتقديم مشروع تصورى ، ذو أبعاد منطقية قابلة للتغير . ويحدد بارسونز أبعاد النظرية السوسيولوجية ، فى أنها تتناول دراسة وتحليل السلوك البشرى ، ونماذج التفاعل ، وبحث التباين بين الأشكال والصور ، وكيفية تغيرها . وتعتبر العلاقة بين اثنين أو أكثر من الفاعلين الخلية الأولى ، أو وحدة الدراسة الأساسية . ومن المقولات

---

(1) Parsons ans Smelser, op-cit, P. 6-8.

الرئيسية فى هذه النظرية ، النشاطات ، والأدوار ، والدوافع ، والتوجيهات القائمة فى إطار بناء اجتماعى معين[1] .

وإذا كان النسق الاجتماعى فى معناه التحليلى الموضوع الأساسى فى علم الاجتماع ، فإن مدخل الدراسة فى هذا الصدد ، هو الأسلوب البنائى الوظيفى ، الذى يتلاءم بشدة مع تحليل الأدوار وعمليات التفاعل الاجتماعى ، وبناء المواقف والتراث والتقاليد والنظم . وتنقسم النظرية السوسيولوجية إلى خمسة أقسام هى :

١ ــ دراسة التمايز والتكامل البنائى ، عن طريق تحليل الأطر البنائية والعمليات المختلفة داخل النسق الاجتماعى .

٢ ــ بحث العلاقات بين النظم ، وبيان وظائفها ، وعلاقتها بالثقافة .

٣ ــ تحليل السلوك الاجتماعى ، من خلال الأدوار ، ونماذج الانجاز ، والتنشئة الاجتماعية والشخصية الأساسية .

٤ ــ تحليل السلوك المنحرف ، وبحث قضية الضبط الاجتماعى .

٥ ــ دراسة عمليات التغير الاجتماعى من المنظور البنائى والنظامى[2] .

ولقد كرس بارسونز جهده لاقامة نظام علمى على أساس تحليلى . وفى الوقت الذى ازداد الاهتمام فيه بالدراسات التطبيقية الجزئية ، كما جسدتها بشكل واضح مدرسة شيكاغو ، اختار بارسونز الاتجاه النظرى ، الذى لا يخلو من التعرض للقضايا الامبيريقية ، بشرط اخضاعها للتحليل المجرد[3] . مع محاولات مستمرة لاعادة صياغة الأفكار من جديد فى ضوء التطورات المعاصرة مع التلميح تارة والتصريح تارة أخرى إلى مدى انطباق الفكرة النظرية على الوقائع أو الظواهر المشخصة . وذلك من أجل بناء جديد ، يصبح فيه النسق الاجتماعى موضوع النظرية السوسيولوجية ، فى مقابل دراسة النظرية الانثروبولوجية للثقافة ، والنظرية السيكولوجية للشخصية[4] .

---

(١) دكتور غيث عاطف ، الموقف النظرى فى علم الاجتماع ، المرجع السابق ص ٢٥٠ .

(٢) المرجع السابق ، ص ص ٢٦ ــ ٢٧ .

(٣) Parsons T., "Comment on Burger's Critique" A.J.S., vol. 23, No 2, (1977) 335-339.

(٤) Parsons, the social system, op-sit, PP. 540è50.

على أنه يعود فى موضع آخر فيقرر بأن الانساق الاجتماعية تنبثق عن الآداء الوظيفى للشخصيات وتجسيد لتفاعلاتها ، كما هى أطر لصياغة النماذج الثقافية . وهذا ما يشكل الأرضية المشتركة لعلوم الاجتماع والنفس والانثروبولوجيا ، التى تتعامد وتتداخل قضاياها باستمرار(١) . ومع ذلك يختص النسق الاجتماعى بصفات تصلح لاستيعاب الانساق الأخرى التى لم يقصر بارسونز فى بيان مكانتها فى تحليله النسقى . وفى هذا الصدد يقول « ولا ينبغى أن يفهم القارىء اننى أرد النظرية السوسيولوجية للمفاهيم والمصطلحات السيكولوجية أو غيرها ... ، بل يجب أن يعلم بدلا من ذلك ، أن الجانب البنائى لهذه النظرية ، يقضى بوجوب وصلها بالأبعاد الدافعية .. ، نظرا لما لها من أهمية فى أداء النسق لوظائفه .. »(٢) . غير أن وجود المقولات السيكولوجية فى كل أعمال بارسونز ، أو فى معظمها على الأقل ، تجاوز الحدود المميزة لعلم الاجتماع بكثير . ويمكن القول بأن أراؤه تخدم الاطار المشترك بين علمى النفس والاجتماع ، وهو علم النفس الاجتماعى ، الذى أصبح وفقا لتصور بارسونز ، ميدانا واسعا لكثير من القضايا والمشكلات النفسية والاجتماعية . وتبقى نظرية الثقافة انثروبولوجية النشأة والتكوين .

ولكن الثقافة كإحدى انساق الفعل ، علم تحليلى وامبيريقى معا . ولا يصبح مجال البحث فيها قاصرا على خصائص الثقافة ومكوناتها ، بل يمتد إلى الدراسة الواقعية لعمليات الاستدماج ، ووظائف الرموز وغيرها من المحتويات . وفى بحث بارسونز للعلاقة بين علم الاجتماع والتاريخ . ذهب إلى القول بأن التاريخ علم تركيبى — شأنه فى ذلك شأن علم السياسة — يتناول ظواهر وأحداث وحقائق تتصل بالانسان ، وبمشكلات الحياة الواقعية ، ولكنه ليس بفرع من العلوم الانسانية . لأنه يتصل بالماضى فى المقام الأول ، ولأن الجوانب التى تتصل بالانسان فى السياق التاريخى محدودة . غير أن صفة التراكم فى علم التاريخ ، تجعله يقترب من الثقافة(٣) .

---

(١) Nonikow, Nikolai, Organizational Society, Novsti press Agency publishing House, Moscow, 1972, PP. 56-58.

(٢) Parsons, op-cit, P. 552.

(٣) Ibid, PP. 553-55.

إن اهتمام بارسونز الشديد بالدور الذى تلعبه المعايير الاجتماعية فى توجيه حياة الناس فى المجتمع ، وتركيزه على انساق القيم المشتركة ، والأخلاق والمصالح الراسخة ، دفع بعض العلماء لاتهامه بأنه من دعاة التفسير السوسيولوجى الذى يعتمد على العامل الواحد . بيد أنه وعلى حد تبعير ألفن جولدنر ، يرفض فكرة العامل الواحد ، كما أن موقفه حيال تعدد العوامل Multiple Causation Model لم يكن واضحا . فقد أيقن بدلالة (المتغيرات Variables) المستقل منها ، والمعتمد ، فى تفسير الظواهر الاجتماعية ، ولكنه آثر بالاهتمام مبدأ الاعتماد المتبادل ، وهو مبدأ وظيفى بالدرجة الأولى . وجاءت صياغته لمقولة السببية فى التفسير تطبيقا لهذا المبدأ . ولا تخلو أعمال بارسونز من النماذج الرياضية والاحصائية (الكمية) . وبالرغم من ذلك يفضل تقسيم الجماعات البشرية والنظم إلى انساق متقابلة التأثير والتأثر . ويظل الجانب الأكبر من الأفعال ونماذج التصرف ، أسيرة العوامل المعيارية ، ولا سيما الأخلاق والقيم . فهى تسبق غيرها من العوامل[1] .

والأمر الذى لاشك فيه أن الموجهات الايديولوجية لنظريات بارسونز ، تقوم على مبادىء مضادة للماركسية . وقد فهم البعض أن التزام بارسونز بالخط الفكرى لماكس فيبر ، ولاسيما موقفه من الأفكار والمعايير ، يشير للتقارب المنهجى بين ماركس وبارسونز من بعض الوجوه . إلا أن نقاط الافتراق بينهما كثيرة . ويكفى أن أشير إلى بعض الحقائق فى هذا الشأن :

١ ـــ تعتبر النظرية الاقتصادية (كنظرية صغرى) ، واحدة من الانساق النظرية ، التى تدخل ضمن الاطار العام للنظرية الاجتماعية . ومن ثم فهى فى رأى بارسونز ، جزء من النظرية العامة للفعل .

٢ ـــ ان المتغيرات الاقتصادية مقارنة بالمتغيرات الاجتماعية الأكثر شمولا ، تحتفظ بطابعها الخاص والنوعى ، ولكنها لا تستقل بحال عن المتغيرات الاجتماعية .

٣ ـــ ان النسق الاقتصادى فى مخطط بارسونز الوظيفى ، يتصل أكثر ما يكون بوظيفة (التكيف) أحد الوظائف الأربعة فى مصنفه .

٤ ـــ لا ينفصل البناء الاقتصادى عن البناء الاجتماعى ، ولاسيما عند تفسير

(١) Gouldner, op-cit, PP. 226-29.

بارسونز للمدخلات والمخرجات ، وأنماط الدور ، والتفاعل الاجتماعى ، ونسق الجزاءات (الثواب والعقاب) .

٥ — لا تستقل العمليات الاقتصادية (الانتاج ، التبادل ، الاستهلاك .. الخ ...) عن العمليات الاجتماعية ، والموجهات الدافعية فى تكوين الشخصية ، وأساليب الاتصال الثقافية .

ولا تتوقف علاقات التداخل والمناظرة بين الظواهر الاجتماعية العامة ، والظواهر الاقتصادية ، عند هذا الحد ، بل ان هناك تفاصيل كثيرة جدا فى هذا المضمار . وكلها تؤكد على أن الاقتصاد وعلاقات الانتاج بخاصة ، لا يمكن أن تصبح بناء أساسيا للنظم الاجتماعية ، كما ذهب ماركس . وان التبادل بين مقولتى الاقتصادى والاجتماعى ، يتعدى ما أخذت به الماركسية أخيرا من إقرار التفاعل بين التراكمات الكمية والكيفية ، وانعكاس النظم الثقافية على البناء الأساسى . وإيجازا للقول ، يفترق بارسونز عن ماركس ايديولوجيا ومنهجيا من ناحية ، كما يختلف عن كل الاتجاهات الماركسية المحدثة والمعاصرة أيضا فى الموضوعات والقضايا محل الاهتمام .

مناقشة وتعقيب :

النسق الاجتماعى تصور لفكرة المجتمع من المنظور السوسيولوجى ، الذى لا يستقل بحال — فى رأى بارسونز — عن الأبعاد الثقافية والسيكولوجية ، ولا سيما على المستوى الامبيريقى . وينطوى ذلك التصور على عمليات وأنماط سلوكية ، لعل أجدرها بالملاحظة صور ونماذج التفاعل المتكرر بين المشاركين فى النسق (الفاعلين أفرادا وجماعات) ، وأشكال الدور الاجتماعى ، كما تتجسد فى التوقعات المتبادلة ، والميكانيزمات التى تسيطر عليها ، وهى معقدة التفاصيل . ومن جانب آخر تدخل متغيرات النمط التى لا تنفصل عن التفاعل وبناء الأدوار ، فى السياق كمقاييس أو محكات لتنصيف وتبويب وحدات السلوك ونماذجه ، وتحديد طبيعة الفعل واتجاهاته ، ومستوى ملاءمته مع الموقف . تلك الملاءمة التى تجعل الآداء مطابقا أو غير مطابق للمعايير والقيم . فإذا ما تحقق القدر الكافى من القبول والتسويغ المعيارى ، أضحى ذلك عاملا هاما فى استقرار النسق وتوازنه ، بل ونموه واستمرار تكيفه ككل ، وقدرته على الآداء الوظيفى المتكامل ، وهنا نصل إلى فكرة التدعيم

الذاتى . وكل هذه المقومات والأبعاد ، تدفع بالضرورة إلى وضوح مفاهيم الحدود على مستوى التكوين المميز والمستقل للنسق ، وعلى مستوى خطوط التماس وعلاقات التبادل مع الانساق الأخرى ، فى إطار التقسيم التحليلى للوظائف التى حددها بارسونز تحديدا تحكميا أو قاطعا .

ومن ثم لا ينفك الارتباط بين النموذج النظرى للبدائل ، وبين الملزمات الوظيفية من أجل تفنين وتنميط أو نمزجة السلوك . وهذا ما نراه مؤكدا فى النظم الاجتماعية ، التى يعتبرها جوهر النظرية السوسيولوجية على حد قوله . وارتباط تلك الجوانب على هذا النحو ، ضرورى للصياغة التحليلية للنسق الاجتماعى . ويصبح تقسيم هذا الجزء من الدراسة إلى وحدات على ما قدمت ، من قبيل التبسيط لقضايا ومشكلات نظرية غاية فى الصعوبة والتعقيد .

هذا ويمكن القول بأن فكرة الدور الاجتماعى كبعد هام فى بناء النسق الاجتماعى ، ترجع أساسا إلى جهود بعض العلماء ، ومن بينهم لينتون ، وهربرت ميد ، وميرتون وغيرهم . بيد أن بارسونز عرف كيف يطبق المفهوم على النظم والانساق الاجتماعية بشكل مفصل ، لا يباريه فيه غيره ، فضلا عن اسهاماته الخاصة فى تحليل الدور الاجتماعى كقضية قائمة بذاتها . ومن هنا نلمس تعمقا فى دراسة الموضوعات ، لا من حيث وجودها الجزئى ، بل فى صلتها بغيرها .

وانطلاقا من هذه البداية ، فإن الأدوار الاجتماعية همزة الوصل بين النظم الاجتماعية والانساق من ناحية ، وبين انساق الفعل بعضها مع البعض الآخر ، بالشكل الذى صاغه بارسونز . ولا تنفصل الأدوار الاجتماعية عن عمليات التفاعل ، طالما أن هذا التفاعل فى أبسط صوره يقوم بين اثنين من الفاعلين الأفراد . وكل من بناء الأدوار ، وعمليات التفاعل تنعكس على تكوين النظم فى شكل نماذج وقوالب للسلوك المقبول معياريا ، والمرتبط بأهداف وغايات الفاعلين . ويكشف الميل المتزايد (فى النسق الاجتماعى ١٩٥١) نحو الأبعاد التحكمية والأرتباطات المصلحية ، فى مقابل التقليل النسبى من دور الارادة الحرة عن اهتمام بارسونز بقضية التوازن بين الاشباع والحرمان ، والمدخلات والمخرجات وغيرها ، وضرورتها للآداء الجيد وبلوغ الأهداف . وفى ذلك انطباع ملحوظ بمبدأ الموازنة المنفعية فى المجال

الاقتصادى . ولكن ديناميات التطبيق تتباين ، كما يختلف منطق التحليل عن علماء الاقتصاد على نحو ما يتجسد ذلك فى مؤلفاته بالاشتراك مع سملزر(١) .

ولهذا يؤكد بارسونز ميل الانساق الاجتماعية باستمرار إلى التوازن ، حتى تتحقق أفضل شروط العمل الوظيفى . وهذا التوازن يبدو أكثر وضوحا فى الانساق الصغرى والفرعية ، عنه فى انساق الفعل عامة . وهذا ما يتسق منطقيا مع طبيعة التوازن فى النسق ككل ، طالما أن النسق الاجتماعى يشتمل بالضرورة على وحدات صغرى أو أجزاء . وهذه الأجزاء ينبغى أن تكون منسجمة بعضها مع البعض الآخر ، وإلا امتنع التوازن العام أو كاد . وهنا نرى تطلعا غائيا يتجاوز حدود الواقع المعاش . بيد أنه يتلاءم مع المنطلق الايديولوجى من غير شك ، كما يتفق مع موقف بارسونز من تضاؤل الانساق وتداخلها . فإذا انتقلت إلى البدائل النمطية والتى تعود إلى مرحلة مبكرة من تطور علم الاجتماع ، عند هربرت سبنسر ، ودوركايم ، وتونيز ، وفيبر ، ثم تشارلز كولى وهوبوس وغيرهم ، استطيع القول بأن بارسونز أخذ أيضا عن علماء الانثروبولوجيا بعض الأفكار ، وتمكن من الخروج بتصنيف محكم للبدائل ، يتجاوز من الناحية النظرية والتحليلية كل الاسهامات الأخرى . وربما كانت متغيرات النمط تقترن فى السياق المعاصر بجهود بارسونز بمجرد الاشارة للمصطلح العلمى .

فقد جاءت هذه البدائل إطارا مرجعيا شاملا ، يصلح للمقارنة النسبية بين أوجه النشاط ونماذج الفعل ، ويعبر عن التشابه والاختلاف على مستوى الآداء الفردى والاجتماعى ويميز بين صور التجمعات وأنماط الدور ، ويبلور المضمون الثقافى والسيكولوجى معا ، فضلا عن الأبعاد السوسيولوجية . ومع كل هذا ، فإنها لا تخلو من بعض جوانب القصور ، لاسيما الغموض فى الصياغة ثم تميع الحدود التى تفصيل بين أزواج المتغيرات . ولا يقلل ذلك من قيمة الفكرة ، وإمكانية متابعة البحث فيها ، وإتاحة الفرصة لاختبارها ميدانيا فى رأى . وفى هذا الصدد قدم بارسونز نموذجا للعلاقة التفاعلية بين الطبيب والمريض وانعكاساتها على بناء الأدوار الاجتماعية ، ولكنه لا يرقى إلى مستوى التنبؤ العلمى ، وتلك قضية هامة فى النظرية السوسيولوجية . ومن جانب آخر ينطوى هذا التحليل على ارتباط الظواهر

(١) Martindale Bon, Types and nature of sociological theory Routledge and kegan paul, London, 1967, P 65.

السوسيولوجية بغيرها . والذى لا يراه متناقضا مع مذهبه الاجتماعى ، طالما أن العوامل الثقافية مثل العقائد الدينية ، والرموز ، تؤثر على الدوافع ، وعلى إدراك الفاعلين لأدوارهم فى النسق الاجتماعى ، واختيارهم للوسائل الملائمة لتحقيق الاشباع والحاجات العامة للشخصية ، التى يكون مصدرها التكوين النفسى من ناحية أخرى . ثم أن مبدأ تبادل الحدود يؤكد مرونة الظواهر وإمكان خضوعها للدراسة فى نطاق انساق الفعل جميعا ، على حد تعبير كوهن[١] .

لم يحسم بارسونز التفرقة بين النظم الاجتماعية والانساق ، على نحو مُرضٍ . ويعزو ذلك إلى التقارب الشديد بين هذه القضايا على المستويين النظرى والامبيريقى ، والذى بات واضحا فى تراث علم الاجتماع من ناحية ، كما كان مجالا للتداخل ، بل والتبادل فى الاستخدام فى كثير من الأحيان . ثم ان القضية تعود برمتها إلى مشكلة المفاهيم ككل . ولا تسمح طبيعة هذه الدراسة بطرح التساؤلات المفصلة حول علاقة المصطلحات بالأفكار والمقولات ويكفى أن نؤكد على أن جوهر النسق الاجتماعى عند بارسونز ، كان ولا يزال هو المضمون السسيولوجى لفكرة المجتمع ، والتى شاهدت تطورا معيناً خلال الزمن ، وجسدها العلماء فى أشكال متعددة . ويشتمل المجتمع على انساق فرعية أو صغرى ، من بينها الجماعات والنظم والأدوار . وبناء على ذلك فإن النظم ليست مرادفة عنده للانساق الكبرى (النسق الاجتماعى ، والنسق الثقافى ، والشخصية) ولكنها تحقق تناظرا من نوع ما ، مع الانساق الصغرى (كالجماعات ، والوظائف ، والعمليات) . ولا يفيد وجود هذه المناظرة اختلاط المفاهيم . وتكون الصياغة النظرية للنسق ، أقرب فى المعنى لمفهوم الجماعة ، أكثر من اتصالها بالنظام . لأن بارسونز عبر عن ذلك صراحة وهو بصدد البحث عن أصول فكرة النسق الاجتماعى والتى تعود بدءا إلى الجماعة المحلية المنظمة . ولا يتعارض ذلك مع دخول النظم كوحدات أساسية فى تكوين النسق الاجتماعى ، الذى يتألف من عناصر بنائية، وأخرى وظيفية متعددة ومتباينة .

هذا وإذا كان بارسونز قد استعار فكرة الحدود من باريتو وغيره ، كما أيقن بإمكانية تطبيق مبادىء التدعيم الذاتى والضبط السيبرناطيقى ، وغيرها من المبادىء

(١) Cohen, Percy, Modern sociological theory, Heinemann, London, 1968, PP. 100-104.

المقررة فى مجالات البيولوجيا والطبيعيات ، فقد نجح إلى حد ما فى تسخيرها والاستفادة منها ، بما يتلاءم وايديولوجيته الرامية إلى تكريس فلسفة التوازن الاجتماعى فى مواجهة مشكلة الصراع . تلك الفلسفة التى استقاها من الاطار العام للمجتمع الأمريكى ، واعتمادا على ما يسميه المصالح الراسخة . ومن المصالح الراسخة فى مجتمع الولايات المتحدة الأمريكية ، حقوق الانسان ، والفصل بين الدين والدولة ، والنزعة الفيدرالية . وقد عملت هذه المصالح وغيرها على استقرار المجتمع الأمريكى منذ الحرب الأهلية ، ولم يتعرض لتغيرات جوهرية داخلية أو خارجية ، إذا ما قورن بغيره من المجتمعات ، التى شاهدت تحولات كبرى بسبب الحروب والأزمات الاقتصادية والسياسية . ولعل ذلك أحد أبعاد صياغة فكرة التوازن الاجتماعى ، واشتقاق مصطلح المصالح الراسخة .

غير أن بارسونز لم يتعرض للتغير الهام والجوهرى ، الذى أحدثته التكنولوجيا فى الحياة الاجتماعية الأمريكية . وهو تغير بنائى ونظامى ، انعكس من غير شك على تلك المصالح ، وامتد إلى كل العقائد ، والايديولوجيات ، والمواقف .

وليست الثورة سوى عامل هام فى التغير البنائى ، ولكنها عامل واحد . وأن هناك عوامل أخرى كثيرة . ثم إن الصراع الاجتماعى فى مجتمع الولايات المتحدة الأمريكية ، يكاد أن ينسحب إلى كثير من ظواهر الحياة ، بما يمنع من أن تصبح قاعدة التوازن أساس النسق الاجتماعى الأمريكى ، وأن يظل الصراع هامشيا أو مغتربا ، على ما يذهب بارسونز . وتكشف التحولات الكبرى فى أوروبا واليابان عن نضوب فكرة المصالح الراسخة ، أو على الأقل تغيرها باستمرار . الأمر الذى ينفى عنها أهم مقوماتها وهى الدوام . فقد خرجت كل من الصين واليابان عن عزلتيهما التقليدية ، وعن دولة العائلة الواحدة التى يحكمها الامبراطور ، كما تقول بذلك النظريات والمذاهب السياسية ، إلى نطاق الأمم الصناعية المتقدمة .

ويذهب جورج كيلر فى مقال له عن الاتجاهات النظرية العامة فى صياغة الانساق ، إلى أن تلك الآراء التى جسدها بارسونز أكثر من غيره ، جاءت كرد فعل للميل الكلاسيكى فى العلم الطبيعى نحو استقلال الأجزاء ، ومحاولة لاستخلاص

العلاقات المجردة التى تؤلف بين الوحدات فى إطار الكل الاجتماعى ، الذى هو النسق[1] .

وأخيرا فإن الموقف التحليلى للنظرية السوسيولوجية من حيث أنها تتناول النسق الاجتماعى بالفهم والتفسير ، يقضى بضرورة الارتباط بين الجانبين النظرى والميدانى . وهذا مالم يفعله بارسونز ، الذى اهتم بالنماذج المجردة كثيرا ، فى مقابل اهتمام أقل بالبعد الآخر . ذلك ان القوة التفسيرية فى النظرية العلمية ، تكمن فى التطابق المباشر أو غير المباشر للأفكار ، والمقولات مع الكيانات الواقعية الملاحظة . وفى ذلك تدعيم للنظرية ، مع التعديل المستمر ، عن طريق إعادة الصياغة ، كلما اقتضى الأمر ذلك ، بدخول متغيرات جديدة أو خروج أخرى . وقد اعترف بارسونز بأن البعد التحليلى السائد عنده ، كان ضروريا لتقديم بناء منظم للنظرية A system atic theory فى علم الاجتماع ، يكون أكثر ملاءمة لتطور هذا العلم ، وموقفه الراهن من دراسة القضايا والمشكلات ، دون أن تتحول جهوده إلى وضع نظرية قائمة بذاتها . ومعنى ذلك أن تلك الصياغة عبارة عن مشروع نظرى قابل للتعديل ، كلما لزم الأمر .

* * *

(١) Killer George "Trends in the general theoral theory of system" B.J.S., vol. xxlv, No 1,)1973) PP. 199-120.

الفصـل الخامــس

قضايا أساسية فى نظرية النسق

ــ مقدمـــة
ــ أولا : الملزمات الوظيفية والبنائية .
ــ ثانيا : عملية التنشئة الاجتماعية .
ــ ثالثا : مشكلة الضبط والانحراف .
ــ رابعا : التوازن والصراع فى النسق الاجتماعى .
ــ خامسا : تغير النسق الاجتماعى .
ــ تعقــيب .

الفصل الخامس

قضايا أساسية فى نظرية النسق

مقدمـــة :

القضايا التى أطرحها فى هذا الفصل تعبر عن فكر بارسونز الوظيفى فى أكثر صوره تحديثا . وهى فى ذات الوقت من أهم المشكلات التى تميز موقفه السوسيولوجى . فبينما نجده يتوسع كثيرا فى تقرير قضايا التوازن والضبط الاجتماعى ، ويفصل الحديث فى موضوع التنشئة الاجتماعية ، وغيرها من الظواهر المتشابهة ، التى هى من شروط تكامل النسق وفاعليته ، ويقدم من أجل ذلك نموذج الملزمات الوظيفية ، لتأكيد ثبات النسق أو تدعيمه خلال الزمن ، نراه من جانب آخر ، يقدم صورة باهتة وغير متكاملة لدور الصراع الاجتماعى . بل انه يذهب إلى حد القول بأن كل من التوترات والانحرافات هامشية المصدر والتكوين . حيث لا تلبث القوى الاجتماعية وفى مقدمتها الضبط الاجتماعى ، أن تعيد حالة التوازن والاستقرار فى النسق ، إلى ما كانت عليه قبل وقوع الانحراف ، أو حدوث اللاتوازن ، بسرعة ودون انتظار أو تباطؤ ، ليبقى النسق متكاملا باستمرار ، وفى ظل عوامل وميكانيزمات إزاحة أو استيعاب التوترات .

وإذا كانت مشكلة التغير الاجتماعى ، من الصعوبات التى تواجه استقرار الانساق ، وهى فى نفس الوقت من القضايا التى كانت ولا زالت مثار اهتمام كبير من جانب العلماء ، ولكل موقفه ورأيه ، الذى كثيرا ما يتباين مع غيره ، فقد أيقن بارسونز بضرورة التغير الاجتماعى كظاهرة دائمة ومستمرة ، ولها عواملها ونتائجها . غير أن موقفه الخاص منها ، يتسق إلى حد كبير مع منطق التوازن الاجتماعى . ذلك

أن التغير ينقسم إلى نوعين ، أحدهما ما يسميه التغير النظامى ، وهو مستمر ويختص بتفاصيل الوحدات (الأجزاء) ، ولا يمتد إلى بناء النسق ككل . أما الشكل الآخر من التغير فهو التحول فى بناء النسق . ولا يتحقق إلا على مدى فترات زمنية متباعدة . ومع ذلك فإن نتائجه السلبية ، أكثر من آثاره الايجابية . ولا يتوقف الأمر عند هذا الحد ، وإذا كانت الظاهرة تتمتع بمقومات وجودها ، إلا أن الوصول إلى نظريته تفسر التحولات فى بناء النسق ككل ، هدف لم يتحقق بعد ، وفى إطار معرفتنا الراهنة على الأقل . ويمكن القول بالتفسيرات محدودة النطاق ، والتى تنسحب على الانساق الصغرى ، وبعض النظم الاجتماعية ، فى إطار الدائرة الكبرى للنسق الاجتماعى . وهذا ما ينهض دليلا على خلفيته الايديولوجية ، أكثر من أى شىء آخر .

أولا ــ الملزمات الوظيفية والبنائية :

تتداخل بعض المفاهيم الوظيفية أحيانا ، بما يصعب معه التمييز بينها على نحو دقيق . ومن أكثرها تبادلا واختلاطا فى الاستخدام ، المتطلبات الوظيفية ، والمستلزمات ، والملزمات الوظيفية ، فضلا عن المرادفات الوظيفية[1] . وأبادر فأقول بأن المتطلب البنائى ، هو ذلك البناء الذى تتضح معالمه أو أبعاده عن طريق صور وأشكال العلاقات الأساسية أو الجوهرية للوجود ، والتى تكون مستقرة نسبيا ، مثل مبدأ شرعية العلاقة بين الزوج والزوجة ، بينما يشير المتطلب الوظيفى إلى الجوانب الأكثر ديناميكية ، مثل الدور الاجتماعى فى الأسرة وهو مزيج مركب من أداء الزوج

(١) يعتبر المدخل البنائى الوظيفى ، احد الاتجاهات السائدة فى الانثروبولوجيا الاجتماعية ، وفى علم الاجتماع . وتتعدد التفاصيل حول ابعاد هذه الاتجاه المنهجى . بيد انه يمكن الاشارة إلى ثلاثة فروع هى :

(أ) المذهب الوظيفى البنائى : ويمثله من علماء الاجتماع بارسونز وكنجزلى . دافز وميرتون ، ومن الانثروبولوجين مالينوفسكى ورادكليف براون . وقد بالغ هؤلاء فى تقرير الشروط الوظيفية والبنائية للمجتمعات . وعلى حين آثر البعض التركيز على البناء الاجتماعى ، اهتم البعض الآخر بالوظائف الاجتماعية اهتماما بالغا .

(ب) الوظيفة التبادلية : exchange functionalism ومن روداها كيلى Kelly وبلاو Blou ، وتأخذ بفكرة التناوب فى التأثير ، والاعتماد المتبادل .

(جـ) الوظيفية البنائية التى تهتم بالصراع : ويمثلها لويس كوزر ، ورالف داهريندورف . وتقول بضرورة الصراع الاجتماعى كأحد شروط الأداء الوظيفى الناجح .

والزوجة . ولا تتطابق فكرة الملزمات الوظيفية مع المتطلبات ، ولكنها تتشابه معها . فالملزمات كما يراها بارسونز شروط ضرورية لوجود النسق ، وقد تسبق هذا الوجود أو تتزامن معه على الأقل . وهى أكثر ارتباطا بالنظرية البنائية الوظيفية ، بينما تشير المتطلبات لتوزيع الأدوار ، والشروط المتصلة بالآداء الوظيفى الجيد أو الكفء . ومع ذلك فإن التمييز القاطع بين الفكرتين أمر غير قائم(١) . ويتجلى ذلك من تعريف بارسونز للملزمات من حيث أنها مجموعة الشروط والظروف التى يجب أن تقوم فى أى نسق اجتماعى ، إذا ماكان له أن يحتفظ بقدرته على الاستمرار فى الوجود ، وذلك عن طريق إشباع ضروريات وجوده ، أو حاجاته اللازمة ابتداء من المجتمع حتى أصغر الوحدات انقساما فى الانساق الصغرى . والملزمات الوظيفية عامة لكل الانساق ، بينما يمكن للمتطلبات والتى تسمى أيضا (بالمستلزمات) أن تتصل بنموذج معين من المجتمعات . وماهو أكثر من ذلك أن الظواهر الاجتماعية فى حد ذاتها ، ليست سوى مظاهر للتكيف قبل تلك الشروط المفروضة imposed التى تعتمد على التوجيه القيمى ككل(٢) .

والجدير بالملاحظة أن ماريون ليفى ، أكد على فكرة الملزمات البنائية والوظيفية بالمعنى الذى يفهمه بارسونز فى مؤلفه (بناء المجتمع) عام ١٩٥١ . فقال بأن المجتمع يمثل نسقا مكونا من كثرة من الأفراد المتفاعلين تفاعلا ذو كفاءة معينة ، وأن هناك مضمون ذاتى ومشترك بينهم ، واتفاق على أمور كثيرة . وما يميز هذا النسق ، قدرته على البقاء عبر الزمن ، فى الوقت الذى تنتهى فيه حياة الأفراد بالموت وتعاقب الأجيال . ونصح ليفى بوجوب البحث عن الأنماط اللازمة لبقاء المجتمعات ، كما تجسدها الملزمات والمتطلبات البنائية والوظيفية . بيد أن ليفى كان أكثر اعتدالا من بارسونز الذى أكد الحتمية الوظيفية ، التى تكمن بعمق فى بيئة الفاعلين (أفراد

---

(١) انظر فى ذلك ولتراولس W. Wallace النظرية الاجتماعية ، المرجع السابق ، ص ص ، ١١ — ١٣ ، ودكتور غيث عاطف ، الموقف النظرى فى علم الاجتماع المعاصر ، وايضا قاموس علم الاجتماع لنفس المؤلف ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، ١٩٧٩ ص ص ، ١٩٤ — ١٩٩ . وكذلك اعمال بارسونز بالاشتراك مع شيلز وبيلز .

(٢) Parsons and shils, "Values, motives and systems of action" in Talcott parsons and shils, toward General theory of action, P. 195.

وجماعات) ، وتظهر بقوة فى مختلف مواقف الحياة ، ولا ينفك ارتباطها باستعداد الحاجات ، أحد المقوات الأساسية فى تكوين نسق الشخصية .

واهتمام بارسونز بالشروط المفروضة له بعد ايديولوجى ، حاول من خلاله اثبات قوة واستمرار الأبعاد الايجابية الامتثالية ، فى مقابل ضعف أحكام النقض والنفى والسلب . واستعان فى ذلك أولا بأفكار دوركايم ، ولاسيما تفسيره لظاهرة (اللامعيارية) . كما أضاف وفى مرحلة لاحقة ، بعض آراء ميرتون لمخططه الوظيفى . وبات ذلك مقررا فى أعماله المتأخرة ، حيث تجسدت فكرة التمايز البنائى والوظيفى ، وارتبطت بالبدائل النمطية على ماسوف نرى ، من اجل تحقيق مضمون التدعيم الذاتى . وعلى سبيل المثال فإن وظيفة تدعيم النمط تعمل على تصريف التوتر Tension management كلما ظهرت بدايات أو مؤشرات تدل عليه ، وبصورة متزامنة Synchronized على حد تعبير بارسونز . وهى تقوم بدور يشبه دور الأكسوجين فى تثبيت التفاعلات الكيمائية فى الجسم البشرى[1] .

ومن ثم كانت الملزمات البنائية والوظيفية ضرورية لتحقيق استراتيجية الانساق الكبرى والانساق الصغرى على حد سواء ، استنادا لقاعدة التوازن ، التى تتحكم من جانب آخر فى ديناميات التفاعل . وكلها عناصر وأبعاد تتفق والهدف النهائى عند بارسونز وهوالوصول إلى نظرية ديالكتكية وسطى A semi-dialectical theory يراد بها انتظام الأدوار والعمليات داخل النسق الاجتماعى ، وتحقيق الاشباع المتبادل ، مع حل المشكلات بتطبيق فكرة (الأوزان الصافية) net blances بمعنى شمول الحلول على تحليل الوحدات إلى أجزاء معينة ، وإقصاء أوجه التناقض والانحراف ، وإزاحة أسباب التوتر ، دون أن يترتب على ذلك تحولات جوهرية تخل بالتوازن الاجتماعى ، أو تكون غريبة عن طبيعة المجتمع[2] . ويمكن إيجاز مصنف بارسونز عن الملزمات الوظيفية فيما يلى :

(١) Parsons an smelser, P. 17.

(٢) Diesing paul, op-cit, PP. 247-247.

١ ــ وظيفة التكيف Adaptation :

يستخدم مصطلح التكيف هنا بمعنى التوافق أو التلاؤم على المستوى العام والشامل . ولا يحدث هذا التكيف قياسا على الاستعمال البيولوجى ، إلا إذا حدثت تغيرات تستوجب نشاط التكيف ، تحقيقا لاستمرار الجماعات ، ودوامها فى إنجاز المهام ، أو مواجهة متطلبات البقاء كما يدل التكيف أيضا على تحقيق التفاعل الطبيعى والسلمى ، وتجنب مواقف الصراع والتوترات ، وكل مظاهر العداء ، بالاعتماد على التغذية المرتدة ، وتوزيع الطاقات بين الوحدات أو الأقسام التى يتألف منها النسق . بحيث يمكن أن تتحول تلك الطاقات من مجالات الزيادة (الزوائد +) لى مواطن النقص (النواقص −) ، ليبقى النسق متوازنا باستمرار (عند نقطة التساوى =) . ويمكن القول بأن التوافق الذى يتبناه بارسونز من النوع المتعدد الأبعاد . بمعنى أن انسجام العلاقات بين الأفراد والجماعات ، يعود إلى طبيعة معقدة . وليست فكرة توزيع الطاقة على النحو الميكانيكى المشار إليه ، سوى نوع من التبسيط . لأن ما يظهر على أنه توافق فى جماعة من الجماعات ، قد يعتبر سلوكا غير متوافق فى جماعة أخرى .

وينطوى تحليل بارسونز لوظيفة التكيف بهذا المدلول الشامل على طائفة من المقومات أو الخصائص التى تميزها عن غيرها من الوظائف . حيث يرى أنها أكثر اتصالا بالحدود الخارجية للنسق . بمعنى أنها تحدد علاقة النسق الاجتماعى بالبيئة وبالانساق الأخرى . وينطبق ذلك على النسق الكلى (المجتمع) ، كما ينطبق على أى من الوحدات (الانساق الصغرى) . فأى علاقة بين السكان والبيئة الطبيعية التى تحيط بهم ، ممثلا ذلك فى العمل والانتاج من أجل تعديل أو تغيير جوانب معينة فى التكوين الجغرافى ، يعتبر من قبيل التكيف . وهو فى نفس الوقت تجاوز للحدود التصورية للنسق الاجتماعى إلى غيره من الانساق الأخرى . غير أن تلك الوظيفة تتجسد بشكل أفضل فى واحد من الانساق الهامة فى المجتمع ، وهو النسق الاقتصادى .

ففى الاقتصاد المعاصر ، تقوم العمليات المتصلة بهذا النسق على التقابل بين مجموعة من الموازنات ، (بين الانتاج والاستهلاك ، الأرباح والخسائر ، الادخار

والاستثمار ، الدخل والمنصرف ، رأس المال والناتج ، العرض والطلب ، الخ ..) . وتظهر فى كل هذه العمليات علاقات تبادل واتصال بين عنصرين أساسين . وينبغى أن تبقى هذه العلاقات عند مستوى محدد من الاتزان ، حتى يكتب لها الدوام والاستمرار . وهذا هو مستوى التكيف . وليست الموازنة المنفعية المقررة فى مجال الاستهلاك والانتاج وغيرها (توازن المستهلك ، توازن المنتج) سوى تعبير آخر عن التكيف بالمعنى الذى يريده بارسونز . ومن جانب آخر يشير التكيف للقدرة العامة على التلاؤم مع المطالب غير المرنة ، والمفروضة أحيانا على النسق ، مثل الظروف البيئية غير المواتية ، أو التى تهدد الوجود الاجتماعى كله ، ومنها الكوارث الطبيعية ، والتحولات الكبرى بسبب الحروب ، والغزوات ، والأزمات العامة[1] .

ويعتقد بارسونز أن وظيفة التكيف تدعم النشاط الوسيلى ، الذى يعتمد بدوره على متغيرى النمط العمومية والحياة الوجدانى . وتفسير ذلك ان هذه الوظيفة تقوم على البحث عن المصادر والموارد (المدخلات) الضرورية لحياة الفاعلين ، أو المشاركين فى النسق (أفراد وجماعات) . وهى لذلك تُعول كثيرا على الاعتبارات الموضوعية والحيادية . تلك الاعتبارات التى تكتسب طابعا نوعيا يكون متسقا مع الوسيلة أو الآداة ، وملائما لتحقيق الغاية أو الهدف فى مجال معين ، وعلى أساس من القدرات الفنية والآداء الناجح . ومن ثم فإن متغير « التخصيص » يصبح من متطلبات التكيف بهذا المعنى . على أن عنصر « التقييم Evaluation » ضرورى لتحديد الكفاءة والجدارة فى الانجاز داخل كل سياق نوعى للنشاط الاجتماعى ، ويكون اكتمال وظيفة التكيف معلقا على التكامل بين الوسيلة والغاية أو مستوى الملاءمة بين المدخلات والمخرجات . ويصبح القصور فى التكيف أحيانا ، ضرورة تستوجب الاستعانة بما تقدمه الانساق الأخرى من مساعدات تدخل فى إطار (نقص المدخلات) ، كما هو الحال فى اعتماد المجتمع الاسرائيلى على المساعدات الخارجية ، ونشاط الوكالات اليهودية . وهى تتجاوز مجال العون المادى والاقتصادى والعسكرى ، إلى الميادين السياسية والثقافية والاجتماعية . الأمر الذى يجعل التكيف هنا مقترنا بالمدخلات ، التى ترد من خارج النسق ثم تتحول إلى ميكانيزمات للتدعيم الذاتى بعد ذلك[1] .

---

(١) Parsons, Bales and shils, op-cit, chapter "5".

(٢) Wallace, op-cit, PP. 225-29.

وتتباين صور التكيف من مجتمع لآخر حسب طبيعة التوترات ومواطن القصور أو الضعف فى المدخلات ، وقدرة أفراده على مواجهة كل الظروف الخارجية والداخلية غير الملائمة . وليست المشكلات التى تنتج عن التقدم الصناعى وتطور التكنولوجيا والتحضر ، إلا اختبار لقدرة وكفاءة الانساق على التكيف الداخلى . وهذه المشكلات نفسها ، هى التى تفرق بين المجتمعات المتقدمة والنامية والمتخلفة . هذا بالاضافة إلى أن المجتمعات التقليدية تركز على وظيفتى تدعيم النمط وتحقيق الهدف ، كما هو الحال فى بعض المجتمعات الافريقية كما يعتبر استيراد التكنولوجيا من جانب المجتمعات النامية أحد صور تدعيم النمط ، بينما يكون تصديرها من قبل المجتمعات المتقدمة ، من الملامح الأساسية لوظيفة التكيف[1] .

ومن جانب آخر فإن تعدد الأدوار ، وازدياد التخصص ، وتنوع القدرات والكفاءات العلمية والفنية وغيرها ، من المسائل التى ترتبط بمعانى القوة والضعف ، أو الرخاء والفاقة ، من علامات التكيف أو عدم التكيف . ذلك لأن هذه السمات وغيرها لا تعدو أن تكون رمزا للفعل الاجتماعى ، الذى يمكن النظر إليه على أنه يزيد أو ينقص من مقدار التكيف . وتقترن الزيادة فى التكيف بالقدرة على الاشباع أو الارضاء المتبادل بين الفاعلين ، وعلى ملاءمة الآداء دافعيا ومعرفيا وثقافيا . وعلى حين يكون اتصال السلوك الوسيلى بوظيفة التكيف وثيقا ، يرتبط بالسلوك التعبيرى بوظيفتى تدعيم النمط وتصريف التوتر ، والتكامل ، بينما يصبح التوازن بين نوعى السلوك ، ضروريا لتحقيق الهدف ، أو ما يطلق عليه بارسونز أحيانا ، الأشباع الأمثل للحاجات .

٢ ــ تحقيق الهدف **Goal attainment** :

وهو ذلك الجانب من النسق الذى يرتبط بتحقيق غايات الفاعلين من خلال النشاط المشترك ، كما يجسد تحقيق الهدف الحد الأمثل للاشباع الجماعى أو المحلى والقومى ، فى مقابل تأجيل أو إرجاء الارضاء الفردى ، والتخلى عن الأهداف السريعة والجزئية فى سبيل العطاء العام . والعلاقة بين وظيفتى التكيف وتحقيق الهدف ، تكمن فى أن كل منهما تتصلان بالأبعاد الخارجية للنسق . ولما كان الهدف

(١) Johnson, Harry, sociology, op-cit, P. 52.

هنا مرتبطا بالجموع لا الأفراد ، فإن متغيرى النمط الوجدانية فى مقابل الحياد الوجدانى ، أشد ارتباطا بهذه الوظيفة . ويعنى الحياد هنا الاهتمام بالغايات المشتركة ، بينما يفسر الوجدان مبادىء التضحية الذاتية ، والتفانى فى خدمة الأهداف العامة ، والحماس الزائد من قبل الافراد نحو بلوغ الغايات المجتمعية . هذا بالاضافة إلى التأكيد على المصلحة العامة ، من أجل تحقيق متطلبات التنمية فى المجتمعات الجديدة ، وبلدان العالم الثالث . حيث تقتضى الظروف الاقتصادية والاجتماعية ، التخلى عن المطالب الخاصة للشرائح والطبقات ، من أجل رفع المعاناة العامة . وتكون الرفاهية الاجتماعية غاية مستقبلية ، يتطلع إليها الجميع . فإذا ما تحققت تلك الغاية ، فإن المجتمع يميل إلى التركيز على وظيفة التكيف أكثر مما يهتم بتحقيق الأهداف(١) .

ويعتقد بارسونز أن المجتمعات تمثل منحنيات متباينة الأشكال من حيث التأكيد على أحد الوظائف أكثر من الأخريات . وتمشيا مع تلك القاعدة ، فإن مجتمع الولايات المتحدة الأمريكية ، يهتم بوظيفة التكيف ، والتى تتجلى فى توجيه الاقتصاد الرأسمالى والنزعة المادية وتأتى وظيفة التكامل فى مستوى أقل . بينما نجد أن وظيفتى التكامل وتحقيق الهدف ، محل التركيز فى المجتمعات الصغرى والتقليدية والنامية(٢) . ومثل هذه المجتمعات فى سعيها نحو تنمية التكنولوجيا وتطوير أساليب الآداء والانجاز فى شتى المجالات ، تميل نحو بلورة الأدوار وتحديد الاهتمامات ، عن طريق عدد محدود من الأفراد ، هم المثقفين ، الذين يعتد بهم كثيرا فى الانساق النامية .

٣ ــ التكامل Integration :

تختص هذه الوظيفة بترابط الوحدات أو الأجزاء المكونة للنسق الاجتماعى . بمعنى أن الاعتماد المتبادل بين الأفراد والجماعات والأدوار ، ينبغى أن يؤدى للتماسك الاجتماعى . وهذا التماسك من المقومات أو الأبعاد الداخلية للنسق . ويقتضى التكامل زوال المفارقات ، وتعدد صور الولاء ، لتحل مكانها علاقات التوحد

---

(١) Parsons,T., An outline of social system, op-cit, P. 39.

(٢) Mills, Theodore, the sociology of small groups, Foundation of modern Sociological series, prentice-Hall of india, 1980, PP. 17-18.

والانسجام ، أو التناغم والتلاحم على المستويين الثقافى والاجتماعى ، وفى داخل الوحدات نفسها سواء كانت هذه الوحدات النظم أو الجماعات . ولا ينصرف التكامل على المستوى العام إلى جانب معين يكون مجال التركيز ، كما هو الحال فى الوظائف الأخرى ، وإنما يمتد إلى كل الأبعاد والوظائف التى من شأنها تحقيق التدعيم الذاتى أو الضبط السيبرناطيقى . فاعتماد الأجزاء بعضها على البعض الآخر ، ينبغى أن يقترن دائما بتحولات الطاقة من حيز لآخر طبقا لاستراتيجية الزوائد والنواقص التى يقول بها بارسونز ، وتحقيقا للتغذية المتناوبة والمرتدة . وفى تقابل الارادة الفردية مع الارداة الجماعية ، والتقاء المصلحة الذاتية مع المصالح العامة ، وخاصة فى فترات الحروب والأزمات الحادة ، والتى تهدد النسق كله ، ما يجسد وظيفة التكامل المستمدة أساسا من صياغة دوركايم للتضامن العضوى . وفى حدود هذا السياق ، فإن انقسام النسق إلى وحدات ، هو انقسام نسبى ، ويعتمد على تباين الأجزاء ، وهذا التباين وثيق الصلة بالآداء الوظيفى الناجح ، أو فاعلية الانجاز .

وليست هناك محاولات لاحصاء هذه الوحدات ، بيد أنها يمكن أن تكون الانساق الصغرى ، الاقتصادية والسياسية والدينية والتربوية وغيرها كما يتحقق التكامل أيضا فى التألف والانسجام بين الملزمات الوظيفية الأربعة ، والتى يعتبرها بارسونز انساقا فرعية . ومن جانب آخر ينطوى التكامل على التداخل والاعتماد المتبادل بين الانساق الكبرى ، كالنسق الثقافى والاجتماعى ونسق الشخصية ، طالما أن التصور العام لنظرية النسق الاجتماعى يستوعب كل من الثقافة والشخصية[1] . ويعتقد بارسونز أن وظيفة التكامل أكثر اتصالا بالبناء السياسى للنسق . ذلك أن الأحزاب أو الجماعات السياسية تؤثر دائما وحدة الأهداف القومية بالجانب الأكبر من اهتمامها . وتتجلى تلك الوحدة فيما تمارسه الأحزاب من طرح أساليبها فى العمل ، ومدى ارتباطها بتطلعات الجماهير ، مهما اختلفت النظم السياسية .

٤ ــ تدعيم النمط وتصريف التوتر :

: Pattern-maintenance and tension management

يتصل وجود هذه الوظيفة بالتدعيم الذاتى أو الداخلى للنسق ، وتحقيق الاستقرار والاستمرار خلال الزمن . وترتكز أفكار بارسونز هنا على مبادىء القصور

(١) Johnson, op-cit, PP,53è54.

الذاتى المستمدة من علم الميكانيكا ، وأيضا فكرة إعادة التوازن الحياتى Homo-statasis المقررة فى ميدان البيولوجيا . وتعتبر القيم والمعايير والرموز الثقافية ، دالة فى تحقيق تلك الوظيفة . ولهذا يرى بارسونز أن تدعيم النمط أكثر ارتباطا بالنسق الثقافى . وتعتبر الجماعات القرابية ، والنظم الدينية ، والمنظمات التعليمية والعلمية والتربوية من دعائم تكريس هذه الوظيفة . وتجدر الاشار الى أن انقسام هذه الوظيفة الى شقين له ما يبرره فى رأى بارسونز . ذلك أن الشق الأول ، يبرر كيفية التدعيم الذاتى وضبط المتغيرات ، من أجل الاستقرار الاجتماعى فى مواجهة التحولات ، لا سيما الكبرى منها . أما الشق الثانى فمهمته الدفاع ضد الانحرافات ، أو كل مظاهر النقض .

ويتحقق التكامل بين الوظائف فى حالة وقوع الحروب ، أو تعرض النسق للغزو الخارجى ، حيث تتضافر كل القوى لصد الهجوم أو الدفاع ، باستخدام كل الامكانيات . وتتزامن كل التوجيهات الثقافية فى انطلاقها الغائى وسيليا وتعبيريا ، ومن خلال كل أساليب الفعل وأشكال الأداء ، من أجل استمرار النمط والمحافظة على طبيعة النموذج . وهنا تبرز الى الوجود المعانى الخاصة لأنماط الشخصيات ذات التأثير القومى والسياسى ، كما تبرز القيادات التى توجه المجتمع فى ظل الشروط الصعبة . ويصبح وجود القادة الأفذاذ أو العظام ، مرهونا بعمليات الاستدماج ، وتطور ميول الحاجة ونمو الاستعدادات . وكلها من مقومات نسق الشخصية . وتعمل وظيفة تدعيم النمط على صياغة الوحدة الفكرية والعقائدية بين الفاعلين ، وتنمية الشعارات ، بما تنطوى عليه من أساليب لغوية وعبارات لها دلالات خاصة وتتلاءم مع ظروف المواقف .

ولما كانت المشكلات التى تواجه النسق تقضى بوجوب التغيير باستمرار ، فان الميكانيزمات السيكولوجية مثل الدفاع والتكيف واختبار الواقع ، تعمل على استقرار النسق ، وتصريف التوترات . ولعمليات التنشئة الاجتماعية ، ونمو القدرات الشخصية أثر بعيد المدى فى تصريف التوترات ، فى الوقت الذى تحقق فيه الثقافة دورا ملموسا فى النمط عن طريق بلورة الغايات والمطامع الثقافية فى أشكال ونماذج مؤثرة ، وتتصل دافعيا ومعرفيا بالانجاز القومى أو العام . ولا ينفصل الرمز الثقافى ، أو الشعار السياسى أو العقائدى عن وظيفة الضبط الاجتماعى . ففى حالة عدم الالتزام ، أو

الانحراف عن هذه الموجهات الثقافية ، تدخل الجزاءات لتفرض شروط الولاء ، أو لتطبيق العقوبات على غير الملتزمين (١) .

هذا ويذهب بارسونز الى القول بأن الانساق الاجتماعية تميل الى تدعيم وجودها عن طريق ما يسميه شروط القدرة والقبول بالتغير . ويعمل التمايز البنائى على الحد من التغيرات فى الجوانب الأساسية للنسق ، وجعلها قاصرة على الوحدات أو الأجزاء ، دون أن تمتد الى بناء النسق ككل . ولا يعوق هذا التغير التوازن الاجتماعى ، طالما أنه يتم بأسلوب طبيعى ومتدرج ، وقلما يأخذ شكلا مفاجئا أو يتسم بطابع الصدمة . ولأن التغير يكون من أجل التجديد والتحديث ، والتنشيط للوظائف والقدرات ، وتنمية القيم ، وليس الاخلال بالاستقرار أو قلب قاعدة التوازن الاجتماعى (٢) .

إن الاتصال بين أبعاد هذا المصنف أكبر من احتمال التفرقة بينها . فاذا تناولنا النسق الاقتصادى على سبيل المثال ، وهو حسب مخطط بارسونز ينتمى الى وظيفة التكيف أكثر من غيرها ، لتبين لنا أن هذا الانتماء على فرض التسليم به ، أمر نسبى بين الانساق أكثر منه مطلق ، فقد يوجه الاقتصاد كله لخدمة متطلبات الدفاع ، التى يكون ارتباطها بتدعيم النمط أشد . ومن ناحية أخرى ، اذا كان الهدف من اقامة المصنع كوحدة اقتصادية ، هو انتاج الصلب من أجل تغذية الوحدات الصناعية الأخرى بمستلزمات الانتاج المتخصص فى كل منها ، فان الأمر يصبح متعلقا بالتكامل الصناعى ، كما يكون أيضا من مؤشرات تكيف المصنع داخل وحدات الانتاج ككل . وقد يتحول الانتاج الى هدف قومى فى حد ذاته . وفى أوقات الحروب يتم توجيه انتاج الحديد والصلب ، بل وغيره من صور الانتاج الى صناعة الأسلحة والمعدات الحربية ، والتى تتجاوز أهميتها وتتفوق على مظاهر الانتاج المدنى ، وما يتصل بالرفاهية الاجتماعية .

وكل الوظائف المذكورة تدعم الاشباع فى اطار تحولات الطاقة ، والتغذية المرتدة واعادة التوازن ، بالمعانى التى يريدها بارسونز . وليس الأمر قاصرا ومرتبطا بوظيفة أكثر

---

(١) Parsons, op-cit, PP. 38-40.

(٢) Smelser, Neil, Sociology, an introduction, wiley eastern private limited, New Delhi, 1970, P. 228.

من الأخرى . ومن جانب آخر ، يفترض بارسونز لزوم هذه الوظائف لجميع الانساق الكبرى والصغرى . ويصبح للأبنية الفرعية أدوارها ووظائفها بالنسبة لما تعتبر جزء منه ، وهو النسق الاجتماعى . وفى اطار هذه الاسناد ، فإن لكل نسق فرعى أداء وظيفى يغلب عليه ، مقارنا بأداء وظيفى أقل . بيد أن التباين النسبى فى التركيز على وظيفة ما ، فى مقابل عدم التركيز على وظيفة أخرى ، لا يقطع بوجود التفرقة المستمرة ، أو لا ينهض دليلا على بقاء هذا التركيز خلال الزمن . ويمكن أن يتعرض للزيادة والنقص حسب ظروف المجتمعات ، والاعتبارات المكانية والزمانية . هذا بالاضافة الى الازدواج والتعارض أحيانا ، بين تواجد أو عدم تواجد وظيفة أو أكثر من هذه الوظائف فى احدى الأنساق الكبرى أو الصغرى معا . فتدعيم النمط يرتبط بالنسق الثقافى والنسق السياسى فى آن واحد على ما بينهما من اختلاف ، كما أن التكيف ، وهى وظيفة أكثر اتصالا بالنسق الاقتصادى ، قد تصبح بعدا أساسيا فى نسق الشخصية . وهنا يكون الخلط أو التبادل فى الوظائف أكثر احتمالا ، ولايكون التمييز النظرى التحليلى دالا فى هذا الشأن .

فاذا ما حاولنا وضع فكرة الملزمات الوظيفية بهذا المعنى موضع التطبيق ، يتبين لنا أنها لا تتفق وحقائق التغير والتحديث فى المجتمعات المعاصرة . ولا سيما التحولات الكبيرة التى شهدتها تلك المجتمعات ، التى انتقلت من النماذج القديمة والتقليدية ، الى بيروقراطيات الحزب الواحد ، كما هو الحال فى غانا ، وتحول النظم الامبراطورية الى الأمم الصناعية الحديثة ، كما حدث للصين . الأمر الذى يعنى ضرورة إعادة النظر فى هذه الشروط الملزمة والقول بقيام معدل متدرج للنمو والتغير ، قد يعنى الفشل وتخلف الانساق ، وليس النجاح أو التقدم . فقد أصبحت النماذج القديمة غير ملائمة فى جملتها ، ومتناقضة تماما مع طبيعة التحولات الجوهرية ، التى تقتضيها ظروف العصر وأضحى الارتباط بالأشكال القديمة والتقليدية ، لا يحقق أى من الوظائف المشار اليها[1] . وقد اتجه الوظيفيون المحدثون نحو تضمين أفكارهم الوظيفية العناصر السلبية ، بجانب النواحى الايجابية ، ووجود التغير والتطور والنمو مع التكامل والاستقرار والتوازن . وهذا ما يعبر عنه دافد لكوود ، الذى يرى بأن

(٢) Diesing, paul, op-cit, P. 252.

الوظيفيين المحدثين ، وأنصار التنمية الاجتماعية ، أيقنوا بضرورة العمل على تغيير النظم التقليدية ، وارساء بديلات لها تتفق والواقع الاجتماعى الراهن .

لقد حاول بارسونز تبرير قضاياه عن النسق الاجتماعى اجمالا وتفصيلا . ويحق لنا هنا أن نتساءل ، هل تستطيع الانساق الاجتماعية أن تدعم وجودها الذاتى عن طريق هذه الملزمات ؟ وهل تعتبر فكرة التدعيم الذاتى صحيحة فى حد ذاتها ؟ واذا ما كانت صحيحة أيمكن أن تيسر لنا التميز بين درجات النجاح أو الفشل فى الأداء الوظيفى ؟

لقد ثبت أن التداخل بين هذه الوظائف أو ما تشير اليه من قضايا أو موضوعات ، أكبر من امكانية الفصل بينها ، حتى على مستوى التجريد ، وإن أفكار بارسونز المستمد من المجالات الطبيعية والحيوية ، والقائمة على أساس المقارنة والمناظرة بين البناء الاجتماعى والعضوى ، لا تستقيم والتباين القائم بين المجالين . ذلك أن المحك الرئيسى للنجاح فى الانساق العضوية ، وفى تحقيق الوظائف الضرورية لوجودها سواء كانت تنقسم الى أربعة أو تزيد أو تنقص عن ذلك ، هو البقاء فى العيش والقدرة على الملاءمة والتكيف . لكن هذا المحك لا يعنى الا القليل بالنسبة للانساق الاجتماعية فهى لا تموت ، وقد أيقن بارسونز بذلك . ولكنه لم ينجح فى التفرقة بين الأنساق الاجتماعية والانساق العضوية حين وضع هذا التقسيم الوظيفى التعسفى ، والذى لا يمنع من وجود عناصر أخرى ، أكثر أو أقل أهمية ، فضلا عما يشوبه من مظاهر التداخل أحيانا ، والتبادل تارة أخرى ، والاختلاط فى المكونات تارة ثالثة .

فالبناء العضوى للكائنات الحية يخضع لميكانيزمات أكثر تحديدا وأقل تغيرا ، وأميل للاستقرار أو الثبات النسبى فى التكوين والوظائف . وعلى ذلك فان الانساق العضوية قادرة على تدعيم وجودها من خلال وظائف أساسية هى التغذية ، والتنفس ، والتكيف مع الأوساط المحيطة بها ، والتى تتقارب معها فى البناء بعامة . أما التدعيم الذاتى للانساق الاجتماعية ، قياسا على الانساق الطبيعية ، فليس هناك ما يدل على وجوده . واذا ما تحقق شىء من هذا القبيل ، فانه يصعب اختبار صحته ، أو ينتفى وجود مقاييس للكشف عن المظاهر التى تدعم الانساق الاجتماعية ، بسبب تغيرها المستمر ، وقد يكمن الفشل فى استمرار النسق الاجتماعى على حالته

من التوازن المستقر الذى يقول به بارسونز ، كما قد يقترن النجاح بتغير النسق ككل . وعلى حين صادف تصنيفه للبدائل النمطية قبولا نسبيا ، ومن الناحية التحليلية على الأقل ، فإن مخططه عن الملزمات يحتاج الى اعادة الصياغة من جديد .

ثانيا ــ عملية التنشئة الاجتماعية :

من الواضح تأثر بارسونز بعلم النفس فى كل نظرياته ، ويبدو ذلك من تحليله لعملية التنشئة الاجتماعية بكل ميكانيزماتها ومراحلها التى كانت ولا زالت موضع إهتمام خاص من جانب علماء النفس الاجتماعيين . واذا كانت هذه العملية لا تعدو ان تكون فى واقع الأمر سوى اكتساب وتعلم السلوك الاجتماعى ، والتكيف مع المجتمع ، واستدماج القيم والمعايير ، عبر مراحل متباينة فى التطور والنمو ، فإن موقف بارسونز لا يختلف عن غيره كثيرا . وكل ما أراده من مناقشاته المسهبة لتلك العملية ، هو إثبات الطابع المستمر مدى الحياة ولهذا الميكانيزم العام ، المرتبط باستقرار الانساق الاجتماعية وتوازنها من ناحية ، ولأنه وثيق الصلة بالضبط الاجتماعى ، من حيث أن كل منهما يعمل على مقاومة الانحراف والتوترات . ولهذا تعرض بارسونز لمختلف القيم والاتجاهات والمهارات المستدمجة ، ودورها فى بناء « الذات » ، وتطوير مفهوم الطفل عن نفسه عن طريق علاقاته مع الآخرين ، واتجاهاتهم نحوه . ويصبح الاندماج والانتماء للجماعات ، والاستجابة لمتطلبات النظم ، من مقومات هذه العملية . هذه بالاضافة الى تحديده لمجموعة من المراحل التى تتسم بالعمومية والشمول .

غير أنه لا ينطلق من أى من النظريات المعروفة فى علم النفس الاجتماعى ، أو علم النفس العام . وانما يحاول جاهدا ، تقديم صياغة تتسق والهدف من طرح المشكلة وهو بيان دورها فى النسق الاجتماعى . ولا يحول ذلك دون اثارة كثير من القضايا السوسيولوجية والثقافية ، بجانب الأفكار السيكولوجية . ويشتمل مؤلف بارسونز عن الأسرة والتنشئة الاجتماعية سنة ١٩٥٦ ، على مفاهيم وعمليات كثيرة ، تفصح عن انطباعه بالدراسات التى تناولت العلاقة بين الثقافة والشخصية . وهو الأمر الذى يزداد وضوحا فى كتابة عن البناء الاجتماعى والشخصية سنة ١٩٦٤ . ويبدو أن تركيز بارسونز على جماعة الأسرة ودورها الهام فى تطبيع الفرد بما يتفق وحدود

المشاركة فى النسق الاجتماعى ، كان مصدره القبول برأى علماء النفس حول أهمية السنوات الخمس الأولى من العمر فى بناء الشخصية ، ويكون اكتمال النضج بعد ذلك وفى مراحل تالية ، من مقدرات التكيف والمواءمة مع القيم المشتركة . والأسرة الزواجية المحدودة النطق (المنوجومية) ، هى التى يهتم بها بارسونز . ففى اطار هذه الوحدة تبدأ أبسط أشكال العلاقات الاجتماعية ، وأدنى عمليات التفاعل الاجتماعى ، التى هى بمثابة النواة لما يوجد فى المجتمع . وأية علاقة بين اثنين من أفراد هذه الأسرة تشكل وحدة فرعية للتفاعل المركب على مستوى النسق الاجتماعى .

وتفسير ذلك ان العلاقات الانتشارية ، والأدوار المتعددة فى الأسرة ، تتميز بالدوام النسبى والاستمرار مقارنة بغيرها من العلاقات التخصيصية خارجها ، والتى تكون محدودة النطاق وقصيرة الأمد نسبيا . وفى مرحلة الطفولة المبكرة حيث يكون الاشباع من النوع الشبقى ، على اعتبار أن الطفل يمثل فى تلك المرحلة كيان عضوى صرف ، وتتحدد صلاته بأمه عن طريق تلبية حاجاته الضرورية ، تتمركز العلاقات الشبقية حول عضو « الفم » ، والمناطق المحيطة به ، بما فى ذلك الرضاعة ، وتجمع الاحساسات والمشاعر . وتثور فى هذه المرحلة بعض الصعوبات التى يطلق عليها بارسونز « الأزمات الشفهية » Oral Crises وهى تتعلق فى جملتها بالمؤثرات والاستجابات التى يشارك فيها الكبار والصغار . ولبعضها نتائج سلبية ، كما أن لها نتائج ايجابية على النمو العضوى فى تلك الفترة .

وتنقسم المرحلة الفمية عند بارسونز الى قسمين ، أولهما « الاعتماد الشفهى » oral dependency ، حيث يكون استدرار اللذة تعميميا ، عن طريق لمس الشفاه ، أو كل العمليات التى من شأنها الاشباع ، أو الايحاء بالاشباع . وثانيهما « الاستقلال الشفهى » oral independency ، وتميل اللذة للتخصيص والتمركز فى مواضع محددة مثل الثدى أو الأصابع ، وهى تجسد موضوع التعلق ، أو الجاذبية الحقيقية True object attachment وفيها يظهر الطفل شيئا من التمييز تجاه الموضوعات التى تثير استجاباته . وتكون الأم فى جملتها رمز الجاذبية العامة . ويمضى بارسونز فى سرد تفاصيل أكثر ارتباطا بتحليل فرويد ، فيتناول كل من المرحلة « الأستية » ، والمرحلة القضيبية ، ويتعرض للأزمات النفسية وغيرها من المشكلات . وبتجاوز مرحلة الطفولة المبكرة ، تكتسب النزعات الشبقية صيغا صريحة ، ولكنها أكثر ملاءمة

مع عواطف الحب والاحساس بالأخوة ، والتقارب بين الذكور فى السمات وفى أداء الأدوار ، والذى يناظره على الجانب الآخر تباين الأدوار بين الجنسين (الاناث والذكور) . وبينما يميل الأخوة نحو تقليد الأدوار الوسيلية للأب ، تتجه الأخوات الى التعبير عن المشاعر والعواطف فى كثير من المواقف (١) .

ويهتم بارسونز بنسق علاقة الأم بالطفل ، من حيث أنه يقضى بتبلور الدور فى جانب (الآخر) ، بينما تبقى (الذات) ، فى مجال اشباع لحاجاتها غير المحدودة والمبهمة أحيانا ، ودون أن تعطى شيئا فى مقابل ما تأخذ . اللهم الا التعبير عن مظاهر الرضا والقبول ، والاغتباط والسرور ، أو الاستياء والنفور ، فيما أتيح لها من وسائل ، ولا سيما البكاء أو الابتسام . وكلما اضطرد النمو ، وبدأت الأدوار تأخذ طابعا أكثر تحديدا واستقلالا ، وأقل عمومية وانتشارا ، كلما كان الأداء مرتبطا بالمركز والمكانة ، ومن بين مقاييسها الجنس والسن . وتكون الأم همزة الوصل بين النسق الأصغر (الأسرة) ، والنسق الأكبر (المجتمع) . بيد أن دور الأم أكثر تركيزا فى نطاق الأسرة ، حيث تمارس أهم الوظائف المتعلقة بتبادل التوقعات فى أداء الدور الاجتماعى بين الأخوة والأخوات ، وبين الذكور والاناث ، كما تضع الأساليب الملاءمة لبناء العلاقة بين الصغار والكبار ، لا سيما ما يتصل منها بالمواليد الجدد . ومن جانب آخر تأخذ ميول الحاجة والاستعدادات طريقها الأول فى التكوين داخل الأسرة ، ويصبح تطور مثل هذه الاستعدادات ، وأيضا نمو عمليات الاستدماج ، معلقا على مستوى ودرجة اسهامها ، والتى يقدرها المجتمع الخارجى ، أو تظهر فى العلاقات بين الأسر .

وما تجدر الاشارة اليه أن بارسونز ، وعلى خلاف فرويد ، لم يكترث الا قليلا بالجوانب المرضية ، أو « العقد النفسية » التى آثرها فرويد بجل اهتمامه . وأصبح واضحا تجسيده للجانب المشرق أو التطابقى من بناء الذات . وهذا ما يعود فى المقام الأول لتباين الأيديولوجيات ، واختلاف المنطلقات الفكرية ، وافتراق مجالات الاهتمام ، ومنطق التوجيه النظرى بينهما (٢) . غير أن بارسونز تأثر كثيرا برمزية

(١) Parsons and Bales, op-cit, PP. 41-48.

(٢) Worsley, peter, and others, Introducting sociology, penguin Books, First published, 1970 P. 142.

فرويد ، وأضاف اليها تفاصيل أخرى ، تتجاوز مجرد التركيز على النمو الجنسى ومفهوم « اللبيدو » الى المضمون الثقافى لمختلف العلاقات والروابط ، وأساليب الاتصال والتعبير والدلالة ، التى تجسدها الأسر ، أولا ، فى شكل (مدخلات) ضرورية للانجاز الاجتماعى خارجها ، وبين بما لا يدع مجالا للشك كيف يرتبط الاشباع الشبقى بالمعنى العام ارتباطا لا ينفك بالرموز الثقافية . وعلى ذلك فان الاطر المرجعية للسلوك الجنسى فى الطفولة المبكرة ، تتباين استنادا للمضمون الثقافى ، أكثر مما يمكن ردها للتكوين الجنسى ، أو العلاقات المرتبطة بالاشباع الشبقى أو غيره . واتساقا مع هذا الاهتمام بدور الأسرة الحديثة فى بناء عملية التنشئة الاجتماعية ، تناول بارسونز ، وبيلز بالتحليل المراحل المتعددة لما يصطلحون عليه « دائرة التنشئة الاجتماعية » Socialization circle ، وهو اصطلاح له دلالة بالنسبة للنسق الاجتماعى ، الذى يعتمد فى كثير من الحالات على فكرة النواة ، ووجود محاور أساسية تدور فى سياق محدد ، أشبه بمركز الدائرة من حيث علاقته بالمحيط ، وبخطوط التماس ، ويمكن ايجاز هذه المراحل على النحو التالى :

١ ــ مرحلة المهـــد :

وتكون الأم فيها محور ارتكاز جميع العلاقات والروابط وبناء الدور . وينطوى ذلك على ازدواج فى الأدوار بالضرورة . حيث لا تنتظر توقعات معينة أو ممارسات يقوم بها الوليد البشرى ، وانما عليها أن تقوم بدور (الذات والآخر) معا ، وفى آن واحد . ويصبح نجاحها فى هذا الصدد مشروطا بمدى قدرتها على معرفة وادراك حاجات الطفل ، ثم تلبية هذه الحاجات فى الوقت المناسب وبالشكل الملائم . ولما كانت استجابات الرضيع غير مميزة ومبهمة فى كثير من الحالات ، فان الدور المركب الابعاد ، يقتضى من الأم حساب كل الموازنات المطلوبة بكل دقة . (بين المنفعة والضرر ، الاشباع ، والاحساس بالألم والسرور ، الخ ...) .

وتعتبر هذه المرحلة فى جملتها ، بوتقة لمختلف العواطف والانفعالات ، وبناء صور الاحساسات الحشوية للمؤثرات الخارجية وأساليب الاستدماج للموضوعات والأشخاص ، وخاصة الأم والأب .

٢ ـــ مرحلة عدم الاستقرار فى علاقة الأم بالطفل :

ويفهم من ذلك أن هذه المرحلة بداية لبعض المشكلات والأزمات ، التى تكون غالبا متصلة بالنمو والانتقال من مستوى لآخر ، بينما كانت المرحلة السابقة ، فترة استقرار نسبى . ويعود ذلك الى ما يطلق عليه بارسونز وبيلز ، ضرورة الالتقاء بين نوعى النضج البيولوجى والاجتماعى Socio-biological maturation حيث ترتبط مقومات البناء البناء التشريحى والفسيولوجى فى تطورها بظهور دور الاشارات والتلميحات والحركات ، فى ظل نسق محدود من تبادل التوقعات بين الطفل وأفراد أسرته . ويتجلى الدور التعبيرى للأم بشكل عام ، ولكنه يميل نحو التخصص ، كلما نمت القدرات البيولوجية . وعلى هذا الأساس تكون المشاعر والعواطف التى تبديها الأم نحو الأبناء شاملة لكل الأسرة ، ثم تأخذ طابعا نوعيا . حسب شروط المواقف السلوكية ، وأنواع الاستجابات . وتبدأ فى التخلى جزئيا عن الأداء المزدوج للأدوار حيال الصغار من أبناءها ، بما يتيح لهم مجالا أوسع للتعبير عن بعض المشاعر بصور تلقائية والافصاح عن الرغبة أو القدرة على أداء بعض الأدوار البسيطة . وهنا ينتقل الصغير من مكان التبعية والالحاح المستمر لتلبية رغباته الى ادراك قدر من التمييز بين العلاقات والحدود . وتلك مسألة ضرورية للأداء المستقل نوعا ما . اذ يتعين عليه أن يفرق بين المجالات ؛ الى أى مدى تنتهى علاقته بأمه ، وكيف يتجاوز مرحلة المهد الى ما بعدها ، وما هى الأساليب التى تمكنه من الانتقال مع تجنب الأزمات التى تواجهه .

وتستطيع الأم أن تمارس سلطة من نوع محدود أو نسبى ، وتحقق مستلزمات عملية ضبط السلوك من مركز قيادة وتوجيه قوى ومشروع . على أن أية تجاوزات ، أو ممارسات غير مناسبة من جانبها ، تدفع بمضاعفات شديدة ، وتزيد من مشكلات الطفولة . ويشبه بارسونز وبيلز ، علاقات الأم بالأطفال الصغار فى هذه المرحلة ، بعملية المد والجزر . بمعنى أن اشباع الحاجات عند الوليد البشرى ، يقترن دائما بالتراجع والأحجام أو الصد ، حيال بعض المتطلبات ، وفقا لمقتضيات الأحوال . فقد يسرف الطفل فى طلب المزيد من الحاجات ، أو يرغب دائما فى تحقيق توقعاته كلها من قبل الآخر (الأم أو الأب) ، امتدادا لمرحلة المهد . وهذا

ما يتطلب تحقيق الموازنة بين ما هو ضرورى ولازم وما يمكن إرجاؤه أو رفضه حسب مستوى النمو ، ودرجة التطور فى بناء الذات [1] .

٣ ـــ مرحلة انتظام العملية التعليمية :

اذا كان دور الأم من الأهمية بمكان فى المرحلتين السابقتين ، فان المرحلة الثالثة تشهد تدخلا ملموسا من جانب الأب ، ومشاركته للأم فى تكوين اتجاه موحد ومتكامل نحو الطفل . وقيام الأب بوظائف معينة فى تنشئة الصغير ، يعنى تحول فى التركيز ، حيث تتخلى الأم تدريجيا عن بعض الممارسات ، التى تكتسب صياغة أخرى ، مختلفة نوعا ما عن ذى قبل . فقد كان تمركز الأدوار التعبيرية عند الأم ضروريا ، وملائما لنمو الطفل فى المراحل السابقة ، ولكن استمرار هذه الأدوار ، قد يعوق التطور السليم للذات . ولهذا فإن الأداء الوسيلى من جانب الأم ، يحقق انجازا نوعيا فى اتجاه الأدوار المستقلة للطفل ، ويكسبها فاعلية أكبر . وبهذا تبزغ فكرة الهوية المتميزة بين الأخوة والأخوات ، ويصبح مضمون « الذات » متباينا عن « الآخر » ، من الناحيتين الوجدانية والمعرفية على الأقل . ويذكر بارسونز ، أن نسق استعداد الحاجات ، يبدأ تكوينه فى تلك المرحلة ، التى تعتبر البداية الحقيقية لعمليات التعلم والاكتساب ، بما تشتمل عليه من ميكانيزمات مركبة . ومن هذا المنطلق يميل الصغير للتقليد ، ونقل كل ما يمكنه من حماية ذاته ، والدفاع عن نفسه فى شتى المواقف ، لا سيما الصعبة والحرجة منها . وهذا ما يفضى الى المرحلة التالية .

٤ ـــ مرحلة بلوغ الهدف الحقيقى :

يريد بارسونز بالهدف الحقيقى هنا ، اكتشاف الطفل لدوره الايجابى ، وقدرته على التأثير على غيره . ومن مقومات هذه المرحلة ، النمو الكبير فى الاستعدادات ، وتطور عمليات الاستدماج للمعايير والقيم والموضوعات ، وأيضا الاندماج والتوحد مع الأشخاص ، وتقمص النماذج والأنماط الشخصية . كما يصبح بناء الأدوار أكثر تنظيما وتحديدا ، نتيجة للاختيار الملائم للموقف . ويتقلص دور الأم والأب نوعا ما ، فى اطار استخدام الصغير لمنهج المحاولة والخطأ ، والقياس والتمثيل والتشبيه . ويكون

(١) Parsons and bales, op-cit, PP. 202-205.

التدخل من قبل أى من الأبوين ، مرهونا بشروط التوافق أو الفشل . فاذا ما ظهرت بوادر للانحراف ، أضحى هذا التدخل ضروريا . وتستخدم فى هذا الشأن أساليب متعددة لضبط السلوك ، كما يطبق نظام الجزاءات (الثواب والعقاب) .

ويذكر بارسونز وبيلز أن بناء نماذج الأدوار ، يصبح من مسئولية كل أفراد الأسرة وليس الأب والأم فقط ، لأن الطفل يتأثر فى هذه المرحلة بمجموع صور العلاقات ، بين الأخوة والأخوات ، وبينهم وبين الأبوين . ويناظر بين أشكال السلوك ، والنتائج المترتبة على كل منها . فيعرف ما يثير الرضا والقبول ، وما يبعث على النفور والغضب والقلق والحرج فيحاول تجنبها (١) .

٥ ــ مرحلة التكيف والتكامل النهائى :

وتشير هذه المرحلة الى اكتمال نضج الشخصية ، وفيها يشارك الشخص فى كل الأدوار ، ويدرك أبعاد التمييز بينه وبين الآخرين ، وتتجسد البدائل النمطية ، والملزمات الوظيفية فى الأسرة ، التى تكون قد حققت مرحلة كبيرة من فسحة العمر المعتادة ، لتصبح مشاركة أفرادها فى المجتمع على قدر كبير من الاتساع . وهو الأمر الذى يجعل منها نسقا فرعيا تام التكوين ، ويتناظر فى الوظائف والبناء مع النسق الاجتماعى . كما تتحقق فيه كل العمليات والنماذج والأنماط التى توجد فى المجتمع . ولهذا كان التكامل بين الأسر ، فى سياق الدائرة الكبرى للعلاقات والظواهر الاجتماعية ، هو جوهر بناء النسق الاجتماعى .

ان آراء بارسونز حول موضوع التنشئة الاجتماعية ، تشتمل على تفاصيل كثيرة يتصل الجانب الأكبر منها ، بما يطلق عليه علماء النفس بناء الشخصية القاعدية ، عن طريق الأسرة ، وخلال مرحلة الطفولة ، وفترة الطفولة المبكرة بالتحديد . واذا كان قد شاطر علماء النفس اهتمامهم الشديد بهذه المرحلة ، فإن تحليله الذى لا يخلو من المصطلحات السيكولوجية المتداولة ، يتباين نوعا ما عن معظم اتجاهات علماء النفس ، ويميل نحو المنظور السوسيولوجى . فقد جاءت تقريراته أكثر ارتباطا بمتغيرات النمط ، ومصنف الملزمات الوظيفية ، وقضايا التوازن والتفاعل الاجتماعى ، وبناء الدور وغيرها من المشكلات التى سبق تناولها . الأمر

(١) Ibid, PP. 207-215.

الذى يدل على أنه التزم بحدود التفسير الاجتماعى ، الذى طالما أكد عليه ، ولا سيما عند تناوله لنسق الشخصية . وعلى الرغم من وجود اتفاق بينه وبين فرويد ، حيال بعض المشكلات فى مرحلة الطفولة مع تباين نسبى فى الصياغة ، فان موقف كل منهما تجاه الطبيعة الاجتماعية للانسان مختلفا تماما .

فقد ذهب فرويد الى أن تلك الطبيعة ، كما تكشف عن وجودها فى الميل الشديد للتجمع ، والتفاهم المشترك بين الأفراد ، هى مصدر الصراع والتناقض بين الفرد والجماعة . وفى ضوء هذا المذهب ، كان تفسيره لكثير من قضايا الأحلام ، والليبيدو ، والمشكلات النفسية ، كالقلق وكل الأمراض النفسية التى تعرض لها بالتفصيل . أما بارسونز فقد اعتبر اجتماعية الانسان ، مصدر نشأة المجتمع وجوهر تنظيمه . وان الهدف منها تحقيق التكيف والتوافق ، وليس اثارة مشكلات الصراع والتوتر . بل ان الصفة الاجتماعية للانسان ، هى التى مكنته من ابتداع الوسائل والأساليب اللازمة لانتقال الثقافة بكل أشكالها التعبيرية والرمزية . وان التفاعل الاجتماعى ، هو الذى جعل الوليد البشرى يصل الى مرحلة النضج ، ويصبح كائنا له شخصيته ، ودوره فى الجماعة (١) . ومن ثم فان الميكانيزمات السيكولوجية لا تحقق الا بوجود الجماعات وعن طريق التفاعل الاجتماعى ، كما أنها تظهر وتنمو مع المراحل المشار اليها سابقا ، وتبقى مرتبطة بتكوين الشخصية وأهم هذه الميكانيزمات فى تصوير بارسونز ما يأتى :

١ ــ التدعيم : Reinforcement

ويراد به بناء أنماط ونماذج للسلوك والفعل الاجتماعى استنادا الى عنصرى الاشباع أو الحرمان ، بالمعانى الواسعة لهذين العنصرين . وكل منهما يدعم النمط ، ويعمل على استقراره وتوازنه ، ونموه وتطوره ، بشرط أن يتلاءم مع ظروف المواقف ومتغيراتها وان لا تتجاوز عملية الضبط الاجتماعى ، حدود الوظيفة المقصودة منها .

٢ ــ الكف : Inhibition

ويعنى به بارسونز العمليات التى من شأنها الامساك أو التوقف عن الفعل ،

(١) Parsons, the social system, op-cit, PP. 205-207.

أو الارجاء أو التعديل . وتنتمى ميكانيزمات الكف الى ذلك البعد من استعداد الحاجات الذى يدفع بالذات إلى تجنب المشكلات والأزمات .

٣ ــ الاحلال : Substitution

ويقصد به بارسونز انتقال الشحنة العاطفية ، أو الطاقة الوجدانية ، من موضوع لآخر ، أو تحول اهتمام الشخص من الانفعال بقيمة أو نموذج سلوكى ، الى بديل لها بسبب ظروف اجتماعية ، قد تكون شديدة الوطأة . وفى هذا السياق تتأكد بعض المعانى المتعلقة بمتغيرات النمط ، ويكون دور التنشئة الاجتماعية ملموسا فى اختيار الفاعل لما هو أكثر اتفاقا مع الموقف ، والظروف المحيطة به ، سواء تلك التى يستطيع السيطرة عليها (الوسائل) ، أو التى تتجاوز قدرته . وليس الاحلال ميكانيزما سيكولوجيا فحسب بل انه مركب من عناصر ثقافية ، ورموز لها دلالة ومغذى ، ولأوساط التعبير اللغوى دور فى هذا الشأن .

٤ ــ المحاكاة : Imitation

ويشتمل هذا الميكانيزم على كل البنود والعناصر والمتغيرات المتعارف عليها ، والتى يكون من شأنها تحصيل المهارات ، والكفاءة فى الأداء ، أو اكتساب النماذج والمثل وتمثل الأعراف والقيم . ويختلف موقف بارسونز ، عن مذهب جبرائيل تارد ، فى تفسير التقليد أو المحاكاة . فبينما يكاد تارد أن يجعل من هذه الظاهرة ، محور تفسيره الاجتماعى والسيكولوجى للسلوك ، يرى بارسونز وميلز ، أن المحاكاة ليست سوى عملية واحدة من جملة العمليات الأخرى ، التى تحقق تكيف الشخص مع الوسط الاجتماعى [١] .

٥ ــ التوحد Identification

يختلف مفهوم التوحد هنا عما يقصده علماء النفس من التقمص ، والذى اعتبره فرويد احدى الصيغ او الاعراض المرضيه للانا . ذلك ان التوحد يشير الى العلاقة المتبادلة بين الذات والآخر . وهى علاقة تقوم على الولاء والاخلاص لاسيما فى مجال الاسرة ، حيث يصبح الاب او الام نموذجا Model للإندماج ، الذى يأخذ

---

(١) Ibid, PP. 208-210.

اشكالا معينة من تمثيل الدور ، والالتزام بالقيم ، التى وجدت تجسيدا لها فى شخص ما . ولا يصبح التفسير متعلقا هنا بأية معان للتبعية المطلقة من قبل الذات للاخر ، مع عجز الاول عن محاكاة النموذج او إنتفاء القدرة والخضوع التام للثانى ، على نحو ما تقرره بعض الآراء .(١)

والواقع أن هناك ميكانيزمات أخرى أقل أهمية ، تعرض لها بارسونز وبيلز ، وهى تتصل بالجوانب الدافعية فى السلوك ، وبمشكلات الضبط والانحراف فى الاسرة والجماعات الاخرى ، ولاسيما جماعات الرفاق فى المدرسة ، وأثناء اللعب ، وخلال الانتساب للجماعات والروابط الاختيارية والطوعية ، التى يكثر انتشارها فى الانساق المعاصرة . ولا يخلو تفسيرهما لهذه القضايا وغيرها من الشروح المطولة التى تفيد ارتباط المضمون السلوكى للشخص وبناء الشخصية القاعدية للطفل ، بالعلاقات الاجتماعية والاوساط الثقافية بما فى ذلك تكوين الادوار والمكانات ويمكن القول بأن بارسونز تأثر كثيرا فى تحليله الاخير ، بأفكار هربرت ميد الوظيفية عندما اعتبر المكانة الاجتماعية مستودع Location الإستقرار نماذج تكوين الدور الاجتماعى ، وان هذا التكوين يبدأ فى آخر مرحلة الطفولة . وكلما تكررت الادوار اكتسبت صفة ثابتة نسبيا وهى ما نطلق عليها المكانة ، بينما تميل الى تسمية الوظائف الاكثر تغيرا ، والمشاركات ذات الطابع الديناميكى بالادوار . ولا ينفصل بناء المكانة عن تكوين الدور من الناحية الواقعية .

ويرى بارسونز ان دراسة هذه الجوانب الوظيفية من حيث علاقتها بالتنشئة الاجتماعية لا يقل اهمية عن نظريات التحليل النفسى وغيرها من النظريات السيكولوجية لأن هناك من الثقافاتماينطوى على ايجابيات ، تيسر باستمرار الاداء الوظيفى الكفء وتعمل على تدعيم الانجاز الاجتماعى ، وتضمن من جانب آخر ، ازدهاره وتقدمه . ومنها الثقافات المفتوحة على غيرها ، بينما تدفع بعض النماذج الثقافية بكثير من المعوقات الوظيفية ، او تجنح بالاشخاص نحو الانحراف . ولما كان تكوين الادوار لابد ان يمر بمراحل متدرجة فى النمو والتقدم ، والاكتساب والتعلم ، أصبحت عملية التنشئة الاجتماعية فى محتواها الثقافى على جانب كبير من الاهمية ، لاسيما وأن هذا المحتوى الاخير ، يجسد الاعتبارات الموضوعية الوظيفية بجانب القدرة الخاصة

(١) Ibid, PP. 226-235.

للأنا ، ولأن تكوين الذات لا يستقل بحال عن عملية التفاعل الاجتماعى ، بالشكل الذى سبق الكلام عنه .[1]

ولا يتوقف الامر عند هذا الحد ، بل ان بروز الهوية الاجتماعية للذات ، المدركة لوجودها ونشاطها ، والاهداف التى تسعى اليها ، لا يتحقق فحسب عن طريق تبلور مفاهيم مثل ، تناول الدور ، وتمثيل الدور ، وبناء المكانة وغيرها من الموضوعات المذكورة سابقا ، بل انه يعتمد بالمثل على تطور متغيرات النمط اثناء المراحل المتعددة للتنشئة الاجتماعية . وتختلف البدائل التى تقدمها الاسرة ، عن تلك التى تساهم فى تكوينها المدرسة وسائر الجماعات والنظم . وعلى سبيل المثال ، فإن مرحلة المهد ، تشهد انتشارا للإستجابات الرجعية للمؤثرات الطبيعية التى تحيط بالطفل ، حيث يكون السلوك كتليا ومبهما . ولهذا يستمد الرضيع الاشباع من اى مصدر كان . بينما تتجه الاستجابات نحو الطابع التخصيصى ، شيئا فشيئا . وهذا ما يتأكد اجمالا ، فى الفترة من الميلاد حتى بلوغ عامين من العمر . وفى الفترة ما بين أربع وخمس سنوات ، وحتى العاشرة ، يظهر متغير العمومية والخصوصية ويتجلى هذا التمييز فى مدارس المرحلة الاولى ، ويتمثل فى التفرقة بين حاجات الذات وحاجات الاخرين .[2]

وبإضطراد النمو تكتسب المشاعر والعواطف طابعا ملموسا فى بداية المراهقة ، وعند سن الثانية عشر ، فيتأكد متغير الوجدانية فى مقابل الحياد الوجدانى . فاذا ما تجاوز الشخص فترات المراهقة الثلاث ، وانتقل الى مرحلة البلوغ ، يصبح متغير الاداء فى مقابل النوعية اشد ملائمة واكثر انتشارا .[3]

وأخيرا فإن آراء بارسونز عن موضوع التنشئة الاجتماعية ، تنطوى على افكار اخرى تختص بدور الملزمات الوظيفية فى تكوين الشخصية تفصيلا ، كما تشتمل مشكلات وقضايا كثيرة عن اهمية المدخلات والمخرجات فى بناء الذات . هذا

---

(١) Parsons, social structure and personality, op-cit, P. 87.

(٢) Smelser, Neil, op-cit, PP. 393-97.

(٣) Lessnoff. H, "Parsons Systems problems" A.S.R, vol,16 (1968) P. 227.

بالاضافة لمقالاته المتعددة ، التى تناولت العلاقة بين المؤسسات التعليمية بمختلف صورها ، وبين المجتمع ، وكثير غيرها مما يدخل فى علم الاجتماع التربوى .[1]

ثالثا : مشكلة الضبط والانحراف .

يتناول بارسونز قضايا الضبط والانحراف من المنظور العام والمجرد . ولعل هذا السبب هو الذى ادى الى شمول مفهوم الانحراف ، على كل مظاهر السلوك التى لاتتلاءم مع توقعات الدور ، وتتعارض مع القيم والمعايير السائدة ، بل وما ينطوى على الاخلال بقاعدة التوازن ، حتى ولو كان ذلك من متطلبات التغير الاجتماعى . ودون ان اناقش ابعاد هذا الفهم ، والذى يمكن ان تكتشف ملامحه تباعا ، وبصرف النظر عن قضايا التعريف العلمى ، او المستلزمات الفنية للصياغة ، أستطيع القول بأن تحليل بارسونز لأى من المشكلتين ، يفضى بالضرورة ، الى وجوب المقابلة بينهما . لاسيما وأن هناك علاقة اقتران ، تبرر نسبهما الى توازن النسق الاجتماعى ، والانساق الصغرى ، والتى تدخل فى دائراته الكبرى . ومع وجود ارتباط وثيق بين مشكلتى الضبط والانحراف من ناحية ، والتنشئة الاجتماعية من جانب آخر ، إلا أن التفسير هنا ، يقتصر على تلك الأساليب والوسائل المانعة ، او التى تحول دون تعلم السلوك المنحرف ، او تثير التوترات بكل صورها .

ومن ثم فان المضمون الواسع للانحراف فى النسق الاجتماعى ، يقابله من الناحية الاخرى ، وضوح وشمول للضوابط الاجتماعية الايجابية ، التى تحمل الفرد على مسايرة الاداء العام والامتثال ، بناء على توفر مظاهر الاطراء ، والاستحسان الاجتماعى ، والتشجيع ، وغيرها من اشكال الجزاء والثواب ، بجانب الضوابط السلبية ، كما تقررها جملة أساليب العقاب او الرفض والتجنب ، الرسمية منها وغير الرسمية . ويعتقد بارسونز ان الانساق الاجتماعية تميل الى تدعيم وجودها ، عن طريق ازاحة التوترات ، او حصرها فى حيز محدود . ويعود ذلك الى اصالة عملية الضبط الاجتماعى ، وبالمقارنة للميول العدوانية والخيال الجامع ، والتى تكون هامشية البناء ،

---

(١) Lasswell, thomas and Burma, Fohn, life in society, Reading in sociology, Foresman and Campany, scott, 1970, PP. 456-63.

ويسهل مواجهتها ، ولأن الارتباط بها جزئيا . هذا بالاضافة الى أن الذات تميل باستمرار ، الى الاحتفاظ بعلاقة استقرار مع الاخر ، من اجل تجنب الصراع والعزل .[1]

ولايعتمد تصور بارسونز للانحراف او الضبط على اى من النظريات الشائعة فى هذه المجالات ، وانما يهتم بدور كل منهما فى تحقيق توازن النسق ، وتأكيد الاعتماد الوظيفى المتبادل بين الاجزاء ، فى مواجهة عوامل التفكك والنقض ، ولان التوازن الاجتماعى يرتكز الى اكثر من مصدر ، فانه يبقى دائما مستقرا أو ثابتا نسبيا ، عن طريق ميكانيزمات تشبه قانون القصور الذاتى . واذا كان الضبط الاجتماعى ، احد الانساق التى تدعم قاعدة التوازن ، فان الفاعلية المباشرة لهذا النسق ، تنبثق اساسا من المواجهة او التدخل ، للحد من الميول الانحرافية على المستوى الاجتماعى ، من حيث علاقة الذات بالاخرين ، وتوجيه التوقعات نحو السلوك الذى يهتم به المجتمع .[2] ومن اجل ذلك فاذا كان الانحراف يمثل مشكلة للنسق الاجتماعى ، فان الضبط الاجتماعى من بين الميكانيزمات المؤثرة ، والتى يمكن ان تواجه المشكلة ، او تقدم حلولا لها ، تتلاءم مع طبيعة واتجاه ومصدر الانحراف .

ومن المعلوم ان بارسونز قسم الانحراف الى نماذج واشكال ، يهمنا منها الانحراف بالنسبة للفرد ، والانحراف بالنسبة للنسق ككل . اما عن الانحراف على المستوى الفردى فهو عبارة عن فعل يأتيه الشخص ، بسبب دوافع معينة ، ويكون غير متطابق مع المعايير ، او ينتهك احد النماذج القيمية المقررة . اما الانحراف بالنسبة للنسق ، فهو الميل من قبل جزءا واكثر من وحدات النسق (الجماعات او الانساق الصغرى) ، للاخلال بالتوازن الاجتماعى ، او اثارة الاضطرابات والتوترات . ويصبح الضبط الاجتماعى ، مجموع العمليات الدافعية وغير الدافعية ، التى يكون من شأنها مناهضة السلوك المضاد للمعايير والقيم ، وكل اشكال اللاتوازن على المستويين الفردى والاجتماعى . ذلك لان الانحراف قد يأتى عن طريق الميل المستمر نحو التغير ، لاسيما ما يتصل بالنسق ككل . وهذا ماينطوى على اضعاف التوازن ، وهى عملية لاتخلو من انحرافات أيضا . بيد ان مثل هذه الانحرافات من مستلزمات التقويم الاجتماعى .

(١) Parsons, the social system, op-cit, PP. 297-300.

(٢) دكتور غيث عاطف ، المرجع السابق ، ص ص ١٢٢٠ ــ ١٢٣ .

هذا من ناحية ومن جانب آخر ، فان ظهور ميكانيزمات الضبط الاجتماعى ، أوبروز دورها يعد هو الاخر من علامات الانحراف على المستويين الفردى والاجتماعى . ويصعب بناء على هذا التصور ، أن نصدر حكما على اى فعل بأنه منحرف ، دون الاشارة الى أساليب الضبط ، ونوع النسق الاجتماعى الذى ينتمى اليه . والذى يعين كل من اشكال الانحراف ، وأنواع الجزاء المقابلة لها .

والجدير بالاهتمام ان قضايا الانحراف والضبط ، ترتبط بمصنفات ومخططات بارسونز عن التفاعل الاجتماعى ، وتكوين استعداد الحاجات ، والاستدماج ، والمدخلات والمخرجات وغيرها من المشكلات المطروحة . على اعتبار أن السلوك المنحرف من جانب الفاعل الفرد ، او ظهور الميول الاجتماعية والتباعدية والمغتربة ،ليست سوى مظاهر للنقص والقصور ، او الفشل فى اى من بناء العمليات المذكورة ، او اداءها لوظائفها .(١)

إن مفهوم الانحراف من اكثر المفاهيم غموضا داخل الاطار التصورى للنسق الاجتماعى . فاذا ما تجاوزنا المعنى الفردى لتلك الظاهرة ، وهو واضح الى حد ما ، نجد أن موضوع الانحراف فى النسق ، على قدر كبير من الابهام ، بل والخلط احيانا . فتارة يفسر بارسونز الانحراف ، على انه جزء من النسق ، ويشكل بالتالى طائفة من النماذج السلوكية ، او الميول التى تتصل بالابعاد الداخلية ، على النحو الذى تحدد من قبل . وفى مواضع اخرى تخرج مقولات الانحراف عن حدود النسق ، ليبقى النسق متوازنا وخاليا من الانحراف . وفى تلك الحالة يمكن تطبيق مبادىء القصور الذاتى ، ويظل الانحراف خارج خطوط التماس . وهذا تصور لايستقيم بحال مع طبيعة المجتمعات البشرية او الانساق الاجتماعية ، فضلا عن التناقض بين المواقف والاتجاهات الفكرية ، كما رأينا . ثم ان ارتباط الانحراف والتغير وبالتوترات والرواسب المعوقة وظيفيا ، والمظاهر السلبية الاخرى ، ليس له ما يبرره فبالاضافة الى مايمكن أن تكشف عنه التوترات ، والتحولات المستمرة عن النقائض الاجتماعية وبعض العناصر الايجابية ، لايتنافى الاهتمام بقضية الضبط الاجتماعى مع طرح مشكلة الانحراف على

(١) Parsons, op-cit, PP. 249-255.

نفس المستوى . وهذا مالم يفعله بارسونز ، حين آثر بجل اهتمامه ، ميكانيزمات التوافق والدفاع والتكيف والضبط ، فى مقابل التقليل من اهمية الانحراف والتغير .[1]

من المرجح ان بارسونز يفرق بين السلوك المنحرف ، وبين الدافعية إلى الانحراف . وتظهر هذه التفرقة ، عندما يناقش علاقة الدور بمشكلة الانحراف . وهنا يكون التحليل اكثر إتصالا بفكرة صراع الادوار فتبادل التوقعات يكون دائما مشروطا بحدود معينة ، ينبغى على الفاعل الالتزام بها . ومن بين هذه الشروط ، قبول التضحية ببديل معين ، او التخلى نهائيا عن الاداء ، اذا كان من شأنه تعريض الفاعل لاحدى صور الجزاء السلبى (او العقاب) . وكثيرا ما يجد الشخص نفسه امام عدد من الاحتمالات ، من بينها الهروب او الانسحاب ، او الاذعان والخضوع لمطالب الاخر ، او التمرد والعصيان . وفى اى من هذه الحالات ، التى تخرج غالبا على تبادلية الارضاء ،او التوازن النسبى فى فرص الاشباع بين الاطراف ، فان الصراع بصوره المتعددة ، يصبح النتيجة الطبيعية لمفارقات التكيف او التوافق . وهى ترجع بدورها لميكانيزمات وعوامل كثيرة . فكأن صراع الدور ، ينتج عن صعوبة الاختيار ، أو عدم القدرة على الموازنة بين بدائل السلوك والتردد حيال التباين فى الاهمية النسبية للموضوعات ، ثم الاقدام او الاحجام عن غير قبول او رضا احيانا ، او لسبب إضطرارى او قهرى أو غير ذلك من العوامل .

بيد ان صراع الدور لايعزى الى الفرد ، بقدر ما يعود الى النسق الاجتماعى ، على مايرى بارسونز .[2] ومن ثم فان صراع الدور غالبا ما يعود الى التكيف غير السوى ، بل والامراض النفسية والعقلية ، التى يترتب عليها انقطاع صلة الشخص بالوجود الاجتماعى ، ونضوب فكرة تبادل التوقعات ، كما هو الحال عند المرضى « بالشيزوفرنيا » Schizophrenia والجدير بالملاحظة ان الانحراف بهذا المعنى الفردى ، يختلف فى مصادره واشكاله ونتائجه عن الانحراف الاجتماعى الذى يرتبط بتبادل التوقعات فى اداء الدور ، وينطوى على مناهضة القيم الاساسية ، ويخل بالتوازن الاجتماعى . ومن النماذج التى تجسد هذا النوع الاخير ، الممارسات التى تقوم بها

---

(١) دكتور غيث عاطف ، المرجع السابق ص ص . ١٢٤ ـــ ١٢٧ .

(٢) Parsons, the social system, op-cit, PP. 280-81.

بعض الجماعات اليهودية فى مجتمع الولايات المتحدة الامريكية ، وسلوك الاقليات العنصرية الاخرى الذى لايتفق مع النموذج الشائع للقيم .[٢]

هذا ويؤكد بارسونز على أن فاعلية ميكانيزمات الضبط الاجتماعى ، اقوى دائما واكثر تحفزا ، من احتمالات الانحراف . وتميل الانساق المتدرجة ، والانشطة المنظمة للجزاءات فى شتى صورها وبسبب طبيعتها المنظمة الى الاداء . وبمجرد اشارة البدء ، بحيث يكون العقاب متلائما الى حد كبير مع درجة الانحراف ، او مستوياته الكمية والكيفية . والواقع أن هذا الامعان فى التجريد ينطوى على تجاوزات كثيرة ، ما كان ينبغى ان ان تصل الى هذا الحد . لأن صياغة قوالب ونماذج نظامية معينة ، لكى نضع فيها الادوار او المناشط ، أو تخضع العمليات لمقتضياتها ، على نحو ما فعل بارسونز ، غير مقبول نظريا ، وصعب التحقيق عمليا

رابعا : التوازن والصراع فى النسق الاجتماعى :

تعتبر قضية التوازن الاجتماعى من اكثر القضايا التى اهتم بها الوظيفيون ، لاسيما ذلك الاتجاه المعروف بالمذهب البنائى الوظيفى ، ومن ابرز دعاة فكرة التوازن فى القرن العشرين تالكوت بارسونز . وعلى الرغم من أن طبيعة الحياة الاجتماعية ، بافتراض الاتجاه المستمر نحو المسايرة والاتفاق والتكامل الوظيفى ، لايمكن أن تبقى على حالة واحدة بسبب التغيرات المتلاحقة ، الامر الذى يصعب معه الوصول الى واقع معين لفكرة التوازن ، فقد قدم بارسونز من المقولات والافكار ، مايدعم التوافق النسبى بين اجزاء ووحدات النسق ، خاصة اذا ماحدث تغير فى هذه الوحدات . ويمكن القول بأن اصول نظرية التوازن ترجع الى العلوم البيولوجية ، على نحو مانراه فى ضرورة استمرار حالة الاستقرار والتكامل فى اداء الوظائف الحياتية داخل الجسم البشرى ، أما عن تطبيق المفهوم فى العلوم الاجتماعية ، فانه يعود الى علماء الاقتصاد الذين تأثر بهم بارسونز ، ومنهم الفريد مارشال ، وعلماء الاجتماع امثال هربرت سبنسر وباريتو . وقد اخذ عن هؤلاء وغيرهم ، وحاول اقامة النسق الاجتماعى على قاعدة التوازن فى العلاقات والوظائف . واذا كانت تلك القاعدة التى لاتنسحب بالضرورة على الانساق الامبيريقية ، التى لا يمكن ان تتحقق فيها حالة التوازن التام ،

---

(١) Ibid, PP. 227-320.

الا أن الانساق الاجتماعية كلها ، تميل الى التوازن المستقر ، ويكون ذلك بازاحة التوترات والمتناقضات بعيدا عن المتغيرات الاساسية المكونة للعلاقات داخل الانساق .(١)

ويكاد يتفق معظم الوظيفين المعاصرين على أن التوازن من حيث أنه يرتبط بالاستقرار ويدعم القيم الاساسية ، لايتعارض مع التغير الاجتماعى بالمعنى الذى يفهمونه . وهو التحول المستمر فى إطار الوحدات والنظم الاجتماعية ، بما لايدفع بالذبذبات الاجتماعية ، نحو الاخلال بالنسق الاساس للقيم والمعايير . وينطوى ذلك على تبرير واقع اجتماعى ، يكون غير متنافر الى حد معين . غير ان بارسونز بالغ فى الدفاع عن الفكرة التوازن بقوة ، سواء فيما يتصل بالابعاد الداخلية ، او الحدود الخارجية للنسق الاجتماعى . فاذا ما تعرض هذا النسق لضغوط تمارسها قوى خارجية ، ولكنها ليست على درجة بالغة الشدة ، أو توترات داخلية ظهرت قوى تدفع الى استعادة التوازن من جديد ، عن طريق الميكانيزمات الاجتماعية ، ومن بينها الضبط والتنشئة الاجتماعية . ولكى يتسنى لنا الوقوف على شكل التوازن الذى يأخذ به بارسونز ، اشير الى نموذجين من التوازن الاجتماعى وهما التوازن المستقر Stable equilibrium والتوازن غير المستقر Unstable equilibrium اما عن التوازن غير المستقر ، فيعنى تلك التغيرات التى تؤدى الى إضطراب النسق ، او حدوث تحولات اساسية قد تهدم النسق ، او تعمل على ايجاد نوع جديد من العلاقات البنائية ، تختلف عن العلاقات التى كانت قائمة من قبل ، على نحو ما يحدث إبان الثورات وينتج عن ذلك عدم العودة مرة اخرى الى احالة النسق قبل حدوث التغير . والاتجاه بدلا من ذلك الى استمرار وبقاء التحولات الاساسية . فى النظم والعلاقات .

---

(١) تعنى كلمة توازن ، حالة من التساوى بين موقفين ، بقصد تحقيق نوع من العدالة فى التقسيم أو التوزيع ، على نحو ما يتأتى فى ثبات كفتى الميزان عند منسوب واحد ، ويقال بأن الاوزان متساوية . وهذا النوع من التوازن الميكانيكى ، يختلف عن مجال وطبيعة تطبيق الفكرة فى الكائنات الحية ، يكون التوازن هنا ، من نوع التكامل في أداء الوظائف ، والتفاعل الضرورى بين المكونات الاساسية ، من اعضاء وغدد وخلايا ، وما نفرزه من مواد كيمائية ، اما فى المجال الاجتماعى فان حالة التوازن اقرب فى الشبه من التوازن الحياتى ، ولكنها تتباين عنها نوعا ما ، حيث يصبح المقصود بها الاستقرار الاجتماعى .

وهذا النوع من التوازن يستوجب قيام صراع حاد ، لاسيما ابان حدوث التحولات البنائية فى النسق ككل . ومن ثم فان دور الضبط الاجتماعى وغيره من الاساليب يصبح غير موثر حيال هذا التوازن الديالكتيكى ، والذى يقترب من الفهم الماركسى . لان الصراع الاجتماعى سوف يبقى احد العوامل الهامة فى استمرار هذا الشكل من التوازن .

ويختلف التوازن المستقر اختلافا واضحا عن التوازن غير المستقر . اذ ينقسم الى قسمين ، توازن استاتيكى Staic equilibrium ويشير التوازن الاستاتيكى ، الى تلك العلاقات التى تميل الى الثبات النسبى ، كما هو الحال فى علاقة النسق الاجتماعى بالبيئة ، وبالعناصر التى يصعب تغيرها ، وهى ابعاد ذات طابع ايكولوجى وفيزيقى غالبا . على أن هناك أبعاد تنتمى للبناء الاجتماعى ، ويمكن ان تجسد فكرة التوازن الاستاتيكى ، من منظور معين ، وهى تلك تتصل بالمصالح الراسخة ، والقيم الاساسية . ويعود ذلك الى بعض المحاولات التى قامت على اساس من المناظرة بين البناء التشريحى للجسم البشرى ، والبناء الاجتماعى . وهى مقارنة غير مستقيمة ، وقاصرة بسبب الاختلاف الجوهرى بين العلاقات ذات الصفة التشريحية ، والعلاقات الاجتماعية .

وإزاء التقدير المبتور لفكرة التوازن الاستاتيكى ، أيقن بارسونز بملاءمة مفهوم التوازن الديناميكى للانساق الاجتماعية . والذى يشير الى كل من التغير والنشاط فى الوحدات والاجزاء التى يتكون منها النسق ، سواء كانت هذه الوحدات هى النظم او الانساق الصغرى ، أو علاقات التبادل فى الوظائف والادوار ، أو عمليات التفاعل الاجتماعى . داخل اى من الوحدات [١] . كما ينطوى التوازن الديناميكى على مجموعة مترابطة من الشروط والظروف . التى تتحكم فى سلوك الافراد والجماعات ، وذلك وفق نمطين اساسين من التوجيهات هما ، التوجيهات القيمية والتوجيهات الدافعية . ولا يتعارض هذا النوع من التوازن مع التغير النظامى ، لان هذا الاخير يتجه دائما لتصحيح المسار ، كلما واجهت النسق مشكلات تؤدى لتوتر فى العلاقات ، أو اضطراب فى النظم ، طالما ان الظروف التى تصاحب التحولات الاجتماعية تقضى بوجوب التعديل والتحرك السلمى من أجل دفع الانحراف واشكال الشقاق جانبا ،

---

(١) Gouldner, op-cit, PP. 231-233.

أو ضرورة الحد من انتشارها ، او استيعابها عن طريق التدخل المباشر ، وبالوسائل المشروعة أو المقبولة اجتماعيا .

والجدير بالاهتمام أن موقف جورج هومانز من التوازن الاجتماعى ، يقترب من تحليل بارسونز لفكرة التوازن الدينامیکی . غير أن هومانز جعل التوازن معلقا على شروط خاصة ، ينبغى أن توجد على مستوى الجماعة (وليس المجتمع ككل) ، حتى يمكن حدوث التوازن . وأن هذه الشروط تقتصر على بعض حالات النسق ، دون أن تصبح قاعدة عامة على النحو الذى يؤكد بارسونز .[١]

إن هناك تفاصيل كثيرة لتبرير فكرة التوازن ترتبط بالقضايا الاساسية والفرعية التى تناولها بارسونز لكنها جميعا لاتتجاوز حدوث التصور النظرى ، الامر الذى يقطع بوجود التوجيه الايديولوجى ، من أجل إثبات واقع اجتماعى معين ، او الدفاع عن افكار بعينها . ويمكن ايجاز مصادر ومقومات فكرة التوازن عند بارسونز فيما يلى :

١ ــ ان النسق الاجتماعى يعتمد على التوازن الدینامیکی . بمعنى ان التغير الاجتماعى لاينفى الاستقرار والتكامل بين الوحدات او اجزاء النسق . ويترتب على ذلك ان كل انواع التوترات ، مهما بلغت حدتها ، لاتستمر طويلا ، بسبب وجود ميكانيزمات إعادة التوازن .

٢ ــ يرى بارسونز على خلاف غيره من العلماء ، أن هناك علاقة وثيقة بين التكامل الاجتماعى والتوازن . ولهذا فان الوظائف المشار اليها سابقا ، تعمل على تحقيق الاتساق والتكامل باستمرار[٢] .

٣ ــ من بين المبادىء الاساسية فى صياغة التوازن الدينامیکی ، مبدأ حفظ الحدود وتصريف التوتر ، والتدعيم الذاتى ، والضبط السيبرناطيقى .

(١) Homans, George, Human group, routledge and kegan paul, Broadway House, 1957, PP. 303-449.

(٢) Parsons and shils, op-cit, PP. 106-110.

٤ ــ يؤدى الاشباع المتبادل او تبادلية الارضاء ، إلى توفير الجهد ، وتحقيق التوزيع الامثل للطاقة ، (بدون زوائد او نواقص) . وفى ذلك استمرار لحالة التوازن .

٥ ــ ان مصادر وأشكال التوازن فى الانساق الكبرى ، (المجتمع ــ الثقافة ــ الشخصية) ليست واحدة ، وانما هناك تباين نسبى بينها ، بالنظر الى الطبيعة التحليلية لأى من هذه الانساق .

واذا كان التوازن على هذا النحو اكثر ارتباطا بتصور بارسونز للنسق الاجتماعى ، أو انساق الفعل ككل . فان الفكرة لم تحظ بالقبول من جانب عدد من العلماء ، ومن بينهم سروكن . وقد تجاوز تصور بارسونز للتوازن الاجتماعى ، شروط القدرة التى تقترن بوجوده . وبالاضافة الى مستوى التجريد والمبالغة ، دون قرائن دالة ، فان الانساق الامبيريقية لاتجسد ظاهرة التوازن على هذا النحو وقلما نعثر فيها على اى من حالات التوازن المستمرة . ثم ان ميكانيزمات الضبط والتنشئة الاجتماعية وغيرها ، وبالرغم من وظائفها الهامة فى تحقيق التكامل الاجتماعى ، قد لاتتوفر بالشكل الملائم ، حتى يكتسب التوازن قدرا من الثبات الامبيرقى . وياتى العقاب احيانا بنتائج سلبية ، وعلى غير ما يرتجى منه ، ويصبح مخلا بالتوازن ، او باعثا على الصراع ، او الاضطراب الاجتماعى . ولايحول التبادل فى التوقعات ، أو الاعتماد المتبادل ، أو التكامل الاجتماعى ككل ، دون حدوث التوترات الاجتماعية ، التى قد تتحول الى عناصر ايجابية ، أو تصبح من مقومات التوازن ، أو إعادة التوازن .

لقد تبنى بارسونز اتجاهات نظرية تتصل بحل معضلة الصراع الاجتماعى بالمفهوم الهوبزى . وفى سبيل تحقيق هذا الهدف ، تبنى مفهوم دور كايم للتضامن الاجتماعى ، فى مواجهة تهديد ظاهرة اللامعيارية ولكى يجيب على التساؤل المطروح كيف يصبح النظام الاجتماعى ممكنا . اعتبر الصراع من الظواهر المعوقة وظيفيا بل وتجنب استعمال الكلمة ، حيث استعاض عنها بلفظ « التوترات » ، وتجاهل موقف ماكس فيبر الذى ينطوى على أزلية الصراع ، وان « السلم » ليس اكثر من تغير فى صورة من صور الصراع ، أو التناقض بين الموضوعات ، او فى فرص الاختيار ، بالرغم من اعجابه الشديد بتفكير فيبر ، وتأثره به على النحو الموضح آنفا ويذكر

لويس كوزر ، أن إهتمام بارسونز ببعض المشكلات غير العقلانية وغير التعاقدية ، والتى تجاهلها علماء الاقتصاد الكلاسيكى ، وصولاً لبناء معيارى يضمن إستمرار النظام ، ينطوى على رؤيا مختلفة لنتائج الصراع . فقد شارك شكسبير الرأى فى تقرير الطابع الوبائى للصراع ، بالرغم من التباين المفترض ، بين موقف العالم والاديب .

وجاء تركيزه على حالات معينة من الصراع ، او العناصر المفرقة فى الصراع ، مدعاة لتقرير الصفة المرضية للتوترات ، واشكال المصادمات ، التى ترجع إلى الضغط الزائد(١) . وقد اختفت كلمة الصراع نهائيا فى مؤلف بارسونز عن النسق الاجتماعى ، بينما شاع استعمال لفظ التوتر Strain او المجابهة . وتكشف المقالات التى كتبها بعد ذلك حول صراع الطبقات ، والدعاية والضبط الاجتماعى ، عن ميل متزايد نحو إثبات الدور المعوق وظيفيا لكل صور الصراع الاجتماعى بل والتكافؤ فى النتائج والاثار ، بين الصراع والانحراف . واذا كان كوزر يدافع عن النتائج المشجعة وظيفيا للصراع ، فان نظريات الصراع تناهض الافكار الوظيفية تماما ، لاسيما عند تفسيرها للتغير الاجتماعى ، وموقفها من فكرة التوازن . واذا ما تجاوزنا تحليل ماركس للصراع الطبقى ، الى مجال الصراع الاجتماعى الاكثر شمولا ، فان كل من رالف داهر يندورف Dahrendorf ولويس كوزر ، يقدمان نماذج رائدة فى هذا الصدد . فقد اتفقا على ان الصراع الاجتماعى يتجاوز الصراع بين الطبقات ، ويصبح الصراع المادى أحد اشكال الصراع الاجتماعى ، الذى يشتمل على كل المتناقضات الاجتماعية والتوترات ، بين الاجناس والاعراق ، وبين الاديان والمعتقدات ، وعلى مستوى الفئات والشرائح والطبقات وفيما بين الاعمال والوظائف والمهن ، وداخل الادوار الاجتماعية نفسها ، والذى يمتد من الجماعات الصغرى الى المجتمع ككل ، ومن الجماعة الواحدة الى الجماعات الاخرى ، ومن الفرد الى الجماعة ، بل وداخل الشخص نفسه .

---

(١) يشير لويس كوزر إلى ان مؤلف بارسونز عن « مقالات فى النظرية السوسيولوجية » عام ١٩٥٤ يشتمل على كثير من المواقف التى تؤكد اتجاهه المستمر نحو اثبات الصفة المرضية « للتوترات » . ولم تذكر كلمة « الصراع » الا قليلا . ونفس الاتجاه ظل قائما فيما اصدره بعد ذلك من مؤلفات ، وما نشره من مقالات ، الامر الذى يوحى بانتفاء الوظائف الايجابية الاجتماعية كلية فى اعمال بارسونز . وقد تعرض بسبب ذلك للعديد من الانتقادات .

ويصعب طبقا لهذا التصور القول بأن الصراع ظاهرة مرضية ، والا تعذر استمرار النسق ككل . وإنما يمكن القول بأن هناك وظائف ايجابية للصراع ، وأنه وسيلة للكشف عن أوجه القصور والنقص ، او « السلبيات » .

واذا لم يتعد المرحلة السلمية فى مجال المصادمات المادية ، فإنه يبقى ظاهرة من شأنها تحقيق التكامل والتوازن الاجتماعى ، وهذا هو رأى كوزر . أما داهر يندروف ، فقد قال بأن تجربة الجماعة نفسها تقوم على أساس الصراع ، وأن المجتمعات الصناعية المعاصرة أصبحت مجتمعات متصارعة ، بسبب وجود متغيرات تجعل النسق الاجتماعى فى تحول دائم . ولما كانت الموارد غير كافية لبلوغ المستوى المطلوب من اشباع الحاجات المتعددة ، أضحى الصراع ضرورة اجتماعية لتحقيق التطلعات(١) . ومن جانب آخر تناول كل من جون ركس ، وماكس بلاك ، ورايت ميلز ظاهرة الصراع بشكل مسهب ، وتتصل آرائهم بنقد فكرة التوازن عند بارسونز ، بل والتشكيك فى وجود منطق التوازن فى الحياة الاجتماعية . فبالاضافة الى تعدد وجود أشكال الصراع ، وإسهامه فى أداء الوظائف الايجابية ، قد يصبح شرطا من شروط التكامل الاجتماعى ، بل وتحقيق التوازن المفترض (٢) .

وأخيرا فإن اهتمام بارسونز بصراع الدور ، والسابق التنويه اليه ليس الا تجسيدا للشروط المفروضة ، وبسبب سوء تكامل النسق ذاته . واذا كان مجال عمل الصراع الوجدانى هو الذات نفسها ، فإن صراع الأدوار ، ينتج عن عدم تكامل القيم أو تعارضها ، ويؤدى باستمرار لتعميق الميول الانحرافية . ومن ثم فإن التوترات ترتبط بظروف وشروط ، ليست من طبيعة النسق الاجتماعى . ولهذا تكون موقوتة ، وعابرة ، أو استثنائية ، وتنتهى بمجرد زوال تلك الشروط ، وانحسارها . ولم يحدد بارسونز ماهية تلك الشروط ، ولا مصادر وجودها . غير أنه أشار الى هامشية ظاهرة الصراع وعدم وجود ميكانيزمات تعمل على دوامها ، كما أنها لا ترتكز الى قوة حقيقية مستمدة من

---

(١) Coser lewis, the function of social conflict, routlesge and kegan paul, London, 1968, PP. 21-23.

(٢) Martindale Don, the nature and types of sociological theory, routledge and kegan paul, London, 1967, PP. 128-200.

القيم والمعايير . وهذا ما يكشف بوضوح عن الأساس المحافظ لأفكاره ، على الرغم من اعلان تمسكه بالليبرالية .

خامسا : تغير النسق الاجتماعى :

يفرق بارسونز بين التحولات البنائية ، والتى تعترى النسق ككل ، أو تؤدى الى تغيرات أساسية فى العلاقات ، وبين التغيير النظامى ، الذى لا يتصل الا بالاجزاء أو الوحدات الداخلية للنسق . وبينما يتعارض الشكل الأول من التغير مع فكرة التوازن ، ويدفع بمزيد من التوترات فى النسق ، كما يجعل ميكانيزمات مكافحة التوتر غير مؤثرة ، فإن النوع الثانى من التغير يتفق مع ميل الانساق نحو الاستقرار والتكامل . واذا كان هذا الرأى ينصرف الى تقدير الاثار والنتائج التى يخلفها التغير الاجتماعى ، فان هناك موقف منهجى حيال التنظير السوسيولوجى لظاهرة التغير الاجتماعى ككل ، والتغير فى بناء النسق على وجه الخصوص فقد ذهب بارسونز الى القول بأن وجود نظرية عامة تفسر التغير فى النسق الاجتماعى ، أمر غير ممكن ، فى ضوء الموقف المعرفى الراهن . ويعود ذلك الى عدم اكتشاف القوانين التى تتحكم فى بناء الانساق . غير أنه بالامكان الوصول الى بعض الآراء التى تفسر التغيرات فى الوحدات الصغرى ، أو الانساق الفرعية وهى محدودة النطاق ، ويصعب تعميمها على النسق الكلى (١) .

ذلك لأن النسق الاجتماعى محفوظ الحدود ، ويتمتع بقدر كبير من الاستقرار ، والقدرة على استيعاب كل صور التحولات ، سواء كان مصدرها البيئة الخارجية ، أو العناصر الداخلية . وتقضى شروط تلك القدرة ببقاء « العمليات » Processes داخل الاطار المرجعى للوظائف والأدوار ، التى من شأنها تحقيق التوازن بين المدخلات والمخرجات ومن ثم تبقى ميكانيزمات التغير مستمرة فى شكل ذبذبات ، لا تنطوى على أى نوع من الحتمية . ولنا أن نتساءل ، اذا كان هناك فرق بين القول بوجود ظواهر التغير المستمر ، وبين قيام نظرية ذات بناء محدد ، لتفسير مجموعة الظواهر المذكورة ، فكيف يكون موقف بارسونز من الصياغات النظرية التى وجدت بالفعل لتفسير التغير الاجتماعى ؟ لقد أشار بارسونز الى إخفاق

---

(١) Parsons, the social system, op-cit, PP. 86-88.

النظريات التطورية والانتشارية والدورية ، بسبب عدم ملاءمتها للانساق الاجتماعية والثقافية ، ولأنها لم تحقق أى مستوى من مستويات التطبيق . وانتقد آراء سروكن وبندكت وليزلى هوايت وغيرهم . الا أنه لم يحسم القضية ، أو يقدم اطارا نظريا بديلا ، يكون أكثر ملاءمة ، وأشد ارتباطا بالواقع المعاش .

وليست التفرقة بين التغير البنائى والتغير النظامى ، سوى نوع من التحليل المجرد ، الذى لا يستند لحقائق ملموسة ، وانما لتبرير نظرى غائى ، أريد به الدفاع عن أفكار وقضايا خاصة . وآية ما يقال أن استراتيجية التغير عند بارسونز ، تعتمد على التفسير الجزئى والداخلى والنظامى ، والذى لا يثير المشكلات ، أو يخل بتوازن النسق ، ويعتقد بارسونز أن اضطراد التحولات فى الانساق الاجتماعية الصناعية ، لا يتعارض مع التفسير الوظيفى . فاستقرار واستمرار الصفات الثابتة نسبيا ، والعلاقات التى تنتمى الى البناء الاجتماعى ، وغيرها من العناصر الجوهرية ، يرتبط بأداء مجموعة من الوظائف الدائمة التحول ، كالأدوار الاجتماعية ، وأشكال التنظيم ، وعمليات التفاعل الاجتماعى . وهذه التفرقة وثيقة الصلة بالتمييز بين الانساق والنظم ، على النحو الذى أشرت اليه من قبل . ويصبح التغير فى الوحدات ، أكثر صلة بالنظم الاجتماعية ، بينما يكون التغير فى البناء الاجتماعى أشد ارتباطا بالنسق ككل . ولذلك فان كل العمليات المعتادة التى تأخذ صيغا متدرجة ، وتكون قصيرة الأمد ، أو تحدث على فترات زمنية متقاربة ، وفى حلقات متتابعة تعتبر تغيرات نظامية . وبالاضافة الى ذلك فان التغيرات النظامية من النوع التوافقى . بمعنى أن التدرج فى الحدوث ، لا يؤدى الى تحولات كبيرة فى الحجم ، أو عميقة فى الكيف . ولهذا يمكن التحكم فيها والسيطرة على نتائجها ، أو تنظيمها ، كما هو الحال فيما ينتج عن عمليات التنشئة الاجتماعية (١) .

ويرى بارسونز أن التمايز البنائى Structural differentiation هو مصدر وجود التغير النظامى . لأن ذلك التمايز يعنى تعدد الوحدات ، وتباين النظم ، بما تشتمل عليه من وظائف مختلفة ، تقوم بينها علاقات ضرورية لتحقيق التكامل الاجتماعى ككل . وهذا التصور النظرى قريب الشبه برأى ريموند فيرث ، فيما يسميه التغير

(١) Parsons and Smelser. op-cit, PP. 248-250.

التنظيمى organizational change وهو ذلك النوع من التغير ، الذى لا يمس الجوانب الأساسية لحياة الناس ، أو القيم المحورية للجماعات ، والتى يعتبر الخروج عليها أو تغييرها ، انحرافا عن النمط العام لنشاط الجماعة وسلوك أفرادها (١) . كما يتفق موقف بارسونز مع روبرت نسبيت ، الذى يفرق بين التحولات التى تكون من طبيعتها إعادة التكييف الاجتماعى ، وتلك التى تتم على مستويات البناء ككل . فالنوع الأول يشتمل على تراكمات لتغيرات محدودة النطاق ، أو تغيرات فى الأجزاء ، وهى عادة قصيرة الأمد ، بينما يكون التغير البنائى مثيرا لكثير من المشكلات (٢) .

ولا يختلف بارسونز كثيرا عن الوظيفيين الآخرين فى موقفه من التغير الاجتماعى ، حين يهتم بنوع معين من التغير ، حين يلقى بالتغير البنائى خارج حدود النسق تارة أو يفصل بين القوى الداخلية وهى أصيلة فى بناء النسق ، وبين القوى الخارجية ، وهى غريبة عن النسق ، ويلحق بها التحولات الشاملة تارة أخرى . ثم يعود فيؤكد على أن تبادل الحدود بين النسق الاجتماعى والانساق الأخرى ، لا يدخل فى اطار التحولات البنائية . لأنه لا يعدو أن يكون نوع من الصلات والروابط المألوفة بين المجتمعات . ومن جانب ثالث يتناول المصادر الخاصة بالتغير الخارجى Exogeneus ، ومن مؤشراتها تغير الانساق العضوية ، ونسق الشخصية والنسق الاجتماعى والنسق الثقافى ككل ، والمصادر الداخلية endogenous وتعود للوحدات التى تؤلف هذه الأنساق ، ومن أشكالها التغير فى حجم وكثافة السكان . الأمر الذى يدل على أن موقف بارسونز من قضية التغير الاجتماعى ، على جانب كبير من التعقيد ، وانه يصعب التمييز بين المصادر الخارجية ، وبين المصادر الداخلية للتغير من ناحية ، وبين التحولات البنائية والنظامية من جانب آخر ، لا سيما فى الانساق الصناعية الحديثة . وهذا ما يجعل من مصنفه تقسيما محيرا وغير فاصل .

ويمضى بارسونز فى تدعيم استراتيجيته حول الاستقرار والتوازن الاجتماعى ، فيشير الى أن الاضطرابات الشديدة أو القوية فى الكيف والكبيرة فى الحجم (أو الكم) نسبيا ، لا تؤدى الى تحولات أساسية فى الأنساق المستقرة أو مدعمة

---

(١) Firth, raymond op-cit PP. 84-86.

(٢) Nisbet robert "Social change" British Journal of sociology, vol. xxlv. No 1, March 1973, PP. 124-125.

الحدود ، فى الوقت الذى ينجم عن التوترات المحدودة ، تغيرات هامة فى الانساق ، غير المستقرة ، أو التى لا تتوفر لها مقومات التدعيم الذاتى ، لسبب أو آخر (١) . وهذا الرأى يدل على أن الانساق الاجتماعية ليست على درجة واحدة من التكامل والاستقرار ، وأن هناك فوارق بين نماذج الانساق ، وأنماط التكيف حيال المشكلات أو المصادر الداخلية والخارجية للتغير . بيد أن الانتقال من مجال تلك النسبية الاجتماعية ، وهى أقرب الى الواقعية ، الى فكرة أخرى أكثر ارتباطا بالانحناء الأيديولوجى يضيف أبعاد أكبر تعقيدا وأشد حيرة . فقد قرر بارسونز أن التغير البنائى ، وهو غير مستحب على ما يبدو عنده ، لا يقدم حلا للمعضلات الكبرى فى النسق . وأن الحلول المثلى تكمن فى تصريف التوترات وازاحة الاضطرابات وصور القسر ، عن طريق عزل القوى التى سببت هذه التوترات ، أو العمل على الحد من انتشارها . وتختلف الميكانيزمات التى من شأنها التخلص من التوترات ، باختلاف المواقف والظروف ، على أنها تهدف فى نهاية الأمر ، الى ترجيح العناصر الايجابية على كل صور النقض والسلب ، حتى تبقى هذه الأخيرة ذات طابع هروبى وانسحابى ، أو تظل مغتربة عن النسق ، وبعيدة عن مشروعية الأداء والجزاء .

إن تصور بارسونز للتغير البنائى والنظامى يقترب الى حد ما ، مما ذهب اليه بعض علماء الأنثروبولوجيا ، وخاصة راد كليف براون من التفرقة بين التغير الداخلى ، والذى لا يؤثر على الصور البنائية ، والتغير فى طبيعة الصور البنائية . فبينما تخضع التحولات الداخلية لعمليات التكيف واعادة التوازن الاجتماعى ، تتسم التغيرات فى الصور البنائية بطابع الصدمة ، وتكون مصحوبة باضطرابات فى بناء المجتمع ككل . ويبدو أن بارسونز ككل الوظيفيين ، لا يعير التغير الاجتماعى الا اهتماما يسيرا فاذا ما كان هذا التغير ، مصحوبا بتحولات كبرى فى الانساق ، فانه يثير مشكلات كبيرة ومنها الصراع والانحراف والاغتراب ، ولما كانت هذه المشكلات وغيرها ، لا ترتبط بالضرورة بالتغير البنائى ، وانما تنبثق تباعا عن طبيعة الحياة فى المجتمعات الرأسمالية المعاصرة ، وتصبح إحدى نتائج التحضر والتصنيع ونمو التكنولوجيا ، فإن موقف بارسونز يضعه فى إطار متحيز أيديولوجيا . لا سيما وانه لم يهتم بتحليل هذه

(١) Parsons, "An outline of social system", op-cit, PP. 70-73.

المشكلات ، واكتفى بصياغات مقتضبة عنها وهذا ما عرضه للانتقاد الشديد ، من جانب رايت ميلز وغيره .

وإذا كان التغير البنائى على هذا النحو من التصور ، مثيرا دائما للمشكلات الكبرى فضلا عن صعوبة الوصول الى نظرية تفسره ، فى اطار ما توفر لدينا من معارف حسبما يرى بارسونز ، فان التغير النظامى ، وهو يشتمل على عناصر اجتماعية وأخرى ثقافية ، يمتد الى التجديد فى النظم المقررة ، والتحديث فى الطرق والأساليب والنماذج ، بما فى ذلك تكوين النظم الجديدة ، والأنماط الثقافية التى لم تكن قائمة من قبل . ولم يبين بارسونز دور التراكم الثقافى فى هذا الشأن ، والعلاقة بين النماذج القديمة ، وكيفية اندثار بعض الوحدات ونمو أخرى بديلة لها ، وغير ذلك من القضايا ، وانما أيقن بأن النمط باق ، ويكون التحول فى اتجاه القوى التى من شأنها القضاء على المقاومة . وهذه القوى ينبغى أن تحقق قدرا ملائما للتوازن فى كل المجالات ، حتى يستمر التدعيم الذاتى . ولعمليات مثل بناء الأدوار ، ونمو استعداد الحاجات ، والاستدماج وغيرها دور كبير فى تحقيق التغير بالصورة النظامية ، والذى يكشف عن وجوده فى نتائج ثلاث هى (١) :

١ ــ نمو وتقدم بناء الأدوار الاجتماعية ، وميلها نحو التخصيص ، لا سيما فى المجال المهنى والصناعى فكلما أضيفت معارف جديدة تيسر الأداء الراهن ، أو تجعله أكثر اتقانا أدى ذلك الى تغيرات هامة فى النظم الثقافية والعلمية ، على نحو ما نجده فى العالم المتخصص فى أى من فروع العلم ، وتطور مراكز البحوث وتعدد اختصاصاتها ، ونشأة وظائف جديدة بسبب ابتكار معين .

٢ ــ تأثير التكنولوجيا على طبيعة التنظيمات . مثلا ذلك فى تباين وحدات التنظيم الصناعى والاجتماعى ، وتعدد فروع الأعمال وأقسامها ، وزيادة كثافة التخصص وتقسيم العمل بوجه عام .

٣ ــ اعادة تشكيل الموارد والمدخلات (بالمعنى العام) ، وتنطوى اعادة التشكيل هذه على تشييد عدد من الاستراتيجيات المتصلة بالمصادر الطبيعية والقوى

---

(١) Parsons, the social system, op-cit, PP. 534-35.

الفيزيقية ، ولا سيما الوقود ومصادر الطاقة السائلة والقابلة للتحويل . ويكون للعامل الثقافى بكل أشكاله تأثير كبير فى صياغة الموارد الطبيعية والبشرية واستثمارها على نحو أكثر سيولة وأشد تنويعا .

ويتعرض بارسونز لعلاقة التكنولوجيا بالتغير الاجتماعى والثقافى ودورها فى الانساق الحديثة ، فيشير إلى نماذج التحولات فى المراكز والأوضاع ، وفى الاتجاهات والقيم . من ذلك التغير النسبى فى أهمية المتخصص الفنى والمدرب ، مقارنا بدور المخترع والذى كانت له السيادة من قبل . ووضوح ارتقاء مكانة المدير والمنفذ ، فى مقابل الانخفاض النسبى فى مكانة صاحب المصنع أو مؤسس المشروع .

وهناك تغيرات كثيرة فى مراكز القوة والسلطة ومعايير التدرج ، تشهد جميعا بوجود التحولات النظامية ، نتيجة للتطور فى التكنولوجيا . وقد انصرف الجانب الأكبر من التحولات الكيفية بسبب التغير التكنولوجى ، الى الانساق الصغرى ، ومنها الأسرة التى تعرضت لتبدل فى طبيعة الأدوار ومستوى الآداء والانجاز الاجتماعى للوظائف الأساسية والهامة . فقد ضعفت الصفة الوسيلية لدور الأب ، نتيجة لخروج المرأة الى ميدان العمل ، وتعدد مشاركتها لممارسات الذكور وتكافؤ الحقوق بين الجنسين . وترتب على ذلك أيضا ازدواج الأدوار ، وازدياد فرص تبادلها ، واختلاطها تارة ثالثة . غير أن تدخل كثير من عناصر التكنولوجيا فى الشئون المنزلية ، وفى تسهيل أداء بعض الوظائف ، قد خلف نتائج سلبية ، بجانب الوظائف المشجعة . من ذلك ازاحة كثير من الصور التعبيرية والجوانب الوجدانية ، التى كانت من مستلزمات بناء الدور التعبيرى عند الأم والاناث عموما . حيث تدخلت وسائل الترفيه وأدوات التسلية واللعب وغيرها ، لترفع جانبا من جوانب الدور التعبيرى .

هذا ولم يتعرض بارسونز لدور التكنولوجيا فى تحول الانساق القديمة أو تغيرها بنائيا ونظاميا ، على نحو ما نراه فى مجتمعات مثل الصين واليابان ، أو المجتمعات النامية والجديدة ، وإنما اكتفى بسرد تفاصيل كثيرة عن تأثير التكنولوجيا فى تحول الانساق من الداخل (١) . ومع أن هذا التغير (من الداخل) لا يمنع من وقوع

---

(١) Ibid, PP. 511-515.

تحولات كبرى أو شاملة فى بناء الانساق على ما أرى فان محاولات الدفاع عن التوازن الاجتماعى ، والتى سيطرت بشدة على نظريات بارسونز ، هى التى حالت دون تحليله للرأى الآخر . وانطلاقا من مفهوم المجتمع الجماهيرى ، وهو تصور معاصر لشكل الحياة فى مجتمع الولايات المتحدة ، ويعزى الى الطابع الانتشارى لنتائج التكنولوجيا ، وتوزيعها بين كل الطبقات والشرائح الاجتماعية ، يمكن القول بأن بارسونز تجاهل دور الصفوات الحديثة فى المجتمع ، وظهور مراكز جديدة للقوة والسلطة السياسية والاقتصادية والعسكرية ، فضلا عن تعدد مصادر السيطرة الاجتماعية والثقافية الأخرى . وكلها تأثرت من غير شك بنمو وازدهار التكنولوجيا .

واذا ما تجاوزنا مجال التحولات الكبرى فى بناء المجتمعات بسبب التغيرات التكنولوجية الى ميدان التغيرات المفاجئة ، كما تجسدها الحركاتا الثورية المتصاعدة ، والتى تقلب الميزان الأساسى للتوازن فى النسق الاجتماعى على حد تعبير بارسونز ، ويصعب من ثم الحاقها بالقطاعات الفرعية Sub-Secoters للنسق ، فاننا نرى حلولا أخرى تتسق ومنطق التحليل السابق . فقد ذهب بارسونز الى القول بأن تصاعد مثل هذه الحركات ينطوى على ميول اغترابية ومضادة أو متطرفة ، ونزعات يراد بها تجاوز الطبيعة التوافقية للتغير . ولا سيما اذا كانت من نموذج الحركات السياسية . فمثل هذه التحولات البنائية ، تتنافى والمصالح الراسخة ، وتكون نتائجها السلبية أكثر من آثارها الايجابية . ومع ذلك فاذا ما تمت سيطرتها ، أو أصبحت شاملة ، فان النسق يتجه على المدى البعيد لاستيعابها . ولابد من توافر شروط ملائمة حتى يكتب لمثل هذه الحركات « الكاريسمية » النجاح . كما انها لا تحقق الانتشار والقبول بين الأفراد والجماعات ، الا بعد مرور الوقت اللازم لازاحة الدوافع والنزعات الاغترابية ، والعناصر العشوائية ، وصور الخيال والأهواء وغيرها من المكونات التى لا تتفق وطبيعة النسق . ويعنى ذلك أن الحركات الثورية ، ومثلها التيارات العلمانية والدينية (مثل النازية والفاشية ، وحركة الاصلاح الدينى) ، لابد أن تعود من جديد الى الشكل النظامى ، أو تخضع للذبذبات المتعاقبة ، أو الحلقات التوافقية ، والا تبددت وتلاشت (١) .

(١) Ibid, PP. 511- 520.

ومن النتائج المرتبطة بمثل هذه الحركات ظهور الجماعات الاجرامية ، وانتشار الأعراض المرضية العقلية والنفسية ، وأيضا ، قيام الثقافات الفرعية المناهضة لقيم المجتمع ، أو المتصارعة والمنشقة التى لا تتطابق بحال مع الثقافة العامة ، وتبقى دائما سلبية البناء والأداء معا . وكثيرا ما تصبح هدفا لعمليات القهر والقسر فى المجتمع . هذا بالاضافة الى انبثاق أيديولوجيات ونزعات أخرى يعتمد البعض منها على الاذعان أو الخضوع لمتطلبات النسق الاجتماعى ، وكما يهادن البعض الآخر سلطات الضبط الاجتماعى ، أو يحتفظ بالوجود المستتر أو الكامن ، لحين تحين الفرص للانطلاق مرة أخرى ، وفى أشكال جديدة أو صيغ متباينة من إعادة التنظيم . وعلى الرغم مما ينسب الى هذا الرأى من مؤشرات لها دلالة واقعية ، ذكرها بارسونز ، فان الخلط بين نتائج الحركات الثورية والانقلابات السياسية أو العسكرية من ناحية ، وبينها وبين بعض التيارات والنزعات القومية والدينية الأخرى كان واضحا . وأدى ذلك الى الحاق الظروف غير السارة والمأساوية أحيانا ، بهذه الحركات والنزعات بغير تمييز . فالثورات تختلف فى عواملها وآثارها عن الانقلابات . وبصرف النظر عن هذه الأخيرة أو أسبابها فان كثير من المجتمعات القائمة اليوم والأمم الجديدة فى آسيا وأفريقيا وأمريكا اللاتينية ، قد حققت تقدمها ونموها عن طريق الثورات ، التى ارتبطت غالبا ، بتطلعات الجماهير ورغبتها فى بلوغ مستوى معين من التقدم ، بل وكانت من الوسائل الضرورية فى رأى المثقفين لتحقيق الآمال والتطلعات . واذا كان بارسونز قد حاول من خلال تحليله للحركات النازية والفاشية ، تبرير تصوره عن اغتراب المد الثورى ، فإن مثل هذه الحركات كانت من نوع الاتجاهات السياسية ، التى تجسد النزعات العنصرية والقومية بشكل خاص . ولها ظروفها التى دفعتها الى النمو والازدهار فى وقت معين ، وصادفت هوى فى نفوس الناس ، بسبب الفراغ الايديولوجى والسياسى ، ولهذا كان نجاحها مرهونا بفترة معينة ، لم تلبث بعدها ان انقشعت وتبددت ، دون أن تخلف آثارا ايجابية على المدى الطويل . والأمر على خلاف ذلك بالنسبة للثورات ، التى كثيرا ما تصبح استجابة عامة أو طبيعة لنداء الشعوب وتستمر التحولات البنائية التى تولدت عنها بغير تراجع فى كثير من الأحوال ، والأمثلة على ذلك كثيرة .

ولقد جاء موقف بارسونز من نتائج الثورة الروسية ١٩١٧ ، متحيزا

أيدلوجيا ، ويميل بشدة نحو تبرير واقعية الانساق الرأسمالية ، وملاءمتها لحياة الانسان ، وقدرتها على البقاء والتقدم والازدهار ، حين قال بأن التغيرات التى تعرض لها المجتمع الروسى ، كانت شكلية أكثر منها جوهرية ، أو أنها لا تنطوى على مضمون مقبول ومعترف به من جانب الشعب . وهى على حد تعبيره كانت انتقالا من « نموذج التوريث العام الى نمط الأداء العام Universalistic ascripitive pattern to universalistic achievement pattern. وتفسير ذلك أن التغير فى النسق ، لم يتجاوز حدود المتغيرات النمطية التى وضعها بارسونز .

فاذا كان التوريث العام يشير الى النظام الامبراطورى المتوارث من جيل لآخر ، عبر خطوط الأسر والعائلات الملكية ، والتى تحتفظ بخصائص عرقية مميزة ، كما يشتمل بالمثل على سيادة نظام الطبقات ، وسيطرة الاقطاع على مصادر الثروة فى المجتمع ، فان إنتهاء هذه النظم ، وانتقال الملكية للدولة ، واعادة توزيع الانتاج والثروة على أساس العمل والانجاز والمشاركة ، فى ظل مبدأ تكافؤ الفرص ، كل هذه المظاهر تعبر عن نموذج الأداء (1) .

ومع ذلك فان رأى بارسونز حول نتائج الثورة البلشفية مقتضب الى حد كبير . وتبقى العلاقة بين متغيرات النمط ، والتغير الاجتماعى فى الانساق ، من المشكلات التى طرحها بارسونز وفصل عنها الكثير . وعلى سبيل المثال ، يذكر أن المجتمع الهندى تحول نظاميا خلال فترة طويلة من الزمن ، من التركيز على التوريث ونموذج الخصوصية الى العمومية . وهذا التغير فى الاتجاهات والأفكار والمعتقدات ، وفى نماذج السلوك وأنماط الفعل ، وثيق الارتباط بالتوجيهات القيمية الدينية والعرفية من ناحية ، كما يعبر عن الاتجاهات العلمانية وغير العلمانية من جانب آخر ، والذى يعود الى انحسار السلطة المقدسة ، وضعف نظام الطوائف أمام التحولات التى اقتضتها ظروف التنمية الاجتماعية . واذا كان الأمر كذلك بالنسبة لعلاقة البدائل النمطية بالتغير الاجتماعى ، فان الملزمات الوظيفية هى الأخرى من شروط التغير النظامى ، لا سيما وظيفتى « التكامل وتدعيم النمط » اللتان تتصلان بالأبعاد الداخلية للنسق الاجتماعى ، وتعمل باستمرار على تحقيق التوافق مع العناصر

---

(1) Ibid, PP. 517 - 25.

المستحدثة والجديدة . وأخيرا فإن الموقف النظرى إزاء مشكلة التغير الاجتماعى كما يراه بارسونز يؤكد الخط الفكرى ويدعم اتجاهاته وأفكاره الأخرى حيال الموضوعات المطروحة سابقا ، وينطبق عليه ما يوجه اليها من مثالب ، أو ينسب اليها من نتائج ومبادىء جديرة بالاهتمام .

تعقيب :

تعرضت لبعض جوانب النقد الموجه لأفكار بارسونز فى ثنايا التحليل السابق للقضايا الرئيسية ، وأشير هنا الى أن وظيفية بارسونز أكثر تميزا عن غيره من العلماء السابقين عليه ، والمعاصرين له . وعلى الرغم مما ينسب الى مصنفه عن الملزمات الوظيفية من جوانب الخلط والقصور ، فضلا عن الصيغ التعسفية التى يضمها هذا التقسيم ، فإنه جاء أكثر ملاءمة ، مقارنا بالأفكار الشائعة فى هذا المضمار . واذا كانت كل من التنشئة والضبط الاجتماعى ، من الميكانيزمات الأساسية فى تحقيق التكيف والتكامل فى النسق ، فإن العمليات والأفكار التى تناولها بارسونز ، كانت ذات طابع كلاسيكى ، لا سيما مراحل التنشئة الاجتماعية ، والتى اشتملت على كثير من آراء علماء النفس . ومع ذلك اقتصرت على جماعة الأسرة ، ولم يبين بارسونز كيفية عمل هذا الميكانيزم ، أو ما هو الدور الذى تسهم به فى تكامل الوحدات أو الأجزاء . والمقابلة بين الضبط الاجتماعى والانحراف ، وان كان لها ما يبررها فى مخططه ، لا تخدم بالضرورة فكرة التوازن . وقد بالغ بارسونز فى الدفاع عن هذه الفكرة الى الحد الذى جعل منها القاعدة الأساسية للنسق الاجتماعى غير أن التوازن وإعادة التوازن لا ترتبط دواما بالتكامل الاجتماعى ، اذ يمكن للصراع هو الآخر أن يصبح عاملا فى اعادة التوازن الاجتماعى ، وهو من ناحية أخرى ينطوى على وظائف ايجابية ، تحقق استقرار النسق . وقد انكر بارسونز دور الصراع ، واعتبره ظاهرة مرضية ، وهى نفس الصفة التى تطلق على بعض أشكال التغير الاجتماعى ، والانحراف والاغتراب . أما موقف بارسونز من التغير الاجتماعى فيؤكد اتجاهاته الأيديولوجية الواضحة ، والتى يمكن أن تنسب للنزعة المحافظة ، وليس الميل الليبرالى . فقد اقترنت التحولات البنائية فى تصوره ، بالعنف والطفرات والثورات ، أو التغيرات الفجائية ، وهى فى جملتها لا تتفق وطبيعة النسق ، ولهذا كانت نتائجها

السلبية أكثر من آثارها الايجابية ومن ثم فإن التغير النظامى ، والذى يتم داخل الوحدات وبين الأجزاء ولا يتصل بالكل الاجتماعى ، هو الذى يجسد ظواهر التحولات المستمرة ، وبشكل توافقى ومتدرج .

وتقسيم التغير الاجتماعى الى نموذجين احدهما بنائى والآخر نظامى ، يرتبط برأى بارسونز حيال مشكلة التنظير للتغير . فقد قرر بأن قيام نظرية تفسر التغير فى بناء النسق ككل فى الوقت الراهن ، هدف يتجاوز حدود معرفتنا الحالية بالقوى والقوانين التى تتحكم فى الانساق الاجتماعية . ويمكن اذا ارجاء هذا التطلع حتى تتوافر الشروط المعرفية المناسبة . واذا كان الأمر كذلك فهل هناك نظرية تفسر ظواهر التغير النظامى كما يفهمه بارسونز ؟ وما هو البديل اذا لم يكن بوسعنا الوصول الى أى من هذه النظريات ؟ وما هو موقف بارسونز من النماذج النظرية المتعددة فى تفسير التغير ؟ يجيب بارسونز على ذلك فيقول بأن طبيعة الذبذبات المتعاقبة والمستمرة تقترن دائما باستجابات توافقية مضطردة معها فى التقدم والنمو . ولعمليات التنشئة والتطبيع الاجتماعى دور هام فى تلبية مستلزمات هذا النوع من التغير النظامى ، بجانب ميكانيزمات أخرى كثيرة . ويمكن اذا الوصول الى بعض التفسيرات المحدودة النطاق بشأن هذا الشكل من التغير . أى أن النظريات متوسطة المدى ، هى التى تتلاءم مع تحليل التغيرات النظامية .

ولم يقبل بارسونز النظريات التطورية والانتشارية ، ورفض فكر التغير الدورى وغير ذلك من النماذج والأفكار ذات الطابع الشمولى . واذا كان هذا المسلك يتفق مع نزعته الوظيفية الخاصة من ناحية ، ويتسق مع الاتجاهات الوظيفية بعامة ، فإن التحولات الكبرى التى تشهدها الانساق الصناعية المعاصرة ، تتعدى حدود هذا التصور بكثير . فقد أضحى التغير البنائى اذا استعارنا لغة بارسونز ، من الظواهر المتكررة فى كل المجتمعات أو فى معظمها . وتصعب فى كثير من الأحيان ، التفرقة بين أشكال التغير على النحو الذى قال به بارسونز . ولم تعد الثورات أو التحولات المفاجئة من عوامل الهدم أو اضطراب النسق ، بل أصبحت احدى المتطلبات الأساسية للبناء واعادة التشييد فى كل المجالات . ولا تقل ضرورة التغير الاجتماعى أهمية ، عن لزوم التوازن . وكثيرا ما يكون التغير أسلوبا لاعادة التوازن الاجتماعى .

وإذا كان الموقف النظرى لا يمكننا من وضع اطار ملاءم لنظرية عامة فى التغير الاجتماعى ، فإن ذلك لا يحول دون الدراسة والبحث ، من أجل الوصول لنتائج قابلة للتطبيق على مجتمعات معينة . ولم تحرز نظريات التوازن ـــ أن صح التعبير ـــ تقدما أكبر مما حققته الصياغات المتباينة حول تفسير التغير الاجتماعى ، بل أن العكس هو الصحيح . ويبقى التغير هو الشكل المميز للنسق الاجتماعى ، أما التوازن فهى حالة مفترضة لتقرير واقع إجتماعى معين ، أو تأكيد نزعة ايديولوجية ما ، أو تصور مجرد نحتاج اليه عند تحليل بعض الظواهر المشروطة ، أو المرتبطة بظروف خاصة .

ويعتبر موقف هومانز من التوازن داخل الجماعة ، أكثر واقعية من موقف بارسونز للتوازن الاجتماعى داخل النسق . ويرجع ذلك الى اقتران التوازن عند هومانز بشروط محددة ، والا امتنع وجوده ، بينما أطلق بارسونز قاعدة التوازن دون قيود ، الأمر الذى عرضه للنقد ، هذا بالاضافة إلى اهمال دور الصراع الاجتماعى ، وضرورة للتوازن حسبما ترى بعض النظريات . ويقتضى الموقف المنهجى معالجة القضايا على نحو متوازى ، لا سيما اذا ما كانت الصياغة النظرية تتصل بالمشكلات الكبرى أو العامة ، كتلك التى أثارها بارسونز .

* * *

الفصـــل الســـادس

الاتجاه البنائى الوظيفى وموقف بارسونز منه

ـــ مدخــــل :
ـــ أولا : الاتجاهات الأساسية فى المدخل الوظيفى وعلاقاتها بمفهوم النسق الاجتماعى
ـــ ثانيا : بارسونز بين الوظيفين

الفصل السادس
الاتجاه البنائى الوظيفى وموقف بارسونز منه

مدخــل :

جمع بارسونز فى منهجه الوظيفى بين أفكار كلاسيكية وأخرى محدثة من أجل صياغته للملزمات الوظيفية . ومن ثم فإن مفهوم الحاجات المشتقة عند مالينوفسكى ، امتزج بقضية الاعتماد المتبادل التى أفاض فى الحديث عنها دوركايم ، ثم تطورت على يد عدد من العلماء مثل ميرتون وماريون ليفى ، كما تأثر برواد الاتجاه الأنثرولوجى فى دراسة « الثقافة والشخصية » . ومنذ بداية عام ١٩٦٧ برزت أفكار جديدة فى أعمال بارسونز من بينها أوساط التبادل العامة « كالنقود » فى المجال الاقتصادى والنفوذ فى الميدان السياسى ، و« اللغة » فى النظام الثقافى . بالاضافة الى التركيز على الرأى العام أو الدعاية وأساليب الاتصال وغيرها . وكلها شروط وقوى تتميز بها المجتمعات الصناعية الحديثة ، ولها دور كبير فى توجيه الأفراد والجماعات . وهذا ما ينطوى بالمقابل على التقليل النسبى من أهمية الملزمات الوظيفية .

أما موقف بارسونز من البناء الاجتماعى ، فإنه لا يختلف كثيرا عن غيره من العلماء ، فالبناء الاجتماعى جانب هام من النسق ، ويشتمل على العلاقات الأساسية والجماعات الرئيسية التى تتمتع بقدر أكبر من الاستمرار والقدرة على التأثير فى النظم وبناء الأدوار . وتظهر التفرقة بين البناء الاجتماعى والنظم عندما يناقش مشكلة التغير الاجتماعى . وتحقق الترتيبات البنائية توزيعا معينا يتصل بكثير من الوحدات والنظم ، بينما تبقى العناصر الوظيفية ضرورية لتفسير العمليات والتفاعل الاجتماعى . ولا ينفصل البناء عن الوظيفة ، بل يقترن بها دائما . وهذا ما يتأكد فى كثير من القضايا والمفاهيم والمشكلات التى طرحت فى هذا الكتاب .

أولا : الاتجاهات الأساسية فى المدخل الوظيفى وصلتها بمفهوم النسق :

تكمن تفاصيل وأبعاد الاتجاهات الرئيسية للمدخل الوظيفى فى ثنايا التراث الذى لا يهمنا الا فيما نستطيع الافادة منه فى بلورة الأفكار العامة ذات الاتصال بموضوع الدراسة . ومن أجل ذلك فسوف نأتى الى تعين النقاط المحورية فى هذا الشأن ، من حيث مدى ارتباطها بالقضايا الرئيسية والفرعية التى يقوم عليها تصور بارسونز للنسق الاجتماعى ، وأهم تلك النقاط ما يأتى :

١ ــ يتصل الاتجاه الوظيفى فى هيكله العام بدراسة الوحدات الكبرى ، ومنها المجتمعات عامة ، ويبحث عن العلاقات الأساسية بين النظم والجماعات أكثر مما يركز على الأفراد أو الجماعات الصغرى ، ومن ثم فقد أضحى المدخل الأساسى فى دراسة راد كليف براون للمجتمع من المنظور الواسع ، وفى دراسة مالينوفسكى للثقافة ، وفى تقرير بارسونز للمفهوم العام للنسق الاجتماعى . ومن أجل ذلك قلنا بأن هذا الأخير يعتبر من أنصار الاتجاه المسمى بالماكرووظيفية Macro-Functionalism. ...

٢ ــ ان الحاجات الوظيفية التى قال بها بعض الوظيفيين ، تتبلور إما فى شكل ظروف سابقة على وجود المجتمعات ولازمة لها وهى ما يطلق عليها اسم preconditions. وهذا ما عبر عنه دور كايم ومالينوفسكى (من الكلاسيكيين) وبارسونز على الأقل (من المحدثين) ، وإما فى صورة نتائج وآثار ... Consequences. ، وذلك ما اهتم به روبرت ميرتون على وجه الخصوص . ومخطط بارسونز للملزمات الوظيفية يترجم عن وجود تلك الشروط المسبقة ، كما يدلل على لزومها لكل الانساق الاجتماعية .

٣ ــ ومع اهتمام هذا المدخل بدراسة المجتمعات من المنظور الشامل ، واتفاقه فى هذه النقطة مع الاتجاهات التطورية والانتشارية ، الا أنه لا يعطى التاريخ والحسابات الزمنية ، وخاصة ما يتصل منها بالماضى ، الا قدرا محدودا من الأهمية ، وقد كشف بارسونز عن ذلك الميل الشديد نحو الاكتراث بالاستقرار الاجتماعى وبالحاضر فى كثير من قضاياه .

٤ ـــ تعد فكرة النسق الاجتماعى ، لب التفكير الوظيفى فى علم الاجتماع والأنثروبولوجيا ، وان كلمة نسق إصطلاح يستخدمه الوظيفيون للتعبير عن ذلك الكل الاجتماعى الذى تقوم فيه الأجزاء بأداء وظائف معينة لتدعيمه ، وتأكيد وجوده وتثبيت أركانه ، وأحيانا توسيع نطاقه وتحقيق التآزر بين مكوناته ، لتصبح الأجزاء متساندة ومتبادلة ومتكاملة الى حد ما . ومن أجل ذلك شايع بارسونز التبادل والتساند والاعتماد الوظيفى ، والتى قال بها من سبقوه .

٥ ـــ ارتبط تصور العلماء لمفهوم الدور الاجتماعى ، بالتفسير الوظيفى ، وجاءت بعض تفسيرات الأداء الوظيفى لتشير الى اعتبار الوظيفة من قبيل الدور الذى يساهم به الجزء فى تدعيم الكل ، وذلك فى بعض معانيها . وقد كان اهتمام بارسونز بقضية الدور الاجتماعى ، مدعاة لحديث مستفيض من جانبه حول ما يطلق عليه تبادل التوقعات فى أداء الدور وأثرها فى تعيين العلاقة التى تربط كل من الذات بالآخر ، وهما أساس عملية التفاعل الاجتماعى . وقد حاول بارسونز فى هذا الاتجاه ، أن يبرهن على امكان التنبؤ بالسلوك المتوقع بين الطرفين ، لكن جهوده فى هذا الصدد لم تحرز تقدما ملموسا . وهذا ما يتسق مع ما قررناه من قبل من أن القضايا التى جاهد بارسونز فى التدليل عليها ، جاءت قضايا وصفية ، ومن ثم فهى لم تتجاوز حدود الوصف الى مجال التفسير ، بسبب عدم توفر القدر المطلوب من التنبؤات المحتملة ، ومع ذلك فإن فكرة التوقعات المتبادلة وثيقة الاتصال بالمشجعات والمعوقات الوظيفية ، والوظائف الخفية أو الكامنة والظاهرة فى أى سلوك ، بما يمكن معه تحقيق قسط محدود من القدرة التفسيرية لبعض مسببات السلوك ونتائجها .

٦ ـــ اتجه الوظيفيون المحدثون الى الاهتمام بالديناميات الاجتماعية وبالتحولات الشاملة ، التى يمكن أن تتعرض لها المجتمعات بما يخل بنسق القيم المستقرة وبالمصالح الأساسية للشرائح والطبقات .

وتمشيا مع هذا الاتجاه فقد بدأ بارسونز يتراجع عن بعض أفكاره ذات الصلة بالجوانب الاستقرارية ، ليعطى التغير الاجتماعى مكانا أكثر اتساعا فى دائرة فكرة النظرى ، ومع ذلك فان حديثه عن التغير لم يتجاوز الاطار العام لقاعدة التوازن الاجتماعى ، الذى جعل منه محور الارتكاز لكل القضايا ومنها التغير .

٧ ـــ استطاع بارسونز أن يحدد موقفه من التباين القائم بين العلماء ، والذى يرتكز على توزيع اهتمامهم ، إما حول الثقافة أو المجتمع ، وتأثير هذا على اتجاهاتهم البنائية والوظيفية حين قال بالاستقلال التحليلى لانساق الفعل ، فى الوقت الذى ربط فيه بين هذه الانساق بالنسبة للمستوى الأمبيريقى ، والذى يتعذر من خلاله الفصل بينها ، وتلك محاولة توفيقية ، ومع أنها لم تذهب أكثر من تكريس الجهد للتفرقة بين كل من الظواهر الاجتماعية والثقافية والسيكولوجية ، فان مسلك بارسونز يتسم بطابع جديد فى التصوير النظرى ، كما يتصف بمقدرة أوسع على الكشف عن أوجه الاتصال ، ومواطن التباين بين هذه الانساق .

٨ ـــ يتصور الوظيفيون ، وجود فوارق بين المبادىء العامة والمجردة وبين المواقف العيانية والمشخصة والجزئية ، وقد تجلى هذا فى التعبير عما يسمونه أحيانا بالصور البنائية أو المبادىء البنائية فى مقابل البناء الواقعى . وبغض النظر عن المساجلات التى قامت فى هذا الصدد ، وعما انتهت اليه من نتائج ، فان بارسونز قد استعان بهذا الفهم فى تفرقته بين النسق الاجتماعى كنظرية عامة ، وبين الانساق الأمبيريقية أو الانساق الصغرى . ومع ذلك فاننا لا نكاد نلمس الا اهتماما أكبر بالنسق كتصور شامل وعام حيث لم يعر بارسونز الانساق الأمبيريقية مثل الطبقات الا أهمية محدودة .

٩ ـــ ظهرت فكرة المرادفات والبدائل عند بعض الوظيفيين ، حيث حاولوا بيان دورها فى حل بعض المشكلات ، ويفيد مفهوم البديل تنوع الأساليب وتعدد النماذج السلوكية وقدرتها على أداء وظائف متبادلة أو متشابهة ، مع امكان تنظيمها فى مصفوفات حسب مقدرة كل مجموعة أو مصفوفة منها على تلبية حاجة ، وبما يمكن معه احلال أى منها مكان الأخرى لأداء نفس الدور . وعلى الرغم من كلاسيكية الفكرة ، فإن تصوير بارسونز لها جاء على نحو أكثر بلورة ، كشف عنه تقسيمه الخماسى لمتغيرات النمط ، والقائمة على عنصر المزاوجة بين متقابلات تتحكم فى توجيه السلوك وفقا لمعايير متعددة .

مما تقدم يتبين لنا أن بارسونز اختار الأسلوب الوظيفى لدراسته عن النسق الاجتماعى ، وحاول أن يخضع كثير من القضايا التى تناولها لتصوراته عن فكرة البناء

والوظيفة ، وهى تصورات مستمدة من المبادىء التى أقرها معظم أنصار الاتجاه الوظيفى ، سواء من ناحية الشكل أو المضمون .

ثانيا : بارسونز بين الوظيفيين :

يمكن وصف موقف بارسونز من المدخل البنائى الوظيفى ، بأنه جاء معبرا عن الوظيفية فى اطار النسق ، كما يمكن أن نطلق عليه مذهب الحتم الوظيفى functional imperativism . وهذا المذهب جاء محملا بأفكار مستقاة من المجال السيكولوجى ، والأنثروبولوجى ، والعضوى ، فضلا عن البعد السوسيولوجى ، تكشف عن كل هذا أعمال بارسونز وآراؤه حول الفعل والنسق فى كثير من الأحوال .

وقد بدأت اهتمامات بارسونز الوظيفية ، مع تحوله من الاتجاه الطوعى فى بناء الفعل الى إعطاء الأبعاد النفعية والشروط المفروضة دلالة أكبر ، ومن هنا قال بالملزمات الوظيفية ، وهى تعبر عن نقاط الارتكاز القوية فى نظريته عن النسق الاجتماعى ، ولهذا التحول أسبابه التاريخية والاجتماعية ، ومنها حرب الأيديولوجيات والنزعات الساخنة . وحيال ظهور الضغط الشيوعى فى روسيا وقوة الدولة ، وما كان لهذا الضغط من مرامية الفكرية ووسائله الخاصة ، حاول بارسونز البحث عن أسس جديدة لتدعيم الاستقرار الاجتماعى والتوازن ، عن طريق تصور ينبنى أولا وقبل كل شيء على الأسس المستمدة من الرأسمالية ، خاصة فى مجتمع الولايات المتحدة الأمريكية ، وقد تبلور ذلك فى توسيع نطاق فكرة النسق الاجتماعى ، وفى التركيز على متطلباته الأساسية بما جعلها بمثابة العلامات التجارية التى تميزه عن غيره ، خاصة وانه قد حددها على سبيل الحصر . ومع أنه قد استلهم الكثير من الأفكار الوظيفية التى قال بها غيره الا أن انطباعه الشديد بالوظيفية البنائية فى أكثر صورها اهتماما بالتكامل الاجتماعى والاستقرار ، كان جليا وصريحا ، التزاما منه بالتوجيه الأيديولوجى الذى لم يحد عنه . ومن ثم فقد أقر بالثبات النسبى لما يطلق عليه العناصر البنائية ، وجعل من التوازن الوظيفى ، مفهوما لتفسير التغير النسبى فى الأجزاء والوحدات وحسم مشكلة التضارب بين العلماء فيما ينبغى التركيز عليه أكثر ، البناء أم الثقافة حين وضع مخططه عن الانسان الكبرى والانساق المتضاءلة ، وربط بين هذه وتلك ربط قويا ، فى الوقت الذى لم يهمل فى بيان الحدود التى يمكن أن تفصل بينها

تحليليا . واتساقا مع هذا التصور فقد اهتم بكل من النسق الاقتصادى والسياسى والمجتمع المحلى والتكنولوجيا على اعتبار أنها تمثل أهم الانساق الصغرى ، وطبق عليها المقولات والقضايا التى ساقها بالنسبة للانساق الكبرى . والجدير بالذكر أن هذه الانساق ، وكذلك الأوساط العامة للتبادل والسابق التنويه اليها ، تشكل كثيرا من المبادىء البنائية والجماعات الرئيسية لتتضح أبعاد فكرة البناء ، فضلا عن الدور أو مجموعة الأدوار المنوطة بكل منها وهى أدوار يعتبرها بارسونز متدرجة فى البناء وفى الأداء مع تطور ونمو الوحدات الاقتصادية والادارية والسياسية الحديثة ، ومع ظهور الجماعات والروابط الاختيارية . كما ناقش بارسونز التمايز والتكامل فى الأداء الوظيفى . وذهب فى هذا الشأن الى أن الاختلاف فى بناء الوحدات لا يؤدى إلى الاخلال بالتناسق والتكامل الذى يمكن أن يقوم بينها ، وأن التعدد يخدم مبدأ الوحدة الوظيفية الذى يقترن بمبدأ آخر هو التفاعل الاجتماعى ، وهذا ما يكسب النسق خاصية النشاط والفاعلية ، بجانب وجود المقومات والعناصر الأكثر ثباتا (١) . واذا كانت الثورات من العوامل الأساسية فى تغيير البناء الاجتماعى وتخل بمبدأ التماسك والتوازن فى النسق حسبما يتصور بارسونز ، فقد حاول جاهدا تبرير الدور السلبى للثورات ، وقدم من الشواهد ما يعتقد فى أنه يؤيد قضاياه . فقال مثلا بأن الثورة الروسية ١٩١٧ لم تؤثر على البناء الاجتماعى للمجتمع الروسى الا بعد انقضاء وقت طويل على قيامها ، وفقدت بذلك كثير من المبادىء التى سعت اليها تحت تأثير الشروط الزمنية والعوامل الأخرى التى أثرت فيها . وعلى أية حال فان بارسونز كثيرا ما أشار الى الثورات كمعوقات وظيفية فضلا عن آثارها الضارة على استقرار البناء الاجتماعى وتكامله .

يكاد بارسونز ان يأخذ قضية التبادل الوظيفى على علتها ، دون أن يحدد اتجاه معين يدافع عنه ، أو أن يدرس التناوب كقضية تسترعى اعادة النظر ، ومن اجل ذلك كان موقفه مترددا بين أن يأخذ بمفهوم جولدنر للتبادل ، او يبدى اهتماما ما بتعدد اطراف التبادل على النحو الذى يقول به كلود ليفى ستراوس . ومع ذلك نستطيع القول بأن آراء بارسونز تكشف عن انطباعه بالاتجاه الثنائى فى التبادل على نحو ما يتبلور فى حصر العلاقة التفاعلية بين عنصرين اساسيين هما الذات والاخر ،

(١) Pul, Diesing, patterns of discovery in Social sciences, op-cit, pp. 222-23.

والمزاوجة بين البدائل النمطية . وكثير من المواقف تكشف عن ايثاره للميكانيزمات والعمليات المتقابلة ، مثل المقابلة بين الصراع والتوازن وان آثر بالاهتمام الاخير على الاول ، وقيام ميكانيزم الضبط الاجتماعى فى مواجهة الانحراف وغيرها الكثير[١] .

ولكن تبادلية بارسونز التى يمكن وصفها بتبادلية الارضاء او الاشباع تكشف عن سلبية مسلكه وايثاره للعناصر التكاملية فى الوقت الذى القى بالصراع والتوترات خارج نطاق فكرة التبادل ، وهذا ما يشير الى قصور تصوره فى هذا الصدد[٢] .

حاول بارسونز ان يربط بين البناء الاجتماعى والخلق القومى ، وانتهى بصدد تلك المسألة الى قضية مؤداها ان الخلق القومى الامريكى لم يتغير خلال القرن العشرين كثيرا ، وان التحول كان فى المعايير المصاحبة لنمو التصنيع والبيروقراطية والتحضر ، وأن مركب القيم الاجتماعية الذى يركز على الاداء النشط ، لم تعتريه تحولات جذرية[٣] . وهذا ما يفيد اهتمام بارسونز بطابع الحياة فى مجتمع الولايات المتحدة الامريكية ، ومحاولته تطبيق بعض مايعتقد فى انه من المبادىء العامة على الانساق الاخرى ، كما يذكر بأن التفاعل يعنى أن الفرد يشارك فى بناء العلاقات الاساسية فى اى نسق ، من حيث كونه يمثل قطاعا صغيرا فى شبكة العلاقات الواسعة والكثيرة فى النسق ، ويتم تعين موقف المشارك من خلال ادائه لدوره وارتكازه إلى مركز أجتماعى معين وبروز مكانته ، وهكذا ترتبط الجوانب الوظيفية بالبنائية فى تكوين الشخص ، وفى ادائه العام[٤] واذا كان بعض العلماء قد تناولوا بالدراسة النظم الاجتماعية وحاولوا التفرقة بين البناء والنظام الاجتماعى ، فان موقف بارسونز يكاد ينحصر فى النظر الى النظم كوحدات اساسية تدخل ضمن الاطار العام للنسق الاجتماعى بالمدلول الواسع ، ومن ثم فانها ترتبط بالبناء[٥] .

---

(١) Parsons, 'An outline of social system'' op-cit, PP 33-39.

(٢) Ibid, P. 38.

(٣) Parsons, Social structure and personality, op-cit, PP. 137-200.

(٤) Parsons, The cocial system, op-cit, Chapter 3,4,5.

(٥) Parsons, Essays in sociological theory, op-cit, PP. 225-32.

ومما تقدم يمكن ان أنتهى الى تقرير حقيقة أساسية ، مؤداها انطباع بارسونز الشديد باهتمامات العلماء الوظيفيين على اختلاف نزعاتهم . وقد استطاع ان يجمع بين فكرتى البناء والوظيفة فى اطار النسق الاجتماعى ، ومن اجل ذلك فهم فكرة البناء فهما اضيق. مما الحقه روبرت ميرتون بها ، وعلى الرغم من تأثر بارسونز بما ساقه ميرتون من قضايا بنائية ووظيفية . وجاء هذا الفهم متسقا مع تصوره للنسق الاجتماعى من جانب ، وللنظام الاجتماعى من ناحية اخرى . وكما اسلفنا فان القضايا التى اهتم بمناقشتها كالتوازن والضبط والتغير الاجتماعى ، جاءت كلها وتفصيلا ، اكثر ما تكون اتساقا مع موقفه البنائى القائم على اساس المزج بين شتات الافكار وتطويعها بما يتلاءم وفكرة النسق الاجتماعى وهى من العوامل التى فتحت المجال لنظريات مناهضة ، حاولت فى المقام الاول نفى النظريات الوظيفية ونظرية النسق الاجتماعى على وجه الخصوص . وهذا ما سوف ننتقل اليه الان .

* * *

الفصل السابع

الانتقادات الموجهة لآراء بارسونز

- مدخــــل
- أولا : الانتقادات الموجهة لموقفه من الفعل .
- ثانيا : الانتقادات الموجهة لمفهومه للنسق .
- ثالثا : مثالب وظيفية بارسونز .
- خاتمــــة .

الفصل السابع
الانتقادات الموجهة لآراء بارسونز

مدخــل :

ان نظرية النسق الاجتماعى ، وفقا للتصورات العامة والشاملة ، التى يقدمها بارسونز تدخل فى عداد النظريات الكبرى شأنها شأن النظريات الانتشارية والتطورية ، ودخولها فى هذا الاطار الواسع بغض النظر عن المحاولات التى يقدمها بارسونز لتبرير قضاياه ، ودون مناقشة التفاصيل المتصلة بالابعاد والحدود التصورية والمنطقية لأية نظرية علمية ، انما يجعل منها بناء نظريا ممعن فى التجريد والتصور ، من اجل تقرير واقع ايديولوجى معين ، يتصل اكثر ما يكون باليمين الغربى ، فى مواجهة اليسار الشرقى وربما اليسار الجديد ، ولعل المحك فى التدليل على ذلك ، هو موقفه من مشكلتى التوازن والصراع فى النسق .

واتساقا مع قضية التوجيه الايديولوجى ، نقول بأن علم الاجتماع وقد إنقسم بما يشبه الانقسام الايديولوجى الى قسمين متضادين ، ومع وجود علماء لهم مواقف موضوعية من المشكلات السوسيولوجية ، مثل س . رايت . ميلز ، الا أن الطابع السائد هو وجود الانقسام المذكور ، وهذا ما عاق تقدم النظرية فى هذا العلم كثيرا ، بالاضافة الى الخلاف القائم حول المصطلحات والمقولات والمفاهيم الاساسية ، والفواصل الشديدة بين الدراسات النظرية والامبيريقية .

ونظرية النسق الاجتماعى ، كما يتصورها بارسونز ، جاءت بأراء وقضايا مختلفة ، واثارت مشكلات عامة ومجردة ، مما حال بينها وبين الواقع الامبيرقى . وما اثار ضجة كبرى حول اراء بارسونز تعقد المصطلحات والتواء المضامين النظرية ، ولجوئه للصيغ غير المستخدمة من قبل والمستحدثة طمعا منه فى ان يأتى بجديد لها . ولكن العلم لايتقدم الا من خلال البساطة فى التعبير والوضوح فى التصوير ، واستخدام الالفاظ البسيطة ذات القدرة على تجسيد المضمون ، وكلها تقرب المعنى

من الدارس ، وتسهل الفهم ومن هنا فقد كان لجوء بارسونز للصيغ المركبة والافكار المعقدة ، مبعث غموض شديد . وعلى الرغم من قدرة بارسونز على تصوير القضايا الكبرى فى اطار جديد ، فان اسهاماته عجزت عن ان تحقق المستوى المطلوب واللازم لتقدم النظرية . ولعل عدم وجود خلفية كافية فى علم الاجتماع الامريكى بصفة عامة ، كان لها تأثيرها على مسلك بارسونز هذا ، كما كانت من اسباب تأثره بعلماء الاجتماع الغربيين .

أولا : الانتقادات الموجهة لموقف بارسونز من الفعل :

يقرر بارسونز ان نظرية النسق وثيقة الصلة بمذهب الفعل كما يسميه ، وذلك لان النسق الاجتماعى احدى الانساق التحليلية التى يطلق عليها انساق الفعل ، على النحو الذى عرضناه فى الفصل الثالث . ولقد سبقت الاشارة الى وحدة الخط الفكرى ، الذى سار عليه بارسونز ، ومن ثم فان محاولة البعض تفسير موقفه من الفعل أو السلوك على أنه قد يتناقض من بعض الوجوه مع موقفه من نظرية النسق الاجتماعى ، هو تفسير يرتبط بالشكل دون المضمون ، ومن أجل ذلك كانت هذه النقطة من اضعف المواضع الانتقادية . ثم إن نظرية النسق الاجتماعى تتصل اتصالا قويا بالسلوك الاجتماعى ، لما يناط بها من التركيز على مسالة الاداء ، وتبادل التوقعات ، ومن اجل ذلك ايضا كانت نظرية الفعل ذات دلالة لاتصالها بتعلم السلوك الاجتماعى ، وقيامه على عنصرى الرشد والعقلانية ، ومن هنا فقد قال بارسونز بامكان ملاحظة وتحليل السلوك البشرى ، الذى ينتج عن التفاعل القائم بين مجموعات الافراد ، والذى يتخذ صورا متعددة ، وفقا لتباين المواقف ، وقدم تقسيماته لابعاد ومقومات الفعل على النحو المشار اليه سلفا .(١) .

وهذا التقسيم يعطى اهمية اكبر لوحدة القيم ، ويؤكد على دلالة النظام المعيارى ، ولكنه يجعل من السلوك مركبا من مجموعة من الابعاد اشبه ما تكون بالمحصلة النهائية من الذرات الميكانيكية ..... Mechanical Sum total Of atoms ، وهذا تصور لايستقيم مع الواقع الامبيرقى ، والذى يكشف عن وجوده بصورة اقوى فى مجتمع الولايات المتحدة الامريكية نفسه ، كما انه لايستقيم والتوجيه النظرى ايضا . فبا

(١) Parsons and shils, Toward General theory of action, op-cit, P.5.

رسونز وهو يتحدث عن انساق معقدة ، لم يكتف بتقرير قيامها على اساس التضامن العضوى كما فعل دوركايم ، بل ادخل فى قضية الفعل الافكار والتصورات المستمدة من العلوم الميكانيكية والطبيعية وغيرها ، الامر الذى جعل نظريته تجمع بين خليط من المعانى المتباينة ، والتى لا إتساق بينها . فاصطلاح القيم النهائية او المصالح الراسخة غامض ومبهم ، ولايعبر عن اطار معين ومحدد الابعاد ، حتى من الناحية النظرية والتصورية . ثم ان هذه القيم والمصالح كثيرا ما تكون محل تباين بين الافراد . وفكرة الرسوخ فى الشئون الانسانية والاجتماعية من المفاهيم المتصورة ، لان القيم والمصالح فى تغير دائم ، وقد تتعرض لتحولات كبيرة واساسية تقلبها رأسا على عقب . فاذا اضفنا الى ماتقدم ، اتخاذ بارسونز المجتمع الامريكى اطارا مرجعيا لتقرير قضاياه ، فان الظروف الاجتماعية والتاريخية التى عاصرها هذا المجتمع ، كانت من الاسباب القوية فى تحقيق استقراره ، وهى لم تتحقق لغيره . ومن هنا كانت فكرة المصالح الراسخة ان صح وجودها ، قصرا على هذا المجتمع دون ان تنسحب بالضرورة على ماعداه كما يريدها بارسونز . لتطرح قضية المصالح الراسخة جانبا لقيامها على اساس فلسفى ، ولارتباطها بواقع أيديولوجى .

فى تناول بارسونز لما يسمسه الاطار التصورى لنظرية وانساق الفعل ، حاول تنحية كل مظاهر الشقاق والتباعد والصراع ، وصور الفاعل (الفرد) على انه يوجه سلوكه نحو اشباع مطالبه بطريقة ترددية ، هى اشبه بنوع من (الرادار) ، وانه يستطيع رؤية مجتمعه من خلال التوقعات المتبادلة فى اداء الدور ، وان يحتفظ لنفسه بقدر من الكفاية على تكييف سلوكه ، بما يتلاءم وردود أفعال الاخرين ، ثم يراجع نفسه ويتراجع عندما يصطدم بما يثير حتى مجرد الشك تجاه افعاله وردود الافعال . إن السلوك البشرى لايسير على تلك الصورة ، وذلك الشكل الذى يصوره بارسونز ، ولايمكن أن يخضع للتفسيرات الميكانيكية او العضوية ، او ما شاكل ذلك . ولعل عدم اتفاق ردود الافعال مع التوقعات المنتظرة ، فى كثير من الاحوال حسبما تكشف عنه البحوث الجارية ، يضعف من قضية تبادل التوقعات . ذلك لان السلوك البشرى معقدا تعقيدا شديدا ، بما لايمكن تفريغه فى مجموعة محددة من المقولات التى يضعها بارسونز فى اطار ضيق من المقومات التى عينها على سبيل الحصر (كالفاعل —

---

(١) Parsons and shils, Toward General theory of action, op-cit, P.5.

الغاية ــ التوجيهات ــ الفعل) ، أو أن تقع ضمن اطار من البدائل او مخطط رباعى او خماسى وغير ذلك .

إن العناصر النفسية التى بروج لها بارسونز ، تختلف عما اراده انصارها فى القرن التاسع عشر ، فهى عنده تقوم على فكرة تبادل التأثير والتأثر . وقيام السلوك على اساس النفعية هنا مشروط بحدود التوجيه القيمى ، وبالسلطة الشرعية ، وبادراك ابعاد المكانة والتدرج ، وصولا لمسايرة الاداء العام والنمط الشائع ، والتطابق مع ما هو صحيح . ومن أجل تقرير نفعيته الجديدة التى لاتتعارض ايضا مع حرية الارادة . اعتبر مبدأ الكسب المادى ليس الاساس الوحيد للمنفعة وأن التوجيه القيمى يمثل مكانة خاصة ومحورية فى هذا الصدد . وعلى الرغم من وقوع بارسونز تحت تأثير كثير من التصورات المستمدة من علوم شتى ، فقد قرر أن السلوك لايعقد على الحسابات ..... Calculations ، بل انه يخضع بالدرجة الاولى للاعتبارات الاخلاقية ومردها الاحساس بالواجب والمشاركة الاجتماعية والتوجيهات بنوعيها القيمية والمعرفية ، فضلا عن الدافعية .(١) وهذا ما يمثل موقفا مزدوجا ، قد يشير الى تناقض بارسونز مع نفسه .

ويقوم مدخل الفعل على التشابه بين ما يطلق عليهم بارسونز (الفاعلين الاجتماعيين) ووجه التشابه هنا يكون فى وحدة الاهداف والغايات التى يحققها اداء السلوك ، كما أن الوسائل والغايات ترتبط معا بعنصر الملاءمة ؟ ولنا أن نتساءل ما هى محكات الملاءمة وماهى معايير عدم الملاءمة ؟ إن بارسونز لم يحدد الاولى ، فى الوقت الذى ارجع الثانية الى عناصر معوقة وظيفيا احيانا ، والى جوانب هامشية ومغتربة احيانا اخرى ، دون أن يحاول مواجهة المشكلات الاساسية التى تثور فى نطاق الانساق الحديثة . وحاول بدلا من ذلك رسم خريطة للسلوك البشرى تعين ابعاده وتحدد نتائجه بشكل اشبه بالمتواترات ، وبما لا يتسق وطبيعة التفاعل الاجتماعى والقدرة على التطويع ومرونة الفاعل . ثم أن هناك من القضايا ما هو من البديهيات مثل قيام السلوك على اساس تحقيق غايات معينة ، ومع ذلك فتكاد ان تكون الافعال المنعكسة غير موجهة نحو تحقيق هدف صريح او معروف . ولم يحاول بارسونز التعرض لتلك النقطة ، والتى اثارها ماكس فيبر قبله ، واخرجها من دائرة السلوك

(١) Parsons. T, Essays in Sociological theory, pure and applied 1949, P.184.

الاجتماعى . فاذا اضفنا الى ماتقدم تباين الغايات وتعدد الوسائل ، فضلا عن قيام افعال بعد تحقيق نتائج واهداف خاصة مثل صلوات الشكر التى تؤدى عقب نزول المطر عند بعض القبائل ، علاوة على تداخل مخطط الوسائل والغايات بحيث يمكن لاحدهما ان يصبح بديلا عن الاخر ، لاتضح لنا مدى تعقد مشكلة الغاية بما لايفيد معه التميز والتخصيص على النحو الذى يقول به بارسونز . ان الفعل تحكمه ظروف خارجية ومؤثرات داخلية او ذاتية ، وكلاهما يصعب الفصل بينهما . وتدخل الثقافة كوسط عام يخلق التباين والتعارض بين نماذج المجتمعات وانماط السلوك فيها .

وجاء تسلط النزعة السيكولوجية على كثير من الاعمال المتأخرة لبارسونز من عوامل الخلط بين المجالين ـــ السوسيولوجى ، خاصة وانه تناول الكثير من القضايا السيكولوجية على علتها ودون مراجعة لها .

لقد تعرض ماكس بلاك ..... Max Black فى مقال (بعض التساؤلات حول نظريات تالكوت بارسونز) ١٩٦٠ ، لشرح موقفه من الفعل وإنتهى الى نتيجة مؤداها ان هذا البناء لايؤدى لفهم جديد للسلوك البشرى ، لانه قام على نسق المناهج المطبقة فى العلوم الطبيعية الذى لايتفق وواقع الشئون الانسانية ، مما جعل مقولات الفعل الاساسية لاتتمتع ، باى شكل من اشكال الصدق التجريبى ، فضلا عن عدم توفر معايير الثبات . ومن ثم فقد جاءت متغيرات النمط ، وهذا على سبيل المثال ، تقسيما غير كاف ، بل غامضا ومبهما ولايرتبط نوع المصطلحات وشكل التعريفات بالملاحظة المباشرة ، وايضا بالمرتكزات الرئيسية للاطار التصورى للنظرية العلمية . اضف الى ذلك عدم وجود اى من الفروض النوعية او الفروض العامة ، وبذلك خلت من كثير من المقومات النظرية فى علم الاجتماع الحديث . ويستطرد بلاك قائلا بأن نظرية الفعل جمعت بين علوم الاجتماع والانثروبولوجيا الثقافية فى مخطط مشترك ، ولكن ملاحظات بارسونز المستقاة من هذه العلوم جاءت مبعثرة وغير متسقة . ومن أجل ذلك وجدناه يحدثنا عن ما يسميه التوجيهات وهو اصطلاح أكثر غموضا ، وكان من الاجدى أن يقول بالاتجاهات مادام المضمون واحد . ولكن بارسونز اراد بذلك التفرد ، ولكنه وقع فى شرك الغموض والابهام ، وحديثه عن المواقف له ايحاءات سيكولوجية أكثر منها سوسيولوجية ، لانه ربط المواقف بالابعاد

المعرفية والوجدانية وكليهما اكثر التصاقا بعلم النفس منه بعلم الاجتماع . فقد اشار الى ان كلا البعدين المذكورين يشكلان معا « الاستجابة » لكن الاستجابة ـــ على مايرى بلاك ـــ شيء اكثر من الفعل . وتفسير ذلك ان الاستجابة تضم ردود الافعال المستترة والبينة او الظاهرة وهى جزء من الموقف ، وقد اشار باسونز نفسه لبعض تلك الجوانب ، ولكن الفعل فى جملته قصد به شيئا ملموسا ومدركا وخارجيا(١) .وهذا مايفيد الخلط بين معنى الاستجابة كظاهرة قائمة اساسا على علم النفس وبين الموقف ، الذى يراه بارسونز احد المكونات الاساسية فى نظرية الفعل وهى نظرية سوسيولوجية ، ووجها آخر للخلط بين المجالين ، يظهر فى حديثه عن قضية التفاعل الاجتماعى فى النسق ، وهى من القضايا المحورية . فقد أقر بارسونز قيام عملية التفاعل على تكامل التوقعات فى أداء الدور ، وان ذلك يؤدى الى قيام شبكة من العلاقات المترابطة بين الأفعال ونتائجها . ويعجب المرء لأن التوقع فى عمومه مسألة تتم على المستوى المعرفى فى بالدرجة الأولى ، فى الوقت الذى يدخل فى اطارها جوانب وجدانية ونزوعية ، فيما يعبر عنه برغبات توجيه الذات نحو تحقيق مطالب الآخر أو العكس . وهذا ما يجعل الباحث مضطرا للدخول فى دائرة واسعة من الميكانيزمات السيكولوجية المركبة . وينتقل بلاك لمناقشة قضية التدعيم الذاتى المستمدة من المجال العضوى ، ليقرر بأن الانساق العضوية تخضع للقوى المتحكمة فيها لا سيما الميكانيزمات التى يسير وفقا لها الجهاز العصبى « السمبتاوى » . ومن أجل ذلك تستطيع أن تقاوم الضغط الخارجى ، وتحقق الضبط الداخلى بما يمكن معه الوصول لمبدأ اعادة التوازن فى حالة وقوع ما يخل باحدى الوظائف الأساسية المنوطة بها . وهذا ما لا يستقيم مع تصور بارسونز لانساق الفعل مقارنة بالانساق الحية خاصة فيما يتصل بفكرة التدعيم الذاتى أو القصور الذاتى أو اعادة التوازن(٢) . فاذا أضفنا الى ذلك عدم اكتراث بارسونز ، وهو بصدد مناقشة نظرية الفعل ، بالتغير الاجتماعى ، الا من منظور خاص ، يصبح من الممكن ـــ اتفاقا مع رأى بلاك ـــ

---

(١) Black Max, The social theories of Talcott parsons, Cornell un eversity, prentice-Hall, 1960, PP. 268-270.

(٢) Parsons. T. "Comments on the state of the General theory of action" In Americal Sociological Review, 1953, Volume 18, P. 623.

القول بأن نظرية الفعل جاءت أقرب فى التصور الى ما يطلق عليه الاستاتيكا الاجتماعية . ومن هنا فإن خاصية الثبات النسبى للمقولات التى يركز عليها بارسونز بالاضافة الى شدة تعقدها ، أدى لسوء الفهم من قبل بعض المفسرين ، خاصة وان التراكيب غير متسقة الى حد كبير مع السيل المتدفق من الدراسات الأمبيريقية ، التى استخدمت مصطحات سهلة ومبسطة ، والتى كانت جامعة شيكاغو صاحبة اليد الطولى فى القيام بها ، وهذا ما جعل المصطلحات الجديدة والمتعددة التى أتى بها بارسونز أقرب فى التصور من الطابع اليوتوبى والأفكار الخيالية (١) .

وجاءت أهم المخططات حول الفعل وأيضا النسق قاصرة ، ومنها البدائل النمطية والوظائف الأساسية ، والتى لم تحمل إلا دلالات محدودة ، ومع ذلك فهى ناقصة ومبهمة . وعلى الرغم من محاولة بارسونز تنقيح آرائه السابقة من خلال مراجعتها فى كتاباته المتأخرة ، الا أن هذه المراجعة لم تتدارك جوانب الضعف فى النظرية وتصحيح بعض مساراتها ، لا سيما مخطط الوسائل والغايات الذى كان عليه أن يصله بالمواقف المحددة والنوعية والمشخصة ، فذلك أجدى نفعا من أن يربطه بالتصور العام والشامل ، ومن أجل ذلك يشير كوهن .. Percy S. Cohen الى غموض هذا المخطط ، بما لا يتيسر معه الفصل بين الوسائل والغايات ، حتى على المستوى النظرى ، اللهم الا بالنسبة للمواقف المحددة ، والشروط التى يمكن السيطرة عليها ، وهى أكثر ما تكون ارتباطا بالمواقف العيانية . واذا كان بارسونز قد ربط بين كل من المواقف والظروف فى اطار مبدأ الملاءمة السابق الاشارة اليه ، فان كثير من المجتمعات تقبل مواقف لا تتمشى مع ظروفها ، على نحو ما يبدو فى قبول المجتمعات المسماة (بالبدائية) بغزو الرجل الأبيض لها ، كوسيلة لبلوغ حياة جديدة ، ولابد أن تدفع ثمن الوصول اليها ، والقبول بها يهز بنائها الاجتماعى كله . ويشير كوهن الى أن الاحتمالات المتوقعة للسلوك يخضع بعضها للاختبار الأمبيريقى والتجربة المباشرة ، على حين أن الكثير منها لا يمكن اخضاعه للتجريب . ثم إن معرفة الفاعل بالموقف تختلف عن معرفة الملاحظ له ، ومن ثم فإن المعرفة يجب أن تكون شاملة ، وتفوق ادراك الفاعل الى مراعاة الشروط ـــ الموضوعية . وهذا ما يشير الى ضرورة تجاوز

---

(١) Chohen, percy, Modern Sociological theory, Swans G.E. "The approach to a General theory of action" In American Sociological Review, 1953, Volume 18, P. 125-34.

الفاعل لمرحلة المعرفة والادراك الذاتى لنتائج سلوكه المحتملة ، الى مرحلة تجربة السلوك ، وتقنين كافة الأنماط والنتائج المترتبة عليها . وهذا ما لا يتم بالنسبة للفاعل من المنظور العام ، وانما قد يقع بالنسبة للذوات الفاعلة فى مواقف معينة تحيط بها ظروف خاصة ، ويكون لها من الكفايات والقدرات ما يعين على بلوغ ذلك المستوى (1) .

لقد أراد بارسونز أن يكسب الفاعل (الفرد) قدرا من البصيرة الاجتماعية ، ومقدرة على التحكم فى سلوكه وفقا لمقتضيات الموقف ، فقال بوجود استعداد الحاجات المتصل ببناء الشخصية على اعتبار أن هذا الاستعداد يمكن الفاعل من السيطرة على المواقف ، وفقا لما يكتسبه من خبرة ودراية بها ، ومن ثم يحصن نفسه بمجموعة من القدرات والكفايات التى تجعل سلوكه أكثر اتساقا مع الموقف . لكن فهم بارسونز لاستعداد الحاجات ، جاء غامضا وغير موضح المعالم أو الحدود ، وهذا ما جعله قاصرا على أن يفيد فى فهم الفعل أو تفسير سلوك الفاعل . ليبقى أن نقول ايجازا ، بأن موقف بارسونز من انساق الفعل تميز بطابع خاص وفريد ، على خلاف موقفه من البناء التصورى لنظرية الفعل . وقد تبلور هذا التفريد فى تقسيمه لانساق الفعل الى عدة أقسام ، ومع اتصال هذا التقسيم بالتمييز بين مجالات علوم الاجتماع والنفس والأنثروبولوجيا وعلم الحياة ، وهو تمييز مقرر فى التراث ، إلا أن ما حاول بارسونز اثباته هو انتساب هذه الانساق جميعها لنظرية الفعل كما يراها . وهذا تصور يتصل به وحده ، دون أن ينسحب الى مجال أوسع ليصبح تصورا متفقا عليه بين العلماء . ومع وجود انتقادات أخرى متعددة لنظرية الفعل ، إلا أن قليل من المؤشرات يكفى عن الافاضة فى التفاصيل .

ثانيا : الانتقادات الموجهة لمفهوم النسق :

إذا كان البعض يعتقد بأن نظرية النسق الاجتماعى جاءت بلورة لأفكار بارسونز عن الفعل ، فان هذا الموقف يتسق مع الخط الفكرى لآرائه ، إلا أن ما يحاول آخرون تأكيده من أن نظرية النسق جاءت تطويرا لفكرة الفعل ، بما يفيد انحسار الأخيرة فى سبيل تدعيم الأولى (أى نظرية النسق) ، فان هذا الموقف ليس له

Cohen, percy, Modern Sociological theory, Heinemann, London, 1968, PP.69 - 72.

ما يبرره . تكشف عن هذا أعمال بارسونز فى مراحلها المتعددة . فاذا أضفنا الى ذلك ، تناوله لكثير من القضايا المشتركة بين النظريتين ، ومنها على سبيل المثال البدائل والملزمات والتوازن والضبط الاجتماعى ، والتى أضحت قضايا رئيسية فى تصويره لفكرة النسق الاجتماعى ، فان كل ما يمكن تسجيله ، تحوير فى بعض الاهتمامات ، مع تركيز أكبر على القضايا التى أصبحت مثار جدل أكثر من غيرها . ولعل أهم نقاط الاهتمام فى نظرية النسق تمركزت حول فكرة الملزمات الوظيفية ، التى أصبحت حدودا مفروضة على الاختيار الطوعى ، الذى كان الأساس الأول للأداء فى نظرية الفعل ، كما يمكن أن نعد انفعال بارسونز بقضية التوازن الاجتماعى ، باعتبار أنها القاعدة العريضة للنسق الاجتماعى ، من المقومات الضرورية فى بناء النظرية ، هذا مع توفر قدر كبير من الشرح والتفسير لقضية التغير الاجتماعى ، والتى لم تكن ذات بال من قبل فى الحديث عن الفعل .

لقد تصور بارسونز المجتمع نسقا يحقق توازنا ، وأن هذا التوازن دينامى ، بمعنى أن التغير لا يعوق الاستقرار ، وهو فى ذلك يتفق مع تصوير باريتو للتوازن الاجتماعى . لكن هذا الأخير تناول الفكرة فى معرض حديثه عن دورة الصفوة فى اطار المجتمع ككل ، وهذا تصور لا يتفق وحدود التطبيق على المجتمع ككيان أكبر من مجرد وجود جماعة أو عدة جماعات كالصفوات مثلا ، ومن هنا فان انسحاب قضية التوازن من مجال الجماعة الى اطار المجتمع ، أمر يحتاج للمراجعة واعادة النظر (١) .

حاول داهرندورف الاجهاز على نظرية النسق الاجتماعى ، كما يصورها بارسونز ، من خلال تكريس الجهد لبناء نظرى مقابل لها ، يقوم على فكرة الصراع الاجتماعى ، الذى يتعدى نطاقه الطبقة أو الجنس أو الدين الى مجالات شتى ، وفى إطار هذه النظرية اعتبر داهرندروف نظرية النسق الاجتماعى قاصرة الى حد كبير ، وارجع عوامل قصورها الى اقصائها للصراع خارج نطاق النسق ، وعدم اهتمامها بالتاريخ ، وتركيزها على التوازن ، وهى فكرة أقرب فى التصور لما ألحقه سقراط بفكرة العدالة ، أى أنها تقوم على تصور فلسفى محض . وتقسيمات العلماء للتوازن الى

---

(١) Kiler, George, "Trends in General theory of systems", British Journal of Sociology, volume XXIV No. 1 (March) 11973, PP. 119-20.

مستقر ومتحرك تارة ، واستاتيكى وديناميكى تارة أخرى ، هى محض افتراضات نظرية لا ينهض عليها دليل . ثم إن الاشتراك فى القيم ، لا يفيد تحقق الاتفاق الاجتماعى عليها ، أو التسليم بوجدها كأمر واقع ، فضلا عن أن تحقق مثل هذا الاتفاق لا يزيح الصراح من مجال النسق ، ليبقى هذا الأخير قصرا على الجوانب المتسقة فحسب . وقد حاول بارسونز أن يضرب نطاقا من الأسوار حول نظريته ، فقال بأن النسق مدعم الحدود ، وذو كفاية ذاتية .. self-sufficient ، وأنه عبارة عن كل متكامل ، لأن الجزء لا يشكل نسقا ، فالساق لا تكون نسقا ، ولكن الجسم الحى كله هو الذى يشكل النسق . وهكذا ينساق بارسونز فى التشبيه بين البناء العضوى والاجتماعى ، على الرغم من التباين الشديد بينهما . ويمضى داهرندورف ليقرر بأن بارسونز يمثل الانحناء اليوتوبى للنظرية الاجتماعية فى القرن العشرين . كما وصف موقفه من التغير بالتعصب الأيديولوجى . ذلك أن التغير الاجتماعى أمر وارد ، ويقع بكافة الانساق ، وله صوره المتعددة وعوامله المختلفة ، كما توجد نظريات عديدة فى هذا الشأن (١) .

ولقد كشف التاريخيون منذ وقت طويل ، أنه لا ينبغى أن نحصر الأحداث فى اطار واحد ، فى الحروب والثورات أو سلوك الحكومة الخ ...، وانما ينبغى أن نهتم باتصال التاريخ من حيث كونه يعبر عن البعد الزمنى بمشكلة التغير الاجتماعى فى بناء الانساق . فاذا أضفنا الى ذلك ديمومة مشكلة الصراع على مر العصور ، دون أن ترتبط بالمواقف العابرة أو الاستثنائية ، تبين لنا مدى تحيز بارسونز لأيديولوجية . واذا كان فهمه مقتصرا على الجانب العنيف منه ، فان ظاهرة الصراع تخضع للتنظيم بما يحولها من حالة الحرب المسلحة الى مجال المناقشات الهادئة فى المجالس النيابية والمنظمات السياسية ، ومن صور التخريب الى تقديم المشورة والنصح . ومن ثم ينتهى داهرندورف الى اعتبار المجتمع كيان يمثل واجهتين لحقيقة واحدة ، ويربط بين الجانب المتسق من الحياة والجانب المتصارع . وأكثر من ذلك يشير داهرندورف لوظائف الصراع الايجابية ومنها اعادة تجديد الوحدات ، وتكوين الجماعات المفتوحة ، والقضاء

(١) Dahren - Dorf, Ralf, "Out of Utopia" In American Journal of Sociology, Xiv, PP. 115- 27.

على المتناقضات ، فضلا عن أنه يكشف عن المشكلات الأساسية التى يجب مواجهتها ، بما ينهض بالوحدة ويصون وجودها [1] .

كما يؤكد كوزر نفس اتجاه داهرندورف بشأن الصراع والوظائف الايجابية الملحقة به ، وتحفظات بارسونز الشديدة حيال الضغوط والتوترات ، ويقرر فى سبيل ذلك امكانية اخضاع ظاهرة الصراع للترشيد والضبط والتنظيم ، ومن ثم فان ما يطلق عليه كوزر الصراع المنظم يمكن أن يصبح القاعدة الكبرى فى المجتمعات الحديثة ، وهو بذلك يفوق فكرة التوازن التى ترتبط أكثر ما تكون بالجماعات الصغرى ، بينما يصبح النسق الاجتماعى بالمعنى الذى يحدده بارسونز مجال قيام الصراع . والصراع الاجتماعى على النحو المشار اليه صراع هادف وله وجود حقيقى مشخص مثل الصراع بين العمال والادارة . ويشير كوزر الى أن توزيع الأدوار والسلطة والمكانة لا يتم بطريقة واحدة حتى يمكن القول بتحقق فكرة التبادل فى التوقعات . ومن ثم فإن مظاهر الفشل والاحباط كثيرا ما تواجه الفاعلين الأفراد ، وتحول دون تحقيق التكامل المنشود بلوغه ، ثم أن الترابط الوثيق بين الأفراد كثيرا ما يكون مصدرا لخلق اضطرابات عنيفة قد تهدد الجماعة حين يتعرض هذا الترابط لأقل المسببات ، كما هو الحال فى الجماعات الانقسامية والمجتمعات البسيطة [2] . ومن أجل ذلك ينتهى كوزر الى قضية هامة تنفى أن يكون التماسك والترابط الاجتماعى الذى يقول به بارسونز ، محققا للاستقرار والتوازن ، ومؤدى تلك القضية « أنه كلما زاد تماسك الجماعة كلما زاد عمق الصراع The closer the group, the more intense the conflict. هذا بجانب قضايا أخرى كثيرة حاول من خلالها اثبات أن الصراع الاجتماعى يقوم على قاعدة أكبر بكثير من قاعدة التوازن التى يقول بها بارسونز بل أن الصراع من عوامل تحقيق التوازن الاجتماعى فى كثير من الأحوال . وازاء هذا التقابل بين كل من القضيتين يمكن أن أقرر هنا بأن كل من الصراع والتوازن يرتبطان بشروط وظروف ومواقف معينة ، ولا ينبغى أن نسحب أى منهما لتصبح هى القاعدة الكبرى . فإذا انتقلت الى اراء دافد لكوود .. David Lockwood حول نظريات بارسونز ، فانه يمكن القول بأنها

---

(١) Dahren Dorf Ralf, class and class conflict in Industrial societies, op-cit, PP. 160-60.

(٢) Goser Lewis, The function of Social conflict, the Free Press of Glencoe, second printing, May 1964, PP. 35-68.

جاءت مناظرة لانتقادات ماكس بلاك وأيضا داهرندورف وكوزر فى جملتها . وقد أشار الى تركيز نظرية النسق على الجوانب المعيارية والظواهر ذات الاستقرار النسبى فى الوقت الذى أغفلت فيه المتناقضات الاجتماعية ومتضادات السلوك ، أو تركتها بدون تفسير . ومن الظواهر التى لم تشد اهتمامه صراع المصالح وقوى القهر والردع على الرغم من أهميتها ودلالتها فى الانساق الكبرى والصناعية [1] . ومن أجل ذلك يقف س رايت ميلز موقفا مماثلا للكوود ، حين يتناول صراع المصالح منتقدا آراء بارسونز حول نسق الحياة الأمريكية القائم على مايسميه التوازن الاجتماعى . ويقرر فى هذا الصدد بأن نظريته قد أغفلت التاريخ ، وحصر نفسه فى صورة الحاضر ، دون أن يعير الماضى أى اهتمام أو يكترث بالمستقبل . وقد جاءت مناقشة كثير من القضايا كالتغير والضبط والتنشئة والملزمات الوظيفية فى شكل مؤشرات تخدم بالدرجة الأولى مخططه الأيديولوجى . وهذا ما دعى ميلز لتقديم منظور جديد لبحث القضايا السوسيولوجية ، أطلق عليه اسم « الخيال السوسيولوجى » ، الذى يقوم على أساس التحرر من كل قيد ، من أجل تحقيق عنصر الخلق أو الابتكار ، وهذا ما يدعو لتناول مشكلات العصر ، بما فيها الأيديولوجيا ، والاغتراب ، والصراع ، من منظور متعمق ، ومن خلال الفحص الشامل والدقيق ، بمنأى عن أية انطباعات خاصة . وهذا ما يؤدى بعلم الاجتماع للتحرر من كافة المعوقات التى كانت من الأسباب التى رسمت خطا فكريا واحد لبارسونز لم يستطع أن يحيد عنه [1] .

لقد تبين لنا اذاً قصور نظرية النسق الاجتماعى فى موقفها من مشكلات التغير الاجتماعى والضبط والانحراف والصراع والتوازن وغيرها ، وأيضا فكرة البدائل النمطية والملزمات الوظيفية فتناوله لقضية التوازن الاجتماعى لا يشير الى أية دلالات أمبيريقية لتطبيق تلك القاعدة ، ولم يسق من الشواهد ما ينهض دليلا على وجودها ، ولانكاد نجد مثالا واحد ينطوى حتى على احتمال تطبيق التوازن ، ومن ثم فقد جاء حديثه — مطلق ، ولمجرد الوصف النظرى ، دون أن يتطرق التنظير الى أية مسائل تفسيرية تتصل بالتوازن ، ليبقى تصوره تجريدى فحسب . وموقفه من التغير ، وان كان يشير

---

(١) Lockwood David, "Some remarks on the social system", British Journal of sociology 1956, vol.11, PP. 134-146.

(٢) Mills C. Wright, The sociological imagination, 1959, PP. 6-14.

الى منحنى خاص به ، إلا أن أرائه لا تخرج عن مجرد التبرير النظرى للواقع الأيديولوجى الذى التزم به . وحديثه عن الضبط والانحراف والتنشئة الاجتماعية جاء عاما وتقليديا ومن ثم لم يضف جديدا . ومع ذلك فقد وقف روبين وليامز Robin William موقف المدافع عن آراء بارسونز ، وعن الانتقادات الموجهة إليه ، لا سيما قضية التوازن . مؤكدا بأن تحقيق تلك القاعدة لا يتم بدون جهد ، أو فى المدى القصير ، وانما يقتضى مرور فترة ليست بالقصيرة بين وقوع التوترات والانحرافات فى اطار النسق وبين عملية اعادة التوازن من جديد . ثم ان بارسونز أقر بالوجود الدائم للانحراف والاغتراب والقهر ، ومهما يكن من أمر دفاع روبين ، فان انطباع كثير من علماء الغرب بآراء بارسونز كان شديدا ، يدل عليه استخدامهم لكثير من المفاهيم والمصطلحات والقضايا التى شاعت فى ثنايا كتاباتهم السوسيولوجية ، لا سيما ما دار منها حول الفعل والسلوك ، وموقفه من الانساق والنظم الاجتماعية ، واتجاهاته الوظيفية ، وعلى وجه التحديد تقسيمه للبدائل النمطية والملزمات الوظيفية . ولا تكاد تخلو مؤلفات علم الاجتماع الأساسية من الاشارة لآراء ونظريات بارسونز . وجاءت تفاصيل آراء بارسونز حول الانساق الكبرى محددة للأطر العامة والخواص النوعية لكل نسق بما يفيد تميزه عن غيره ، فى الوقت الذى يجعل من فكرة تبادل الحدود ، مجالا لتوضيح العلاقات التى تربط بين هذه الأنساق باعتبارها ميادين لتحديد اهتمامات ثلاثة من العلوم الاجتماعية الهامة وهى علم الاجتماع والنفس والأنثروبولوجيا . وقد نجح بارسونز وهو بصدد تناوله للانساق الأقل حجما فى ربط الظاهرة الاقتصادية بالاجتماعية ، فى اطار مسلكه الأساسى القائل بتداخل الانساق . واذا كان تقريره القائل بدخول النظرية الاقتصادية فى اطار النظرية العامة للانساق الاجتماعية غير مقبول ، لاختلاف الأبعاد التى تتحكم فى التوجيه النظرى لأى منهما . الا أن محاولاته هذه كشفت عن كثير من القضايا المشتركة بين المجالين .

ثالثا : مثالب وظيفية بارسونز :

على الرغم مما ينسب الى بارسونز من اسهامات قدمها للمدخل الوظيفى وعلى رأسها مخطط الملزمات فان هناك مواطن ضعف فى مسلكه الوظيفى ويمكن ايجازها فى عدة نقاط هى :

١ ــ يقوم تصور بارسونز للنسق على أنه بناء مركب من عدة وظائف تدور حول نواة مركزية ، هى القيم والمعايير الأخلاقية والمصالح ، وهذا التشبيه مستمد من العلوم البيولوجية ولا يتفق مع طبيعة الانساق الاجتماعية التى تختلف عن الانساق العضوية .

٢ ــ جاء تفسير بارسونز للوظائف الأساسية فى النسق ، تفسيرا غير مقنع ويشوبه الخلط تارة ، والازدواج تارة أخرى ، والتناقض تارة ثالثة ، على الرغم مما يحاول اقامته من حدود تميز أى منها على الأخرى ، ولنتساءل ماذا عسى أن يفهم المرء المقصود بوظيفة التكيف ؟ ربما كانت فكرة التكيف عموما الصق بالجماعات أو الوحدات الصغرى ، كتكيف الأعضاء الجدد مع الجماعات الثقافية أو الترفيهية المنتسبين لها ، عن طريق تمثل قيم الجماعة والاندماج معها ، لكن القول بخضوع المجتمعات ككل لوظيفة التكيف كشرط مسبق من شروط وجودها ، أمر أكثر ما يقال عنه أن يصبح محلا للبحث ، أو مشكلة ينبغى دراستها . ومن هنا يصعب أن نقر بوجود وظيفة أساسية تسمى التكيف بالنسبة للنسق ككل ، ويمكن فقط القول بامكانية بحث التكيف بالنسبة للقطاعات غير الممتثلة أو الجماعات التى يكشف سلوكها عن انحراف أو خروج عن نمط الحياة السائد . ولعل تصريح بارسونز عن ارتباط وظيفة التكيف أكثر ما تكون بالنسق الاقتصادى قد لا يتمشى مع اتصال النسق الثقافى هو الآخر ، وفى كثير من جوانبه بتلك الوظيفة ، وهذا موقف يكشف عن التناقض والازدواج . فاذا انتقلنا الى وظيفة أخرى كتدعيم النمط فان ارتباطها بالنسق الثقافى له ما يبرره ، على اعتبار أن الثقافة تهتم بالأنماط والنماذج المتسقة ، الا أن بارسونز قد ربط هذه الوظيفة أيضا بعنصر اقتصادى وهو الأرض . وهكذا نجد الكثير من أوجه الخلط التى تنصرف كذلك للوظائف الأخرى . ثم ما الذى يريده بارسونز من عبارة تصريف التوتر التى هى شطر من وظيفة تحقيق الهدف ؟

إن تصريف التوتر ، فضلا عما له من دلالات سيكولوجية ، كلمة غامضة وعامة ، ثم انها تتصل أساسا بالظروف والأسباب التى دعت اليها ، وهذا ما يدل على حدوث تغير فى تلك الشروط والظروف أو دخول عناصر جديدة . ولم يحاول بارسونز تفسير كثير من المشكلات الصعبة والمعقدة التى تدفع للتوترات ، وبالتالى فان الكلمة لا تعنى الا القليل بالنسبة للنسق الاجتماعى ككل مركب .

٣ — يرى البعض أن بارسونز قد جدد فى كثير من المصطلحات والتراكيب والأفكار الوظيفية ، ومن الأفكار المحدثة التى أتى بها فكرة المدخل والمخرج ، وحفظ الحدود والتوازن وغيرها . ومع شرح بارسونز المستفيض لهذه الأفكار وتبريراته النظرية لها ، الا أنه استعار أسسها ومقوماتها من علوم أخرى ، ويصبح دوره متمركزا فى بلورة هذه الأفكار ومدى امكان تطبيقها على الانساق الاجتماعية .

٤ — كان اهتمام بارسونز بقضية الدور الاجتماعى ، اهتماما ملحوظا ، حاول من خلاله تفسير فكرة اسهام الجزء فى تدعيم كيان الكل (النسق) ، وفصل القول حول ما يسميه تبادل التوقعات فى أداء الدور أو تطابقها ، ولكن خريطة التوقعات التى رسمها لم يكن لها فاعلية تذكر . لأنه عراها من كل مضمون اجتماعى ، حين صورها تصويرا ميكانيكيا طبقا لما هو معروف فى مجال الطبيعيات بقانون القصور الذاتى والذى يقول باستمرار عملية الفعل دون تغير فى الدرجة أو الاتجاه ، مالم تعمل قوى دافعة مضادة على تغيير تلك الدرجة أو ذلك الاتجاه .

وتفسير ذلك أن بارسونز جعل من الاحتمالات المتوقعة فى أداء الدور بين المشاركين مخططا يقوم على مجموعة من الموازنات التى تتحكم فى أداء الفرد بصورة أشبه بالمتواترات ، وأعتقد أنه بالامكان التنبؤ برد الفعل المقابل لأى أداء ، مع امكان تقدير النتائج المترتبة على القيام بأى سلوك مقدما فى اطار الشروط البنائية والوظيفية لأى نسق اجتماعى ، وفى حدود الرغبة والقدرة وفى تحقيق المطالب والحاجات المتعلقة بكل من الذات والآخر ، وعلى النحو المشار اليه فى الفصل الثالث . وهذا تصور غير واقعى وتعسفى ، ومن ثم لا يستقيم وقيام الدور الاجتماعى على ديناميات كثيرة ، هى أبعد ما تكون عن التصور الميكانيكى له .

٥ — وأخيرا فالقول بأن الملزمات الوظيفية تمثل شروطا مسبقة لوجود الانساق قضية فلسفية أكثر منها اطارا واقعيا ، أو مشكلة قائمة تسترعى الدراسة . ذلك لأنه لا يمكن منطقيا تصور مقومات الشىء قبل وجوده ، لأن هذه المقومات مستمدة أصلا من الخبرة المباشرة مع الكيان القائم . وأن النسق الاجتماعى قائم منذ أقدم العصور دون أن يرتبط وجوده بمجوعة من الشروط كتلك التى ذكرها بارسونز ، وكان الأحرى به القول بامكان استخلاص شروط معينة مصاحبة لوجودة المجتمعات ، ويكون المرجع الأساسى فى بلورتها معايشة المجتمع أو النسق ، ودراسته دراسة متعمقة بدلا من القول بأسبقية الشروط على الوجود أو العكس .

الخاتمـــة :

جمع يارسونز الكثير من المفاهيم المستمدة من علوم شتى وسخرها جميعا لمنطقه النظرى ، ولما يدافع عنه من قضايا ، وقد سبق بيان ذلك فى كل فصول هذا البحث ، وتجلى ذلك فى تناوله لنظرية الفعل والنسق على حد سواء . ولعل ذلك يبرر القول بأن اسهاماته كانت محدودة بالمقارنة لانطباعات الآخرين وتأثيرهم فى أعماله ، التى تجمع بين التصريح تارة وبين التلميح تارة أخرى بما يكشف عن أنه أخذ أكثر مما قدم ، وقلد أكثر مما جدد ، وجنح للتعقيد والتركيب فى المصطلحات والصيغ ، بدلا من البساطة والوضوح ، وهذا ما يعد مؤشرا للتحوير فى الشكل دون أن يؤدى الى تغير فى المضمون الفكرى ، أو تطوير ملموس . ومع قيام بارسونز بطرح كثير من القضايا والمفاهيم التى قد توحى بانطباع جديد ومستحدث ، والبحث فيما وراء المصطلحات والألفاظ الجديدة ينتهى الى محتوى فكرى محدود ، بسبب وجود جذور قوية لها عند غيره ، ومع ذلك فانه التزم بخط فكرى خاص واستطاع أن يكسبه كثير من مقدرات التعمق ، كما تأثر الكثيرون من علماء الاجتماع المعاصرين له ، خاصة فى الولايات المتحدة التى شهدت فترة من فترات تطور النظرية فى علم الاجتماع ، ساد فيها بارسونز على ما عداها واستقطبت الكثيرين حولها ، واستطاع بحق أن يشغل مكانة قوية بين معاصريه .

والمدخل الذى حاول بارسونز أن يصور فى اطاره نظرية النسق الاجتماعى من المداخل النظرية الكبرى ، وهو يعبر عن التصورات الشاملة لحالة المجتمعات . وعلى الرغم من أن المرحلة التى سادت فيها النظريات الكبرى فى تطور علم الاجتماع ، شهدت اهتماما كبيرا لدى علماء القرن التاسع عشر ، وكشفت تطورات النظرية عن انزواء هذا الاتجاه الشمولى ، الا أن الفكرة عاودت الظهور مرة أخرى لدى بعض العلماء ، وكان بارسونز واحدا منهم . حيث طلع علينا فى النصف الثانى من القرن العشرين بما يناظر مسلك علماء القرن التاسع عشر . ولكن من منظور جديد .

وأخيرا أستطيع أن أبلور الانتقادات الموجهة لبارسونز ، واسهاماته بالنسبة لعلم الاجتماع فى النقاط التالية :

أولا : الانتقادات الموجهة لبارسونز :

١ ــ ان نظريته عن الفعل تكشف عن أبعاد ومقومات غامضة ، وتقسيمه لقضية كبرى الى عناصر محددة على سبيل الحصر ، تقسيم تعسفى . ومجمل النظرية لا يؤدى لفهم جديد للسلوك البشرى ، وانه قام على أساس تصورات ميكانيكية وحيوية مستمدة من المناهج المطبقة فى العلوم الطبيعية والبيولوجية . وهى مناهج لا تتسق ودراسة الظواهر الاجتماعية وتعجز عن أن تفسر شىء ، أو تحقق أى مستوى تنبؤى معين وبذلك فهى تفتقد أهم مقومات النظرية العلمية . وفضلا عن كل ما تقدم فان حديث بارسونز عما يسميه النظرية العامة للفعل ، يعتمد كثيرا على آراء ماكس فيبر . ومن ثم فقد كانت اسهامات بارسونز فى هذا الصدد شكلية .

٢ ــ ان تحول بارسونز من الطوع فى بناء السلوك البشرى الى الاهتمام بالجوانب النفعية ، أو ما يشبه ذلك ، يعبر أصدق ما يكون التعبير ، عن تأثير الأيديولوجيا فى تفكيره وتقييدها لكثير مما يقدمه من تصورات وتمييزه بين الفعل والسلوك ليس له ما يبرره ، الا التبريرات الفلسفية . ويعتبر بعض العلماء أن تحوله عن المذهب الطوعى يمثل تناقضا بين الأفكار المبكرة والمتأخرة . وأقول بأن هذا التناقض محدود ومحصور طالما أن الخط الفكرى واحد . وكل ما فى الأمر من خلاف ، هو أن الظروف السياسية والاجتماعية التى تعرض لها العالم ومنها الحروب والثورات ــ والأزمات الاقتصادية ، وما أدت اليه من تنوع بين مصالح الدول وتعارضها ، جعل من المحتم على بارسونز أن يعدل عن خط سير تفكيره . وأن تلك النقطة تعد أضعف النقاط لمن يريد أن يقف موقفا نقديا من فكر بارسونز على ما أرى .

٣ ــ ان أفكار بارسونز عن التوازن والاستقرار فى النسق ، تكشف عن تستره الفكرى وراء الأيديولوجية الرأسمالية فى مواجهة فلسفة الصراع ، ومن أجل ذلك جاءت نظرية النسق الاجتماعى ، تصويرا للجانب المستقر والمتكامل السوى فحسب ، وأهملت مشكلات الانحراف والصراع ولهذا فقد وضعها بعض العلماء فى اطار النظريات ذات لبعد الواحد ، على الرغم من محاولة بارسونز تأكيد شمولها لجميع الأبعاد . والواقع أن تكريس الجهد من جانبه على الأبعاد الاستقرارية واهماله للصراع ، وهو من الظواهر الكبرى ، يبرر قيامها على منظور واحد . هذا على الرغم من محاولة

الفن جولدنر تبرير قيام نظرية النسق الاجتماعى على فكرة تعدد المتغيرات . ذلك لأن المتغيرات التى ضمنها بارسونز بحثه عن النسق ، جاءت قاصرة على البعد المتسق والمتوازن من الحياة الاجتماعية ، وأهملت الأبعاد الأخرى ، وأن محاولة جولدنر وصف نظرية النسق الاجتماعى عند بارسونز بأنها تقوم على فكرة المتغيرات لا يجعل منها نظرية كبرى . وتفسير ذلك أن هذه الفكرة أكثر ما تكون ارتباطا بالنظريات الصغرى ومتوسطة المدى أيضا ، أما صلتها بالنظريات الكبرى فمحدود الفائدة والأثر . ويعود ذلك بالدرجة الأولى الى تعقد الوحدات الكبرى ، وتباين مكوناتها بما يصعب معه تعيين مجموعة من المتغيرات ، التى يمكن أن تفسر كافة الظواهر أو تصبح مجالا للبحث والدراسة .

٤ ــ ينطوى موقف بارسونز من مشكلة الانحراف عن النسق على أفكار متناقضة بما يعقد الأمر ، ويجعل من الصعوبة بمكان التمييز بين دخول الانحراف فى اطار النسق ، أو خروجه كلية عنه . يضاف الى ذلك تهوين بارسونز من شأن ظاهرة الانحراف على الرغم من أهميتها .

٥ ــ قامت نظريات مناهضة لنظرية النسق ، تقول بالصراع الاجتماعى ، الذى يختلف عما يسميه بارسونز الصراع الطبقى ، ليصبح هذا الأخير شكلا واحدا من أشكال الصراع . ويقول هؤلاء بالوظائف الايجابية للصراع ، وبامكان تنظيمه ، واكسابه طابع سلمى ، وينتهون من ذلك الى نتائج مماثلة لما كشفت عنه نظرية النسق من تحقيق التكامل والاستقرار . ولعل قيام تلك النظريات ، قد بين كثير من مواطن القصور فى نظرية النسق . خاصة وان رواد هذه النظريات وجهوا جانبا من تفكيرهم لنقد هذه النظرية ، بل وهدم جوانبها من الأساس .

٦ ــ إن موقف بارسونز من مشكلة التغير الاجتماعى ، خاصة التغير فى البناء الاجتماعى يتجاهل كثير من الحقائق السوسيولوجية ، فالتغير عملية مستمرة ودائمة ولها أشكالها التى منها التغير فى البناء والنظم على حد سواء . وبصرف النظر عن نجاح أى من النظريات القائمة حول موضوع التغير فى تفسير الظواهر أو فشلها ، فان الظواهر المتصلة بالتحولات الشاملة فى بناء المجتمعات ومنها الثورات والتغييرات الجذرية ، والتى تتم على أثر التقدم التكنولوجى والتحضر ، قائمة وتكاد أن تصبح الوجه المميز لمعظم المجتمعات الحديثة ، لا سيما الأمم الجديدة والنامية ،

فكيف يمكن تبرير موقف بارسونز المتحفظ من قضية التغير البنائى ؟. ان محاولته المستمرة نحو نفى قيام نظرية تفسر التغير فى بناء الانساق ككل ، ولو حققت أى قدر من النجاح ، لا تحول بين وجود الظواهر المتصلة بالتغيرات الشاملة فى بناء المجتمعات . ثم انه يتجاهل كثير من النظريات التى قامت فى هذا الصدد ومنها نظريات سروكن . وتجاهله هذا له بعد ايدلوجى ، يحاول من خلاله تأكيد فكرة الاستقرار الاجتماعى فى مواجهة فلسفة النفى . وجملة القول أن موقف بارسونز من التغير ينطوى على نظرة قاصرة لتلك الظاهرة من أجل تبرير واقع اجتماعى يتصل أكثر ما يكون بقضية التوازن الاجتماعى فى النسق ، ولا سيما وانه يعتبر قاعدة التوازن أوسع بكثير من قاعدة التغير . وهذا ما يكشف عن تحيزه الواضح لأفكاره .

٧ ـــ إن متغيرات النمط ، أو البدائل النمطية ، لم تصادف الا نجاحا محدودا ، فى فترة معينة من تطور النظرية فى علم الاجتماع فحسب . لأنها تقسيمات قاصرة ومحدودة ويشوبها الخلط بين الأبعاد والحدود . ثم إن تقسيمه للوظائف الأساسية الأربعة ، لم يحرز أى تقدم يذكر ، اللهم الا على المستوى التصورى المحض . واذا أردنا أن نعين مثالب نظرية النسق الاجتماعى على سبيل الحصر ، فهذا ما يطول شرحه . ولهذا فقد كانت اسهامات بارسونز محدودة الأثر والفائدة حتى بالنسبة للمستوى النظرى ، فضلا عن أوجه القصور التى تعزى الى عدم اتساق الأفكار مع الواقع الأمبيريقى . ومن ثم فان الاسهامات التى يمكن أن نذكرها هنا ، تفيد فى مجال التصور النظرى فحسب ، وتكاد تنحصر فيما يلى .

ثانيا : اسهامات بارسونز :

١ ـــ نجح بارسونز ـــ إلى حد ما ـــ فى تقسيماته الكبرى للانساق العامة كالنسق الاجتماعى ، والنسق الثقافى ، ونسق الشخصية ، من حيث تعيين الخواص التى تميز بينها تمييزا تحليليا ، وهذا بغض النظر عما يمكن أن يوجه لتفاصيل حديثة عنها من انتقادات . وذلك لأنها جاءت تعبيرا نظريا عن الحدود التى يمكن أن تفصل بين الظواهر الاجتماعية والثقافية ، والأبعاد المتصلة ببناء الشخصية باعتبارها من المجالات الاساسية لثلاثة علوم هى علم الاجتماع ، والأنثروبولوجيا الثقافية ، وعلم النفس الاجتماعى . هذا فى الوقت الذى يعين فيه بارسونز أوجه الاتصال بين هذه

الأنساق من خلال فكرة تبادل الحدود . وهذه الفكرة الأخيرة من ابتكاره وكذلك فكرة حفظ الحدود ، التى تعبر فى جانب منها عن الاستقلال النسبى على المستوى النظرى لكل من الظواهر التى تضمها هذه الأنساق .

٢ ــ تعبر فكرة المدخل والمخرج عن تصور جديد للمقومات الضرورية والموارد اللازمة لقيام الوحدة الكبرى وهى النسق الاجتماعى ، وتفاعل هذه الجوانب معا من أجل بلوغ أهداف معينة ، أو الوصول لمخارج تتصل بتدعيم النسق . وعلى الرغم من أن هذه الفكرة وثيقة الصلة بمخطط الوسائل والغايات ، إلا أنها جاءت شاملة لأفكار تكشف عن عمليات وأبعاد كثيرة . وقد أراد بها بارسونز تصويرا لفكرة الانعكاسات والتدعيم الذاتى ، فالمخرجات ترتد من جديد على الوحدة وتمتزج بالمدخلات بما يحقق الضبط والتحكم فى النسق . ومع وجود مثل هذا التصور فى علم الاقتصاد ، فإن الفضل يرجع لبارسونز فى سحب الفكرة الى مجال الظواهر الاجتماعية عموما ، والسوسيولوجية على وجه الخصوص .

٣ ــ تعد البدائل النمطية والتقسيم الرباعى للوظائف بالصورة التى قدمها بارسونز تصورا جديدا ، بغض النظر عن وجود أساسيات لدى الآخرين من السابقين عليه ، والمعاصرين له كذلك ، وعلى الرغم مما يشوبها من قصور .

٤ ــ أن بارسونز من أشد غلاة علماء الاجتماع تقريرا لمبدأ التوازن الاجتماعى فى القرن العشرين ، وأن نظريته عن النسق الاجتماعى تكشف الى حد كبير عن محاولته المستمرة لتأكيد هذا المبدأ . والتوازن الاجتماعى الذى يقول به بارسونز من ذلك الشكل الدينامى ، أى أنه ليس توازنا استاتيكيا ــ على حد تعبير البعض . وإذا كانت فكرة التوازن فى علم الاجتماع فكرة قديمة ، الا أن اسهام بارسونز يكاد ينحصر فى كيفية تبرير وجودها كأساس عريض للنسق الاجتماعى .

ومن هنا فإن ما يمكن أن نخرج به من نتائج ، هو أن اسهام بارسونز فى علم الاجتماع كان محدودا ، إذا ما قارناه بما قدمه دور كايم مثلا ــ على الرغم من الفارق الزمنى بين الاثنين . وإذا كان هذا العالم قد قدم مجموعة كبيرة من المصطلحات الجديدة والتراكيب المستحدثة ، والتى أخذ بها البعض من العلماء ، فإن تعقد أفكاره وجنوحه للتصورات والخيال أحيانا ، أبعده عن الادراك الحقيقى لواقع المجتمعات .

واذا كانت أفكاره قد وجدت رواجا كبيرا فى فترة معينة من تطور علم الاجتماع فى الولايات المتحدة الأمريكية ، فان كثير منها قد أضحى الآن من قبيل التراث . ومع ذلك فإن دراسة التراث مسألة ضرورية ، خاصة إذا ما كان هذا التراث مجال اهتمام كبير فى فترة من الفترات ، وهذا ما أكدناه فى مقدمة هذا البحث ونعيد تأكيده فى الخاتمة .

تـــم بحمـــد الله

* * * *

مراجــــع البحــــث

أولا ـــ المراجــع العربيــــة :

الدكتور أحمد أبو زيد : البناء الاجتماعى ـــ الجزء الأول ـــ الطبعة الثانية ١٩٧٠

الدكتور محمد عاطف غيث : الموقف النظرى فى علم الاجتماع المعاصر ـــ الطبعة الأولى ـــ دار الكتب الجامعية

ثانيا ـــ المـــراجع المترجمــــة :

تيماشيف نيقولا : نظرية علم الاجتماع ـــ طبيعتها وتطورها

ترجمة : محمــــود عودة وآخرين

ثالثا ـــ المـــراجع الأجنبيـــة :

— Ashley Brian, A., & Cohen, Harry, S., Slatter, Roy, G., **An introduction to the sociology of Education, 1969.**

- Bo-Gourdus, Emory, S., **The development of social thought.** Fourth Edition, New york, 1960.

— Bootomors T.B., **Sociology,** a guide to a problem and literature, London, Uniwin University, 1969.

— British Journal of Sociology, volume XXII, June 1971. pp. 133-148.

— Buckley, Walter **Structural Funcional analysis in Modern Sociology** -New York, 1957.

— Black, Max.,**The social Theories Of Talcott Parsons,** Prentice-Hall, Inc 1960. pp. 1-63.

— Cohen, S. Percy, **Modern Sociological Theory, First published,** Heinemann London, 1968.

— Coser, A. Lewis, the function Of social conflict, The Free Press, Glencoe 111, 1956.

— Coser, A. Lewis Rosenberg, Branard, **Sociological Theory,** second Edition, the Macmillan Company, New York, 1968.

— DahernDorf, **Ralf, Class and Class Conflict in Industrial** Societies, 1959.

— DahrenDorf, Ralf, **Out Of Utopia,** The American Journal Of Sociology, XIV,pp 155 - 27.

— David, Kingsely, **The myth Of functional analysis in Sociology and social anthropology.** An American Socioiogical Review, 1959.

— Davis, Kingsely, **Human Society** - New York 1961.

— Diesing, paul, **Patterns of Discovery in social sciences,** Routiedge & Kegan paul, London, 1971.

— Durkheim, Emile, **The rules of Sociological method,** The Free Press, Glencoe, III. 1938.

— Durkheim, Emile, **Suicide, A study in Sociology,** Translated by: George Sumpsom, the Free press, Glencoe, III and Routledge & Kegan Paul, London, 1951.

— Durkheim, Emile, **Sociology and Philosophy,** Translated by: D.F. Pocock, The Free Press, Glenoe II. 1953.

— Elkin, Frederich, **The Child and Society,** Randon House, New York, 1960.

— Firth, Raymond, **Elements of Social Organization,** London, 1950.

— Firth, Raymond, **Human Types,** London 1956.

— Freud, Sigmound, **The Ego and Id.** London, 1947.

— Freud, Sigmound, **The interpretation of Dreams, Chapter (7)** London 1953.

— Glueksmann, Miriam, "Structuralism", British Journal of Sociology, XXII, June 1971 pp 209-213.

— Godfrey & Monican Wilson, **The analysis of Social Change** Cambridge University Press, 1968.

— Goode, J. Willian, "A theory of Role Strain", American Sociological Review, August 1960.

— Gouldner, Alvin, "The norm of reciprocity", American Sociological Review, Agust 1960.

— Gouldner, Alvin, **The coming Crisis of Western Sociology**, London-New Deelhi 1971.

— Hall, S. Calvin, **A primer of Fredian Psychology, A mentor** Book, April 1954.

— Homans, C. George, **Human group** Routledge & Kegan Paul Ltd. Broadway House, 1957.

— Horkheimer, Max & Adorno, Theodore, **Aspects of Sociology** Paperback, Heinemann, 1973. Translated by John Vietel.

— Inkels, Alex., **What is Sociology,** An introduction to the Displine and profession, prentice-Hall of India, Private Limited New Delhi 1971.

— Jesser, Richard & Growes, D. Theodore and others, **Society, Personality and Development behavior,** Halt Rein.Hart and Winston, Inc. 1968.

— Johnson, M. Harry, **Sociology,** Routledge & Kegan Paul Ltd., London Six impression 1968.

— Kilkahon, Clyde, **The study of Culture.** 1951. Chapter 5.

— Krober, Alfred, Louis, The Nature of Culture, University of Chicago, 1952.

— Lasswell, E. Thomas and others, **Sociology,** Scott Foresman and Company, 1970.

— Lazarfeld, P.F., **Main trends in Sociology,** George Allen & Unwin London, Unesco 1970.

— Lessnoff. M.H. "**Parsons, Systems problems**", American Sociological Review (16) July 1968 .

— Levy, Marion, J. The structure of Society, (Princeton, Princeton University Press 1952 .

— Linton, Ralf, **The study of man** Appleton - Century Crafts Inc .

— Linton, Ralf, The culture Back ground of personality, New York, 1945 .

— Lockwood, David, "Some remarks on the Social system ." British Journal of Sociology (June 1956) V.LL pp 134 - 146 .

— Loomis, P. Charles & Loomis, K. Zona. **Modern Social Theories,** D. Van Nostrand Company Inc. Princeton, New Jersey 1961 .

— Malinowski, Bronislaw, "**Functional analysis in Sociology**" . Anthropology, Encylopedia Britannica, First suplementary volume, 1936 pp. 132 - 39 .

— Marsh, M. Robert **Comparative Somparative Sociology,** Harcorurt, Brace & World, Inc. 1967.

— Martindale, Don, **Types and nature of Sociological Theory,** Routledge and Kegan Paul 1967 .

— Merton. R., **"Problems of Role position"**, the British Journal of Sociology Vill. June 1957 .

— Merton, Robert, **Social Theory and Social Structure.** The Free Press, Glencoe 111 1949 .

— Merton, Robert On Theoretical Sociology, Five Essays old and new, The Free press, New York Colier MacMillan Limited, London 1967 .

— Mills, C. Wright **The Sociological imagination,** New York, Oxford University Press, 1959 .

— Mitchell, G. Duncan **Dictionary of Sociology,** London 1967 .

— Neal. A.G. & Seeman, **"Organization and powerlessness"**, American Socio logical Review XXIX "2" 1962 .

— Neil, John, **Sociology as Askin Trade,** Essays Towards a reflexive sociology, Heinemann, London First published 1972 .

— NorBeck, Edward and others, **The study of personality,** Rice University 1968 .

— Novikov, Kilolai, **Organizational Society,** Social mechanisms and Ideology translated. By Lunkov. B, - Novsti Press Agency Publishing House Moscow, 1972.

— Ogburn, William, F. and Nimkoff Meyer, F. **A hand Book of Sociology New Delhi** - Fifth Edition, 1964 .

— Osipov. G., **Sociology,** Problems of theory and method, progress publishers Moscow - First printing 1969 .

— Pareto, **The mind and Society,** Volume "1" 1935 pp. 76 - 79 -

— Parsons Talcott, **The structure of Social action,** Mgraw - Hill Book Second Edition 1949 .

— Parsons. T., **The social system.** Routledge Kegan Paul Ltd. London 1951 .

— Parsons. T, **Essays in Sociological Theory,** Free Press paperback 1954 .

— Parsons. T, "Social system" International Encyclopedia of social sciences - volume (15) 1968 -

— Parsons, T, "Malinowski and the theory of social system" From man and culture, by Raymound Firth, Fourth Impression, 1968 pp. 53 - 70 .

— Parsons. T, **Some problems of General theory in Sociology.** In J. Mckinvey and E. Tiryakian.

— Parsons. T, Bales, Robert, F. and shils, Edward, A. **Working paper int he theory of action.** New York 1953.

— Parsons. T and Bales, Robert F. **Family, Socialization and intera ction process.** Routledge of Kegan Paul Ltd. London 1956 .

— Parsons, T, **Social Structure and personality,** The Free press of Glencce collier - MacMillian Ltd. London 1964 .

— Parsons. T and Smelser, Neil, **Economy and Society,** Routledge & Kegan Paul London 1961 -

— Parsons. T, ans Shils Edward, **Toward a General Theory of action.** Harper Torch Books, New York, 1962 .

— Parsons. T and Henderson A.M. From Max. Weber, **The theory of Social and Economic organization** The Free Press, Glenece, 111, 1947 .

— Radeliffe, Brown "Structure and function in primitive society" American Anthropologist, Volume XXXVII, 1935.

— Rex. John, **Key problems of social Theory,** Routledge & Kegen Paul London 1967 .

— Seeman, Melvin "On the meaning of Alienation", American sociological review, XXIX 1962 .

— Sherif, Mazafer and Wilson. M O **Group relations at cross roads,** New York, 1953 .

— Smelser, Neil. J. **The sociology of Economic life .** Fundation of modern sociological Series Prentice - Hall of India (Private) Ltd. New Delhi 1965 .

— Spencer, Herbert **The Principles of Sociology** Volume (1) New York 1897 .

— Sprott. W. J. **Human group,** Penguin Books chapter "g" 1958 .

— Tumin, Melvin. M. **Social Stratification,** Prentice - Hall of India private limited New Delhi 1969 -

— Voget. E, **"On the conceptions of structure** and function in culture Anthropology". American Anthropologist, XII, 1960

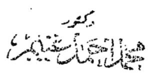
— Wallace, Walter, L, Sociological Theory, Heinemann First Published, 1969 .

— White, Leslie. A, **The science of Culture** 1949 -

— Worsley, Peter and others **Introducting sociology** Penguin Booke First published 1970. pp 142 - 180 .

— Zeitlin, Irving. M. **Ideology and the development of Sociological theory** Prentice - Hall of India private limited New Delhi 1969 .

محتويات الكتاب



صفحة

صفحة

دكتور
محمد أحمد غنيم

مطابع السحر

الناشر

مكتبة العليقي الحديثة
ALELIQY MODERN BOOK SHOP

القصيم / بريدة ــ ت : ٣٢٣٨٠٦١ ــ ص.ب :٤٥٦ بريدة